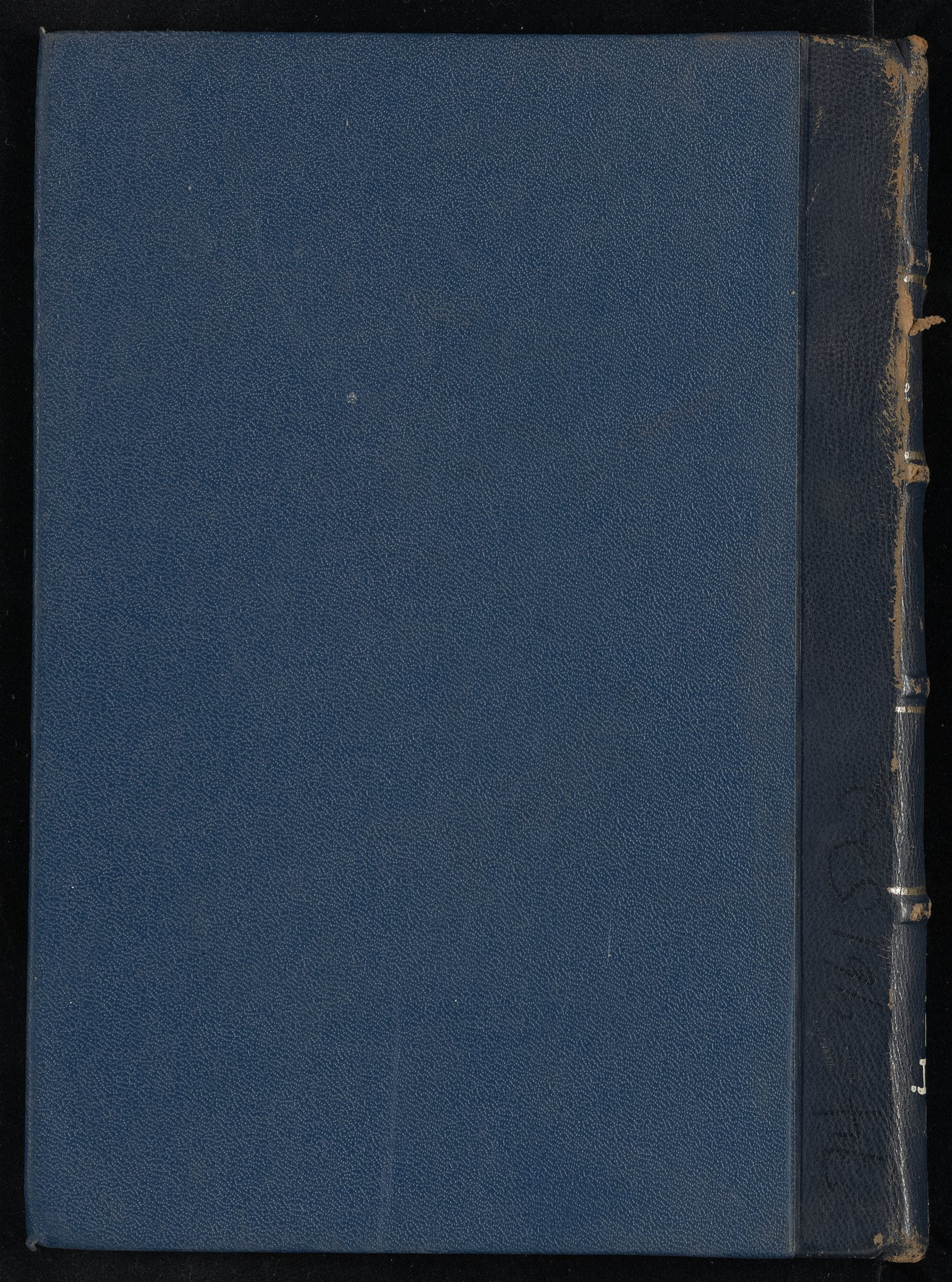
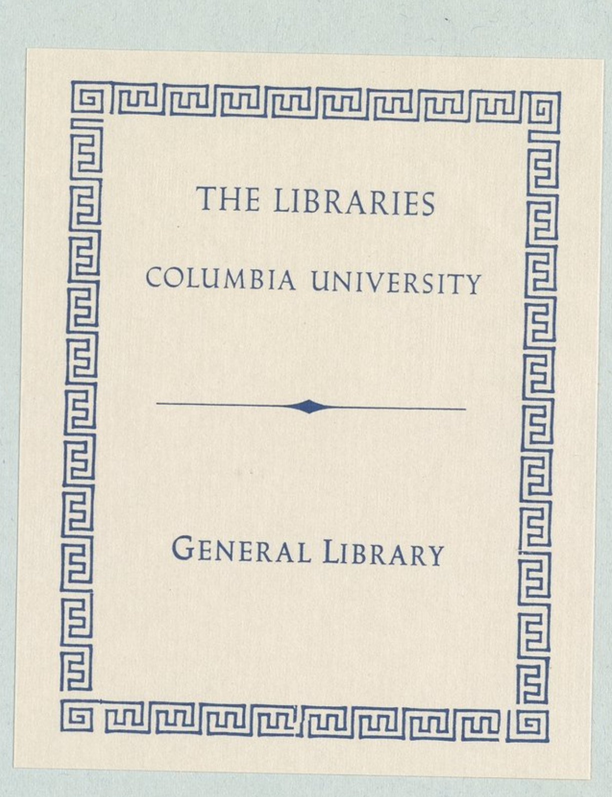
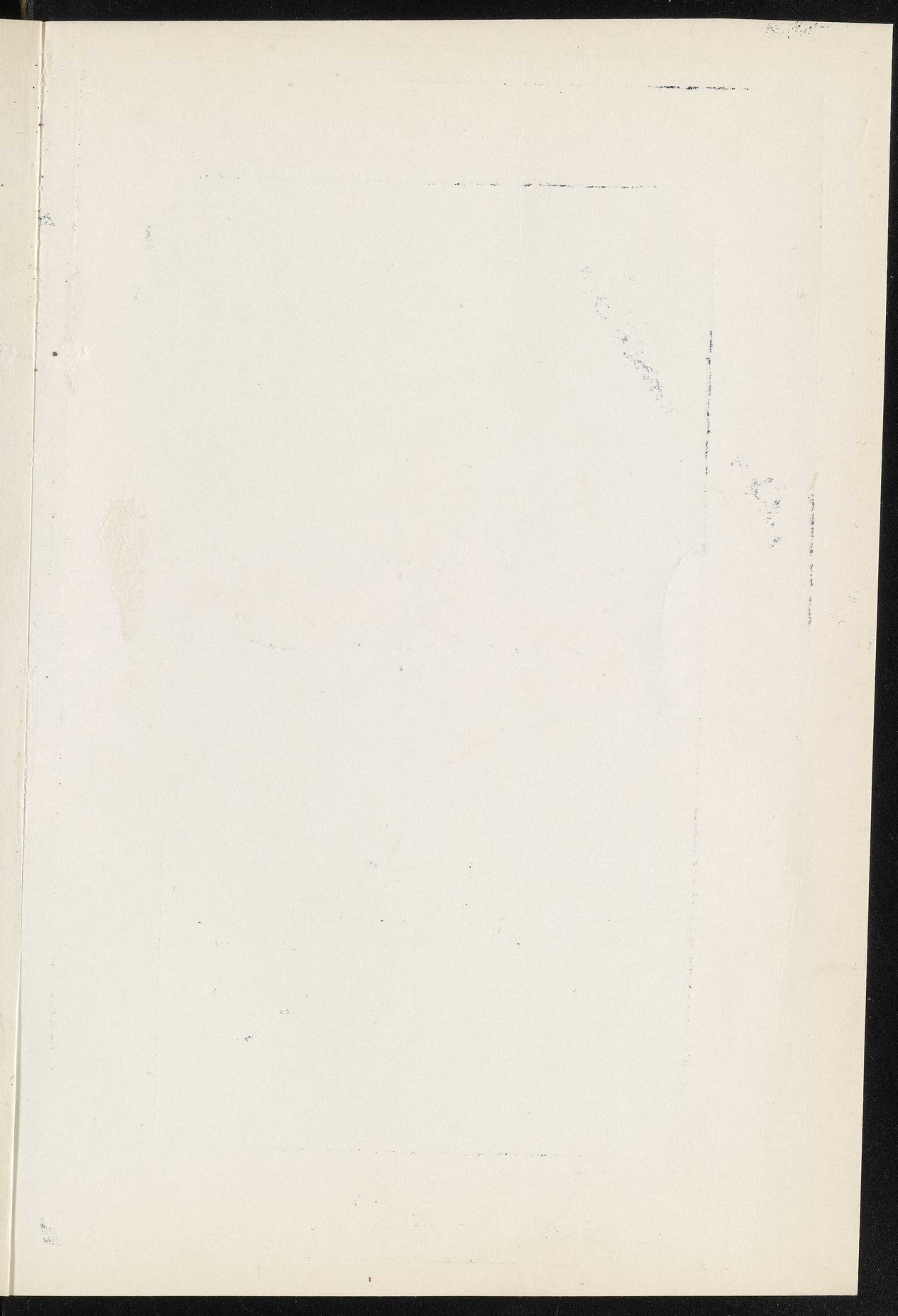
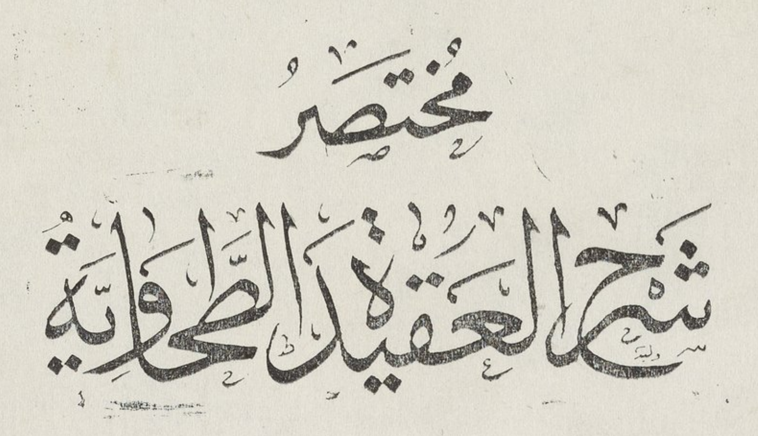





مطبوعات
كلية الدراسات الإسلامية
مختصر
شرح العقيدة الطحاوية
الطبعة الأولى
١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م





الطبعة الاولى

منشورات دار النذير للطباعة والنشر
بغداد

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

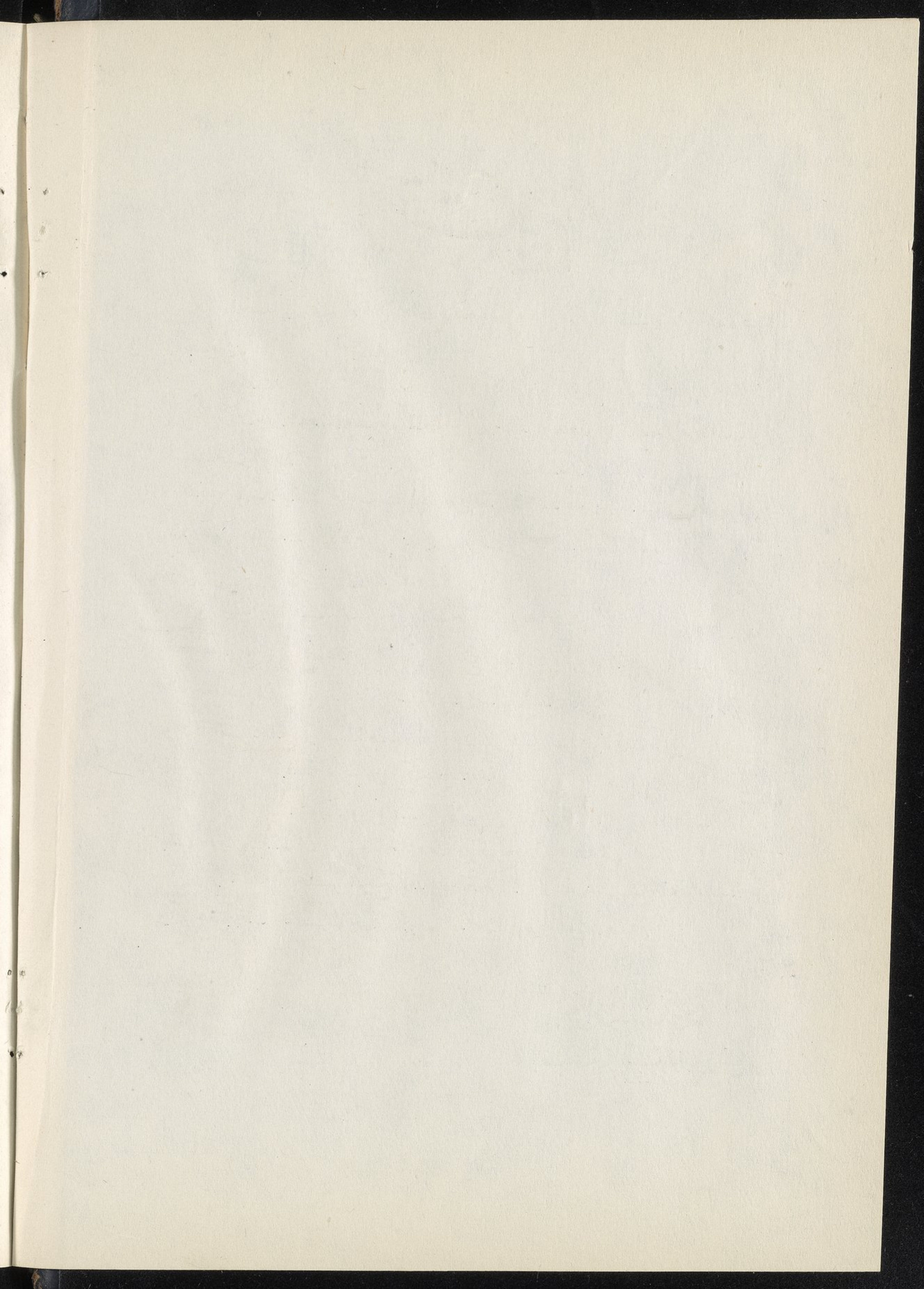
وبعد

فان متن العقيدة الطحاوية للامام أبي جعفر الطحاوي الفقيه المعروف المتوفى سنة احدى وعشرين وثلاثمئة للهجرة من المتون القديمة الموثوقة التي بينت جوانب العقيدة الاسلامية كما جاءت بها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وقد شرحها أحد العلماء الأفاضل القدامى وهو - على ما استظهره الشيخ أحمد شاكر - علي بن محمد ابن محمد بن أبي العز الحنفي .

وقد جاء هذا الشرح موضحاً أحسن توضيح لما جاء في متن العقيدة الطحاوية مع ذكر الادلة والبراهين من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة ، الا أنه جاء مطولا ، وفيه ابحاث استطرادية ليست لها علاقة مباشرة تمس العقيدة . وان كانت نافعة ، ولهذا فقد رأينا اختصار هذا الشرح ، لأن النفوس لم تعد تصبر على قراءة المطولات من الكتب القديمة وقد راعينا في الاختصار أن يبقى الشرح وافياً بالمقصود ، ومن هذا الاساس حذفنا منه ما ليس له علاقة مباشرة بشرح متن العقيدة ، مع وفاء الباقي منه بتوضيح هذه العقيدة .

وسميناه « مختصر شرح العقيدة الطحاوية » والله نسأل أن ينفع به المسلمين وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم انه نعم المولى ونعم النصير .

دار النذير
للطباعة والنشر والتوزيع



ترجمة الإمام الطحاوي
صاحب العقيدة

هو الامام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلامة بن عبدالملك بن سلمة بن سليم ابن سليمان بن جواب الازدي الطحاوي ـ نسبة الى قرية بصعيد مصر .

أحد الأئمة الكبار في الفقه والحديث ، ولد رحمه الله سنة تسع وثلاثين ومائتين للهجرة وتلقى العلم على خاله اسماعيل بن يحى الزين أفقه أصحاب الامام الشافعي وقد تحول الامام الطحاوي الى منهج المذهب الحنفي في الاجتهاد والتأصيل والتفريع حتى عد من أتباع هذا الذهب .

ولكن لم يكن مقيداً فيه ، ولذلك خالف فقه هذا المذهب في بعض المسائل ورجح قول غير الحنفية فيها ، لما يظهر هذا في كتابه معاني الآثار .

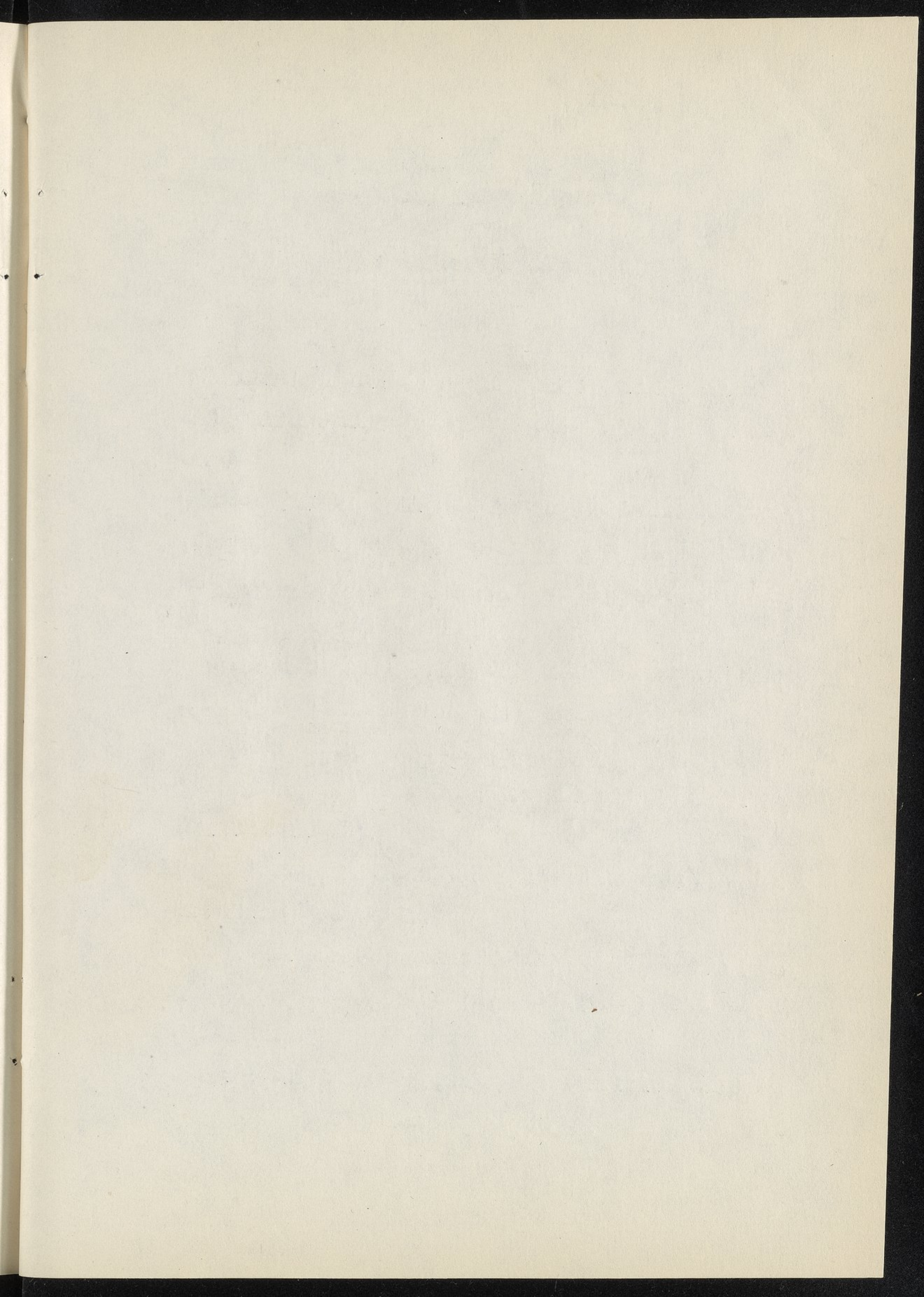
وقد أثنى على فقهه وعلمه وحفظه ومعرفته بالآثار غير واحد من العلماء .

قال الذهبي عنه في تاريخه الكبير : الفقيه المحدث الحافظ أحد الاعلام وكان ثقة ثبتاً فقيهاً عاقلا .

وقال عنه ابن كثير صاحب التفسير في كتابه (البداية والنهاية) : هو أحد الثقاة الاثبات والحفاظ الجهابذة .

أما مصنفاته فكثيرة منها (العقيدة الطحاوية) و (أحكام القرآن) و (معاني الآثار) و (شرح الجامع الكبير) و (شرح الجامع الصغير) وكتاب الشروط والمختصر وغيرها .

توفي رحمه الله سنة احدى وعشرين وثلاثمئة ليلة الخميس مستهل ذي القعدة بمصر ودفن بالقرافة .



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله / ، نحمده ، و / نستعينة ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يظالل فلا هادي له .

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد : فانه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم ، اذ شرف العلم بشرف المعلوم ، وهو الفقه الاكبر بالنسبة الى فقه الفروع ، ولهذا سمى الامام أبو حنيفة رحمة الله عليه ماقاله وجمعه في أوراق من اصول الدين : «الفقه الاكبر» وحاجة العباد اليه فوق كل حاجة ، وضرورتهم اليه فوق كل ضرورة ، لانه لا حياة للقلوب ، ولا نعيم ولا طمأنينة ، الا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها ، بأسمائه وصفاته وأفعاله . ويكون مع ذلك كله أحب اليها مما سواه ، ويكون سعيها فيما يقربها اليه دون غيره من سائر خلقه .

ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وادراكه على التفصيل ، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين ، واليه داعين ، ولمن أجابهم مبشرين ، ولمن خالفهم منذرين ، وجعل مفتاح دعوتهم ، وزبدة رسالتهم ، معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، اذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها الى آخرها .

ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان :

أحدهما : تعريف الطريق الموصل اليه ، / وهي شريعته المتضمنة لامره ونهيه .

والثاني : تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول اليه / من النعيم المقيم :
فأعرف الناس بالله عز وجل أتبعهم للطريق الموصل اليه ، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه . ولهذا سمى الله ما أنزله على رسوله روحا ، لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، ونورا لتوقف /الهداية/ عليه . فقال الله تعالى : (يلقي الروحَ من أمره على من يشاء من عباده) المؤمن : ١٥ . وقال تعالى : (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ . ولا روح الا فيما جاء به الرسول ، ولا نور الا في الاستضاءة به ، وسماه الشفاء كما قال تعالى : (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) فصلت : ٤٤ . فهو وان كان هدى وشفاء مطلقا ، لكن لما كان المنتفع بذلك هم المؤمنين ، خصوا بالذكر .

والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، فلا هدى الا فيما جاء به .

ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول ايمانا عاما مجملا ، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية ، فان ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله ، وداخل في تدبر القرآن وعقله وفهمه ، وعلم الكتاب والحكمة ، وحفظ الذكر ، والدعاء الى الخير ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعاء الى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي أحسن ، ونحو ذلك مما(١) أوجبه الله على المؤمنين ، فهو واجب على الكفاية منهم .

وأما ما يجب على أعيانهم : فهذا يتنوع بتنوع قدَرِهم ، وحاجتهم ومعرفتهم ، وما أمر به أعيانهم ، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك . ويجب على من سمع النصوص وفهمها

---

(١) في الاصل : ما .

من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها . ويجب على المفتي والمحدث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك .

وينبغي أن /يعرف/ أن عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق ، فانما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول ، وترك النظر والاستدلال الموصل الى معرفته . فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا ، كما قال تعالى : (فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) طه : ١٢٣-١٢٦ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ، /أن/ لا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الاخرة ثم قرأ هذه الآيات . وكما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انها ستكون فتن » قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : « كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ، ولا تلتبس به الالسن ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا تشبع (١) منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدي الى صراط مستقيم »(٢) الى غير ذلك من الآيات والاحاديث ، الدالة على مثل هذا المعنى .

---

(١) في الاصل : يشبع . وفي « سنن الترمذي » بالياء والتاء .

(٢) هذا حديث جميل المعنى ، ولكن اسناده ضعيف ، فيه الحارث الاعور ، وهو لين ، بل اتهمه بعض الائمة بالكذب ، ولعل أصله موقوف على علي رضي الله عنه ، فأخطأ الحارث فرفعه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ولا يقبل الله من الاولين والآخرين دينا يدينون به ، الا أن يكون موافقا لدينه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم السلام .

وقد نزه الله تعالى نفسه عما يصفه العباد ، الا ما وصفه به المرسلون بقوله سبحانه : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) الصافات : ١٨٠-١٨٢ . فنزه نفسهسبحانه عما يصفه بهالكافرون. ثم سلم على المرسلين ، لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب ، ثم حمد نفسه على تفرده بالاوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد .

ومضى على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم خير القرون ، وهم الصحابة والتابعون لهم باحسان ، يوصي به الاول الآخر(١) ويقتدي فيه اللاحق بالسابق . وهم في ذلك كله بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم مقتدون ، وعلى منهاجه سالكون ، كما قال تعالى في كتابه العزيز : (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) يوسف : ١٠٨ . فان كان قوله : (ومن اتبعني) معطوفا على الضمير في (أدعو) ، فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة الى الله . وان كان معطوفا على الضمير المنفصل ، فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون غيرهم ، وكلا المعنيين حق .

وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم البلاغ المبين ، وأوضح الحجة للمستبصرين ، وسلك سبيله خير القرون .

ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا أهواءهم ، وافترقوا ، فأقام الله لهذه الامة من يحفظ عليها أصول دينها ، وكما أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لايضرهم من خذلهم »(٢) .

وممن قام بهذا الحق من علماء المسلمين : الامام أبو جعفر أحمد بن محمد بن

---

(١) في الاصل : للاخر .

(٢) متفق عليه .

سلامة الأزدي الطحاوي ، تغمده الله برحمته ، بعد المائتين ، فإن مولده سنة تسع وثلاثين ومائتين ، ووفاته/سنة احدى وعشرين/ وثلاثمائة(١) .

فأخبر رحمه الله عما كان عليه السلف ، ونقل عن الامام أبي حنيفة النعمان ابن ثابت الكوفي ، وصاحبيه أبي يوسف يعقوب ابن ابراهيم الحميري الانصاري ، ومحمد بن الحسن الشيباني رضي الله عنهم - ما كانوا يعتقدون من أصول الدين ، ويدينون به رب العالمين .

فالواجب اتباع المرسلين ، واتباع ما أنزل الله عليهم . و /قد/ ختمهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فجعله آخر الانبياء ، وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من كتب السماء ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين ، الجن والانس ، باقية الى يوم القيامة ، وانقطعت به حجة العباد على الله. وقد بين الله به كل شيء ، وأكمل له ولامته الدين خبرا وأمرا ، وجعل طاعته طاعة له ، ومعصيته معصية له ، وأقسم بنفسه أنهم لايؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم ، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكموا الى غيره ، وأنهم اذا دعوا الى الله والرسول ، وهو الدعاء الى كتاب الله وسنة رسوله - صدوا صدودا .

فكل من طلب أن يحكم في شيء من أمر الدين غير ما جاء به الرسول ، ويظن أن ذلك حسن ، وأن ذلك جمع بين ما جاء به الرسول وبين ما يخالفه - فله نصيب من ذلك ، بل ما جاء به الرسول كاف كامل ، يدخل فيه كل حق ، وانما وقع

---

(١) تجد ترجمته مفصلة في : « تذكرة الحفاظ » للذهبي ٣ : ٢٨-٢٩ و «تاريخ ابن كثير » ١١ : ١٧٤ . و « المنتظم » لابن الجوزي ٦ : ٢٥ . و « شذرات الذهب » ٢ : ٢٨٨ . و « اللباب » لابن الاثير ٢ : ٨٢ . و « الجواهر المضية » لابن أبي الوفاء ١ : ١٠٢-١٠٥ . و« الفوائد البهية » : ٣١-٣٤ . و « لسان الميزان » ١ : ٢٧٤-٢٨٢ . و « تهذيب تاريخ ابن عساكر » ٢ : ٥٤-٥٥- و « ابن خلكان» ١ : ٥٣-٥٥ طبعة مكتبة النهضة بمصر .

التقصير من كثير من المنتسبين اليه . فلم يعلم ما جاء به الرسول في كثير من الأمور الكلامية والاعتقادية ، ولا في كثير من الاحوال العبادية ، ولا في كثير من الامارة السياسية ، أو نسبوا الى شريعةالرسول ، بظنهم وتقليدهم ، ما ليس منها ،وأخرجوا عنها كثيرا مما هو منها .

قوله : (نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله أن الله واحد لا شريك له) .

ش : اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق ، وأول مقام يقوم فيه السالك الى الله عز وجل . قال تعالى : (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) الاعراف : ٥٩ . وقال هود عليه السلام لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) الاعراف : ٦٥ . وقال صالح عليه السلام لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) الاعراف : ٧٣ . وقال شعيب عليه السلام لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) الاعراف : ٨٥ . وقال تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا اللهواجتنبوا الطاغوت) النحل : ٣٦ . وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون) الانبياء : ٢٥ . وقال صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله »(١) .

فالتوحيد أول الامر وآخره ، أعني : توحيد الالهية ، فان التوحيد يتضمن ثلاث أنواع :

أحدها : الكلام في الصفات . والثاني : توحيد الربوبية ، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء . والثالث : توحيد الالهية ، وهو استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لاشريك له .

أما الاول : وهو الكلام في الصفات فسيأتي الكلام عنه فيما بعد .

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس .

وأما الثاني : وهو توحيد الربوبية ، كالاقرار بأنه خالق كل شـيء ، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والافعال ، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية ، وهـذا التوحيد لم يذهب الى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ، بل القلوب مفطورة على الاقرار به أعظم من كونها مفطورة على الاقرار بغيره من الموجودات ، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم : (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والارض) ابراهيم : ١٠ .

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بانكار الصانع فرعون ،وقد كان مستيقنا به في الباطن ، كما قال له موسى : (لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر) الاسراء : ١٠٢ . وقال تعالى عنه وعن قومه : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) النمل : ١٤ .

الثالث(٢) وهو توحيد الالهية المتضمن توحيد الربوبية ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فان المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ، وأن خالق السموات والارض واحد ، كما أخبر تعالى عنهم بقوله : (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) لقمان : ٢٥ . (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون. سيقولون لله قل أفلا تذكرون) المؤمنون : ٨٤ ، ٨٥ . ومثل هذا كثير في القرآن ، ولم يكونوا يعتقدون في الاصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم ، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الامم من الهند والترك والبربر وغيرهم ، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الانبياء والصالحين ، ويتخذونهم(١) شفعاء ، ويتوسلون بهم الى الله ، وهذا كان أصل شرك العرب ، قال تعالى حكاية عن قوم نوح : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) - نوح : ٢٣ - وقد ثبت في « صحيح البخاري » ، وكتب التفسير،

---

(١) في الأصل : ويتخذوهم .

(٢) ذكر المؤلف النوع الاول والثاني ، ولم نجد في النسخة المخطوطة او في النسخ المطبوعة ذكراً للثالث ، ويبدو ان محله هنا .

وقصص الأنبياء وغيرها ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيرها من السلف،
أن هـــذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم
صوروا تماثيلهم ، ثم طـــال عليهم الامـــد ، فعبدوهم وأن هذه الاصنام بعينها
صارت الى قبائل العرب ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما ، قبيلة قبيلة(١) وقـد
ثبت في « صحيح مسلم » عن أبي الهياج الاسدي ، قال : قال لي علي بن أبي طالب
رضى الله عنه : ألا أبعثك على ما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ « أمرني
أن لا أدع قبرا مشرفا الا سويته ، ولا تمثالا الا طمسته »(٢) وفي « الصحيحين »
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في مرض موته « لعن الله اليهود والنصارى ،
اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »(٣) يحذر ما فعلوا ، قالت عائشة رضي الله عنها :
ولولا ذلك لابرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا ، وفي « الصحيحين » أنـه
ذكر في مرض موته كنيسة بأرض الحبشة ، وذكر من حســـنها وتصاوير فيها ،
فقال : « ان أولئك اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا
فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عنـــد الله يوم القيامة »(٤) - وفي « صحيح
مسلم » عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال قبل أن يموت بخمس : « ان من كان قبلكم
كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ،
فاني أنهاكم عن ذلك »(٥) .

فعلم ان التوحيد المطلوب هو توحيـــد الالهية ، الذي يتضمن توحيـــد
الربوبية . قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها

---

(١) صحيح وهو موقوف في حكم المرفوع .

(٢) صحيح أخرجه مسلم وأحمد وغيرهما وله طرق ذكرتها في « ارواء الغليل » .

(٣) صحيح وهو من حديث عائشة وأبي هريرة ، وله شواهد كثيرة .

(٤) صحيح وهو من حديث عائشة ، خرجته في المصدر السابق .

(٥) صحيح ، ورواه أبو عوانة في « صحيحة » أيضا ، وغيره .

لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون) الروم : ٣ (منيبين اليه واتقوه واقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون . واذا مس الناس ضر - دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا اذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون . ام انزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون واذا اذقنا الناس رحمة فرحوا بها وان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم اذا هم يقنطون) الروم : ٣١ - ٣٦ وقال تعالى : (افي الله شك فاطر السموات) ابراهيم : ١٠ وقال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه(١) » ولا يقال : ان معناه يولد ساذجاً لايعرف توحيداً ولا شركاً ، كما قال بعضهم - لما تلونا ، ولقوله صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل « خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين »(٢) الحديث . وفي الحديث المتقدم مايدل على ذلك ، حيث قال : « يهودانه او ينصرانه اويمجسانه » ولم يقل ويسلمانه وفي رواية « يولد على الملة » وفي اخرى : « على هذه الملة » .

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الامثال له . ومن ذلك انه يقرر توحيد الربوبية ، ويبين انه لاخالق الا الله ، وأن ذلك مستلزم ان لايعبد الا الله ، فيجعل الاول دليلا على الثاني ، اذ كانوا يسلمون / في / الاول(٣) وينازعون في الثاني ، فيبين لهم سبحانه أنكم اذا كنتم تعلمون انه لاخالق الا الله / وحده / ، وانه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ، ويدفع عنهم مايضرهم ، لاشريك له في ذلك ، فلم تعبدون غيره ، وتجعلون معه آلهة اخرى ؟

كقوله تعالى : (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ءآلله خير أما

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم واحمد .

(٣) في الاصل : للاول .

يشركون ام من خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون) النمل : ٥٩ الآيات . يقول الله تعالى في آخر كل آية (أإله مع الله) أي أإله مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهام انكار ، يتضمن نفي ذلك ، وهم كانوامقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله ، / فاحتج عليهم بذلك ، وليس المعنى انه استفهام هل مع الله اله ، كما ظنه بعضهم ، لان هذا المعنى لايناسب سياق الكلام ، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة اخرى ، كما قال تعالى : (انكم لتشهدون ان مع الله آلهة أخرى قل لااشهد) الانعام : ١٩ . وكانوا يقولون : (أجعل الآلهة الها واحداً ان هذا لشيء عجاب) ص : ٥ . لكنهم ما كانوا يقولون : ان معه الهاً (جعل الارض قراراً ، وجعل خلالها انهارا ، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً) النمل : ٦١ . بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا ، وهكذا سائر الآيات . وكذلك قوله تعالى : (ياايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) البقرة : ٢١ . وكذلك قوله في سورة الانعام : (قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به) الانعام ٤٦ . وامثال ذلك .

ولما كان الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم ، باعتبار اثبات خالقين متماثلين في الصفات والافعال ، وانما ذهب بعض المشركين الى ان ثم خالقاً خلق بعض العالم ، كما يقوله الثنوية في الظلمة ، وكما يقوله القدرية في افعال الحيوان وكما يقوله الفلاسفة الدهرية في حركة الافلاك او حركات النفوس ، او الاجسام الطبيعية ، فان هؤلاء يثبتون اموراً محدثة بدون احداث الله اياها ، فهم مشركون في بعض الربوبية ، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئاً من نفع او ضر ، بدون ان يخلق الله ذلك .

فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجوداً في الناس ، بين القرآن بطلانه ، كما في قوله تعالى : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذاً لذهب كل اله بما خلق

ولعـلا بعضهم على بعض) المؤمنون : ٩٢ . فتأمـل هـذا البرهان البـاهر ، بهذا اللفظ الوجـيز الظـاهر . فان الاله الحق لابـد ان يكون خالقـاً فاعلا ، يوصل الى عابده(١) النفع ويدفـع عنه الضر ، فلو كان معه سبحانه اله آخر يشركه في ملكه ، لكان له خلق وفعل ، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة ، بل ان قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والالهية دونه فعل ، وان لم يقدر على ذلك انفرد / بخلقه وذهب بذلك الخلق ، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه ، اذا لم يقدر المنفرد / منهم على قهر الآخر والعلو عليه .

وتوحيد الالهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس . فمن لا يقدر على ان يخلق يكون عاجزاً ، والعاجز لا يصلح ان يكون الهاً . قال تعالى : (ايشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون) الاعراف : ١٩١ . وقال تعالى : (افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون) النحل : ١٧ . وقال تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلا) الاسراء : ٤٢ .

انواع التوحيد الذي دعت اليه الرسل

ثم التوحيد الذي دعت اليه رسل الله ونزلت به كتبـه نوعان : توحيد في الاثبات والمعرفة ، وتوحيد في الطلب والقصد .

فالاول : هو اثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وافعاله واسمائه ، ليس كمثله شيء في ذلك كله ، كما اخبر به عن نفسه ، وكما اخبر رسوله صلى الله عليه وسلم وقد افصح القرآن عن هذا / النوع / كل الافصاح ، كما في اول (الحديد) و (طه) وآخر (الحشـر) واول (آلم تنزيل السجدة) واول (آل عمـران) وسورة (الاخلاص) بكمالها ، وغير ذلك .

والثاني : وهو توحيد الطلب والقصد ، مثل ما تضمنته سورة (قل يا ايها الكافرون) ، و (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم) آل عمران ٦٤ ، واول سورة (تنزيل الكتاب) وآخرها ، واول سورة (يونس) واوسطها

---

(١) في الاصل : عباده .

وآخرها ، واول سورة (الاعراف) وآخرها ، وجملة سورة (الانعام) .

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد ، بل كل سورة في القرآن .
فالقرآن اما خبر عن الله واسمائه وصفاته ، وهو التوحيد العلمي الخبري. واما دعوة الى عبادته وحده لاشريك له ، وخلع مايعبد من دونه ، فهو التوحيد الارادي الطلبي . واما امر ونهي والزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته . واما خبر عن اكرامه لاهل توحيده ، وما فعل بهم في الدنيا ومايكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده . واما خبر عن اهل الشرك ، ومافعل بهم في / الدنيا /(١) من النكال ، وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ،وفي شأن الشرك واهله وجزائهم فـ (الحمد لله رب العالمين) توحيد ، (الرحمن الرحيم) توحيد، (مالك يوم الدين) توحيد ، (اياك نعبد واياك نستعين) توحيد ، (اهدنا الصراط المستقيم) توحيد متضمن لسؤال الهداية الى طريق اهل التوحيد ، (الذين انعمت عليهم) ، (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) الذين فارقوا التوحيد .

وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهدت له به ملائكته وانبياؤه ورسله . قال تعالى : (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط لااله الا هو العزيز الحكيم . ان الدين عند الله الاسلام) آل عمران : ١٨و١٩ . فتضمنت هذه الآية الكريمة اثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع طوائف الضلال ، فتضمنت اجل شهادة واعظمها واعدلها واصدقها،من اجل شاهد،بأجل مشهود به .

قوله : (ولا شيء مثله) .

ش : ان الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله . ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظا مجملا يراد به المعنى الصحيح ،

(١) في الاصل : (العقبى) والصواب من المطبوعة .

وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل ، من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته : (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١ ، رد على الممثلة المشبهة (وهو السميع البصير) ، رد على النفاة المعطلة ، فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق ، فهو المشبه المبطل المذموم ، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق ، فهو نظير النصارى في كفرهم ، ويراد به أي لفظ التشبيه أنه لا يثبت لله شيء من الصفات ، فلا يقال : /له/ قدره ، ولا علم ، ولا حياة ، لان العبد موصوف بهذه الصفات ! ولازم هذا القول أنه لا يقال له : حي ، عليم ، قدير ، لان العبد يسمى بهذه الاسماء ، وكذلك كلامه وسمعه وبصره(١) /وارادته/ وغير ذلك . وهذا غير صحيح .

فان الله سمى نفسه بأسماء ، وسمى بعض عباده بها ، وكذلك سمى صفاته بأسماء ، وسمى ببعضها صفات خلقه ، وليس المسمى (بتشديد الميم وفتحها) كالمسمي فسمى نفسه : حيا ، عليما ، قديرا ، رؤوفا ، رحيما ، عزيزا ، حكيما ، سميعا ، بصيرا ، ملكا ، مؤمنا ، جبارا ، متكبرا . وقد سمى بعض عباده بهذه الاسماء ، فقال : (يخرج الحي من الميت) الانعام : ٩٥ والروم : ١٩ . (وبشروه بغلام عليم) الذاريات : ٢٨ . (فبشرناه بغلام عليم) الذاريات : ٢٨ . (فبشرناه بغلام حليم) الصافات : ١٠١ . (بالمؤمنين رؤوف رحيم) التوبة : ١٢٨ . (فجعلناه سميعا بصيرا) . الدهر : ٢ . (قالت امرأة العزيز) يوسف : ٥١ . (وكان وراءهم ملك) الكهف : ٧٩ . (أفمن كان مؤمنا) السجدة : ١٨ . (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) المؤمن : ٣٥ . ومعلوم أنه لا يماثل الحي الحي ، ولا العليم العليم ، ولا العزيز العزيز ، وكذلك سائر الاسماء ، وقال تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه) البقرة : ٢٥٥ .

---

(١) في الاصل : وبصره ورؤيته وهما واحد ، ولعل المقصود بصره وارادته كما هو في احدى النسخ المطبوعة .

(أُنزِلَ له بعلمه) النساء : ١٦٦ . (وما تحمل من أُنثى ولا تضع الا بعلمه) فاطر : ١١ . (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) الذاريات : ٥٨ . (أو لم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) حم السجدة : ١٥ . وعن جابر رضي الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الامور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول اذا هم أحدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم اني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم(١) ، وأنت علام الغيوب، اللهم ان كنت تعلم أن هذا الامر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال : عاجل أمري وآجله ـ فاقدره لي ، ويسره(٢) لي ، ثم بارك لي فيه ، وان كنت تعلم أن هذا الامر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال : عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني ، وأصرفني عنه ، وأقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به ، قال : ويسمي حاجته »(٣) ، رواه البخاري . وفي حديث عمار بن ياسر الذي رواه النسائي وغيره ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يدعو بهذا الدعاء : « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني اذا كانت الوفاة خيراً لي ، اللهم اني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، واسألك كلمة الحق في الغضب والرضى ،واسألك القصد في الغنى والفقر واسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، واسألك الرضى بعد القضاء ، واسألك برد العيش بعد الموت ، واسألك لذة النظر الى وجهك الكريم ،والشوق الى لقائك

---

(١) في المطبوعة : فانك تعلم ولا أعلم : وتقدر ولا أقدر ، وما أثبتناه هو الموافق لرواية البخاري ،

(٢) في الاصل : ويسر : بدل : ويسره لي .

(٣) صحيح ، وحسبك ان البخاري اخرجه في « صحيحه » ، وقول احمد في احد رواته : « روى حديثاً منكراً » يعني هذا ، لايضره بعد قول احمد فيه «لا بأس به» وانما يضر ذلك فيما اذا خالف من هو اوثق منه ، وليس شيء من ذلك هنا .

في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الايمان ، واجعلنـا هداة مهتدين » (١) فقد سمى الله ورسوله صفات الله علماً وقدرة وقوة . وقال تعالى : (ثم جعل من بعد ضعف قوة) الروم ٥٤ . (وانه لذو علم لما علمناه) يوسف : ٦٨. ومعلوم انه ليس العلم كالعلم ، ولا القوة كالقوة ، ونظائر هذا كثيرة . وهذا لازم لجميع العقلاء . فان من نفى صفة من صفاته التي وصف الله بها نفسه ، كالرضى والغضب ، والحب والبغض ، ونحو ذلك،ورغم ان ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم ! قيل له : فأنت تثبت له الارادة والكلام والسمع والبصر ، مع ان ماتثبته له ليس مثل صفات المخلوقين ، فقل فيما نفيته واثبته الله ورسوله مثل قولك فيما اثبته ، اذ لافرق بينهما .

قوله : (ولاشيء يعجزه).

ش : لكمال قدرته . قال تعالى : (ان الله على كل شيء قدير) البقرة : ٢٠ (وكان الله على كل شيء مقتدرا) الكهف : ٤٥ .(وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الارض انه كان عليما قديرا) فاطر : ٤٤(وسع كرسيه السموات والارض ولايؤده حفظهما وهو العلي العظيم) البقرة : ٢٥٥ . « لايؤده » اي : لايكرثه(٢) ولايثقله ولايعجزه . فهذا النفي لثبوت كمال ضده ، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة انما هو لثبوت كمال ضده ، كقوله تعالى (ولايظلم ربك أحدا) الكهف : ٤٩ ، لكمال عدله . (لايعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض) سبأ : ٣ ، لكمال علمه . وقوله تعالى : (وما مسنا من لغوب) ق : ٣٨ ، لكمال قدرته . (لاتأخذه سنة ولانوم) البقرة : ٢٥٥ لكمال حياته وقيوميته . (لاتدركه الابصار) الانعام : ١٠٣ ، لكمال جلاله وعظمتـه

---

(١) حديث صحيح ، واخرجه الحاكم ايضاً وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) في « القاموس » : كرثه الغم يكرثه ويكرثه بكسر الراء وضمها : اشتـد عليه ، كأكرثه .

وكبريائه ، والا فالنفي الصرف (بكسر الصاد) لامدح فيه ؛

ولهذا يأتي الاثبات للصفات في كتاب الله مفصلا ، والنفي مجملا .

قوله : (ولا إلاه غيره) .

ش : هذه كلمة التوحيد التي دعت اليها الرسل كلهم ، كما تقدم ذكره .
واثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والاثبات المقتضي للحصر ، فان الاثبات المجرد قد يتطرق اليه الاحتمال . ولهذا - والله اعلم - لما قال تعالى : (والهكم اله واحد) البقرة : ١٦٣ ، قال بعده : (لا اله الا هو الرحمن الرحيم) البقرة : ١٦٣ . فانه قد يخطر ببال احد خاطر شيطاني : هب ان الهنا واحد، فلغيرنا اله غيره ،فقال تعالى : (لا اله الا هو / الرحمن الرحيم /) .

قوله : (قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء) .

ش : قال الله تعالى : (هو الاول والآخر) الحديد : ٣ . وقال صلى الله عليه وسلم : « اللهم انت الاول فليس قبلك شيء ، وانت الآخر فليس بعدك شيء »(١) . فقول الشيخ قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء هو معنى اسمه الاول والآخر . والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطر ، فان الموجودات لابد ان تنتهي الى واجب الوجود لذاته ، قطعاً للتسلسل . فإنا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة ، فان الممتنع لايوجد ،ولا واجبة الوجود بنفسها ، فان واجب الوجود بنفسه لايقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت،فعدمها ينفي وجودها ووجودها ينفي امتناعها ، وما كان قابلا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه ، كما قال تعالى : (ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون) الطور : ٣٥. يقول سبحانه احدثوا من غير محدث ام هم احدثوا انفسهم ؟ ومعلوم ان الشيء المحدث لايوجد نفسه ، فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لايكون موجوداً بنفسه ،بل

---

(١) اخرجه مسلم (٨ / ٧٨ - ٧٩) في حديث اوله : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا اذا اخذنا مضجعنا ان نقول . . . . . » فذكره .

ان حصل ما يوجده وإلا كان معدوماً ، وكل ماامكن وجوده بدلاعن عدمه وعدمه بدلا عن وجوده ، فليس له من نفسه وجود ولاعدم لازم له .

قوله : (لايفنى ولا يبيد) .

ش : اقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى ، قال عز من قائل : (كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) الرحمن : ٢٦ - ٢٧ . والفناء والبيد متقاربان في المعنى ، والجمع بينهما في الذكر للتأكيد ، وهو ايضاً مقرر ومؤكد لقوله : دائم بلا انتهاء .

قوله : (ولايكون الا مايريد) .

ش : هذا رد لقول القدرية والمعتزلة ، فانهم زعموا ان الله اراد الإيمان من الناس كلهم والكافر أراد الكفر . وقولهم فاسد مردود ، لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح ، وهي مسألة القدر المشهورة ، وسيأتي لها زيادة بيان ان شاء الله تعالى .

وسموا قدرية لانكارهم القدر ، وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية ايضاً . والتسمية على الطائفة الاولى اغلب .

اما اهل السنة / فيقولون / : ان الله وان كان يريد المعاصي قدراً - فهو لايحبها ولايرضاها ولايأمر بها ، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهى عنها . وهذا قول السلف قاطبة ، فيقولون : ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . ولهذا اتفق الفقهاء على ان الحالف لو قال : والله لافعلن كذا ان شاء الله - لم يحنث - اذا لم يفعله وان كان واجباً او مستحباً . ولو قال : ان أحب الله - حنث اذا كان واجباً او مستحباً .

والمحققون من اهل السنة يقولون : الارادة في كتاب الله نوعان : ارادة قدرية كونية خلقية ، وارادة دينية امرية شرعية ، فالارادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضى ، والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات .

وهذا كقوله تعالى : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) الانعام : ١٢٥ . وقوله تعالى عن نوح عليه السلام : (ولاينفعكم نصحي ان اردت ان أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم) هود : ٣٤ . وقوله تعالى : (ولكن الله يفعل مايريد) البقرة : ٢٥٣ .

واما الارادة الدينية الشرعية الامريه ، فكقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر) البقرة ١٨٥ . وقوله تعالى : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) النساء : ٢٦ . (والله يريدأن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما. يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا) النساء : ٢٧ ، ٢٨ . وقوله تعالى : (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) المائدة : ٦ . وقوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا) الاحزاب : ٣٣ فهذه الارادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح : هذا يفعل مالايريده الله ، اي : لايحبه ولايرضاه ولايأمر به .

واما الارادة الكونية فهي الارادة المذكورة في قول المسلمين : ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن .

قوله : (لاتبلغه الاوهام ، ولاتدركه الافهام) .

ش : قال الله تعالى : (ولايحيطون به علما) طه : ١١٠ قال في « الصحاح » توهمت الشيء : ظننته ، وفهمت الشيء : علمته . فمراد الشيخ رحمه الله : أنه لاينتهي اليه وهم ، ولايحيط به علم . قيل : الوهم مايرجى كونه ، أي : يظن انه على صفة كذا ، والفهم : هو مايحصله العقل ويحيط به . والله تعالى لايعلم كيف هو الا هو سبحانه وتعالى ، وانما نعرفه سبحانه بصفاته ، وهو انه احد ، صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً احد ، (الله لا اله الا هو الحي القيوم لاتأخذه سنة

ولا نوم له مافي السموات وما في الارض) البقرة : ٢٥٥ . (هو الله الذي لااله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى يسبح له مافي السموات والارض وهو العزيز الحكيم) الحشر : ٢٣ - ٢٤ .

قوله : (ولا يشبهه الانام) .

ش : هذا رد لقول المشبهة ، الذين يشبهون الخالق بالمخلوق ، سبحانه وتعالى ، قال عز وجل : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الشورى : ١١ . وليس المراد نفي الصفات كما يقول اهل البدع ، فمن كلام ابي حنيفة رحمه الله في « الفقه الاكبر » : لايشبه شيئاً من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه . ثم قال بعد ذلك : وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا . انتهى . وقال نعيم بن حماد(١) : من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ماوصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه .وقال اسحاق بن راهويه(٢) : من وصف الله فشبه صفاته بصفات احد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم .

ونفي مشابهة شيء من مخلوقاته له ، مستلزم لنفي مشابهته لشيء من مخلوقاته . فلذلك اكتفى الشيخ رحمه الله بقوله ولا يشبهه الانام . والانام :

(١) هو نعيم بن حماد الخزاعي المروزي ابو عبدالله اول من جمع المسند في الحديث كان من اعلم الناس بالفرائض ، اقام مدة في العراق والحجاز يطلب الحديث ثم سكن مصر . قال الحافظ في « التقريب » : صدوق يخطىء كثيراً . مات سنة ثمان وعشرين ومائتين .

(٢) هو اسحاق بن ابراهيم التميمي المروزي ابو يعقوب عالم خراسان في عصره قال فيه الخطيب البغدادي : اجتمع له الحديث والفقه والحفظ والصدق والورع والزهد . روى عنه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم .

الناس ، وقيل : كل ذي روح ، وقيل : الثقلان . وظاهر قوله تعالى : (والارض وضعها للانام) الرحمن : ١٠ - يشهد للأول أكثر من الباقي . والله أعلم .

قوله : (حي لا يموت قيوم لا ينام) .

ش : قال تعالى : (الله لااله الا هو الحي القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم) البقرة : ٢٥٥ ، فنفي السنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته . وقال تعالى : (آلم . الله لا اله الا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق) آل عمران : ١-٣ . وقال تعالى : (وعنت الوجوه للحي القيوم) طه : ١١١ . وقال تعالى : (وتوكل على الحي الذي لايموت وسبح بحمده) الفرقان : ٥٨ وقال تعالى : (هو الحي لااله الا هو) غافر : ٦٥ وقال صلى الله عليه وسلم : « ان الله لاينام ولاينبغي له أن ينام »(١) ، الحديث .

لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه ، أشار الى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه ، بما يتصف به تعالى دون خلقه : أنه حي لايموت ، لان صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى ، دون خلقه ، فانهم يموتون . ومنه : أنه قيوم لا ينام ، اذ هو مختص بعدم النوم والسنة ، دون خلقه ، فانهم ينامون ، وفي ذلك اشارة الى /أن/ نفي التشبيه ليس المراد منه نفي الصفات ، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، لكمال ذاته . فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة ، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعا ولهوا ولعبا وان الدار الاخرة لهي الحيوان ، فالحياة الدنيا كالمنام . والحياة الآخرة كاليقظة ، ولا يقال : فهذه الحياة الآخرة كاملة . وهي للمخلوق : لأنا نقول : الحي الذي الحياة من صفات ذاته اللازمة لها ، هو الذي وهب المخلوق تلك الحياة الدائمة ، فهي دائمة بادامة الله لها ، لا أن الدوام وصف لازم لها لذاتها ، بخلاف

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه وأبو سعيد الدرامي في « الرد على الجهمية » (ص ٣٠ طبع أوربا ، وقد قام بطبعه حديثا المكتب الاسلامى) .

حياة الرب تعالى . وكذلك سائر صفاته ، فصفات الخالق كما يليق به ، وصفات المخلوق كما يليق به .

واعلم أن هذين الاسمين ، أعني : الحي القيوم مذكوران في القرآن معا في ثلاث سور كما تقدم، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى ، حتى قيل : انهما الاسم الأعظم ، فانهما يتضمنان اثبات صفات الكمال أكمل تضمن وأصدقه ، ويدل القيوم على معنى الازلية والابدية مالا يدل عليه لفظ القديم. ويدل أيضا على كونه موجودا بنفسه، وهو معنى كونه واجب الوجود . والقيوم أبلغ من « القيام » لان الواو أقوى من الالف . ويفيد قيامه بنفسه ، باتفاق المفسرين وأهل اللغة ، وهو معلوم بالضرورة . وهل تفيد اقامته لغيره وقيامه عليه ؟ فيه قولان ، أصحهما : أنه يفيد ذلك . وهو يفيد دوام قيامه /وكل(١) قيامه/ ، لما فيه من المبالغة ، فهو سبحانه لا يزول /و/ لا يأفل ، فان الآفل قد زال قطعا ، أي : لا يغيب ولا ينقص ولا يفنى ولا يعدم ، بل هو الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال ، موصوفا بصفات الكمال . واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال ، ويدل على دوامها وبقائها ، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلا وأبدا . ولهذا كان قوله : (الله لا اله الا هو الحي القيوم) البقرة : ٢٥٥ ، أعظم آية في القرآن ، كما ثبت ذلك في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم (٢) . فعلى هذين الاسمين مدار الاسماء الحسنى كلها ، واليهما ترجع معانيها . فان الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، فلا يتخلف عنها صفة منها الا لضعف الحياة ، فاذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها ، استلزم اثباتها اثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة . وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته ، فانه القائم (٣) بنفسه . فلا يحتاج الى غيره بوجه من الوجوه . المقيم لغيره ، فلا قيام

---

(١) كذا في النسخ المطبوعه ولعل الاجود : وكمال قيامه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) في المطبوعة القويم ، وهو خطأ .

لغيره الا باقامته . فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام .

قوله : (خالق بلا حاجة ، رازق بلا مؤنة) .

ش : قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون .ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) الذاريات : ٥٦-٥٨ . (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني /الحميد/) فاطر :١٥. (/والله الغني/وأنتم الفقراء) محمد : ٣٨ . (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض وهو يطعِم ولا يطعَم) الانعام : ١٤ . وقال صلى الله عليه وسلم ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، /يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً/ ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل انسان مسألته - ما نقص ذلك مما عندي الا كما ينقص(١) المخيط اذا أدخل البحر » الحديث . رواه مسلم(٢) . وقوله بلا مؤنة : بلا ثقل ولا كلفة .

قوله : (مميت بلا مخافة ، باعث بلا مشقة) .

ش : الموت صفة وجودية ، خلافا للفلاسفة ومن وافقهم . قال تعالى : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) الملك : ٢. والعدم لا يوصف بكونه مخلوقا . وفي الحديث : أنه « يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح ، فيذبح بين الجنة والنار »(٣) . وهو وان كان عرضا فالله تعالى يقلبه عينا،

---

(١) نقص يأتي لازما مثل نقص المال ، ومتعديا كما هو هنا ، والمفعول به محذوف، وتقديره : ينقص المخيط ماء البحر .

(٢) مسلم وأحمد .

(٣) متفق عليه .

كما ورد في العمل الصالح : « أنه يأتي صاحبه في صـــورة الشاب الحسن ، والعمل القبيـح على أقبـح صورة »(١) . وورد في القرآن : « أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون »(٢) ، الحديث . أي قراءة القارىء . وورد في الاعمـال : « أنهـا توضع في الميزان »(٣) ، والاعيان هي التي تقبل الوزن دون الاعراض . وورد في سورة البقرة وآل عمران : أنهما يوم القيامة « يظـلان صاحبهما كأنهما غمامتان أو غيايتان(٤) أو فرقان(٥) من طير صواف(٦) » . وفي الصحيـح : « أن أعمال العباد تصعد الى السماء »(٧) وسيأتي الكلام على البعث والنشور . ان شاء الله تعالى .

---

(١) يشير الى حديث البراء في عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين ، وهو حديث طويل سيأتي في آخر الكتاب بتمامه في بحث عذاب القبر .

(٢) رواه الدرامى (٢/٤٥٠-٤٥١) وابن ماجه (٣٧٨١) وأحمد (٣٤٨و٣٥٢) من حديث بريدة بن الحصيب مرفوعا بلفظ : « يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب فيقول لصاحبه : أنا الذي أسهرت ليلك وأظمأت هواجرك » . وقال البوصيري في « الزوائد » : « اسناده صحيـح » . قلت : لا ، فان فيـه بشـير بن المهاجر ، وهو صدوق لين الحديث كما قال الحافظ في « التقريب » ، فمثله يحتمل حديثه التحسين ، أما التصحيـح فهو بعيد .

(٣) فيه أحاديث كثيرة ، سيذكرها المؤلف في آخر الكتاب .

(٤) الغيايتان : أدون من الغمامتان في الكثافة ، وأقرب الى رأس صاحبهما .

(٥) الفرقان بكسر الفاء : طائفتان .

(٦) أي : باسطات أجنحتها متصلا بعضها ببعض رواه مسلم والحاكم .

(٧) روى البخاري (١/٢٠٥ - طبع أوربا) عن رفاعة بن رافع الزرقي قال : كنا نصلي يوما وراء النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركعة قال : سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا لك الحمد ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فلما =

قوله : (ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه ، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته ، وكما كان بصفاته أزليا ، كذلك لايزال عليها أبدياً . وليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا باحداثه البرية استفاد اسم الباري) .

ش : أي : أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال : صفات الذات وصفات الفعل . ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها ، لان صفاته سبحانه صفات كمال ، وفقدها صفة نقص ، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده . ولا يرد على هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها ، كالخلق والتصوير ، والاماتة والاحياء ، والقبض والبسط والطي ، والاستواء والاتيان والمجيء والنزول ، والغضب والرضى ، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، وان كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله ، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ، ولا متوهمين بأهوائنا ، ولكن أصل معناه معلوم لنا ، كما قال الامام مالك رضي الله عنه ، لما سئل عن قوله تعالى (ثم استوى على العرش) الاعراف : ٥٤ وغيرها : كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول(١) . ولن كانت هذه الاحوال تحدث في وقت

=انصرف قال : من المتكلم ؟ قال : أنا ، قال : رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول . ورواه الترمذي (٢/٢٥٤-٢٥٥) والنسائي (١/١٤٧) من طريق أخرى عن رفاعة به نحوه بلفظ : « لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكا أيهم يصعد بها » وقال الترمذي حديث حسن . قلت : واسناده جيد . وله شاهد من حديث عبدالله ابن أبي أوفى نحوه وفيه : « والله رأيت كلامك يصعد في السماء حتى فتح باب فدخل فيه » . أخرجه أحمد (٤/٣٥٥و٣٥٦) وابنه في زوائده ، ورجاله ثقات غير عبدالله بن سعيد ، ذكره ابن حبان في « الثقات » (١/١٠٤-١٠٥) .

(١) اقتصر المؤلف من جواب الامام مالك على هذا ، وتتمته : والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

دون وقت ، كما في حديث الشفاعة : « ان ربي قـد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله »(١) . لان هـذا الحدوث بهذا الاعتبار غـير ممتنع ، ولا يطلق /عليه/ أنه حدث بعـد أن لم يكن ، ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلما بالامس لايقال : انه حدث له الكلام ، ولو كان غـير متكلم ، لانه لآفة كالصغر(٢) والخرس ، ثم تكلم يقال -: حدث له الكلام ، فالساكت لغـير آفة يسمى متكلما بالقوة ، بمعنى أنه يتكلم اذا شاء ، وفي حال تكلمه يسمى متكلما بالفعل ، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل ، ولا يخرج عن كونه كاتباً في حال عدم مباشرته الكتابة .

قوله : (له معنى الربوبية ولامربوب ، ومعنى الخالق ولا مخلوق .)

ش : يعني : ان الله تعالى موصوف بأنه « الرب » قبل ان يوجد مربوب ، وموصوف بأنه « خالق » قبل ان يوجد مخلوق . قال بعض المشايخ الشارحين : وانما قال : « له معنى الربوبية ومعنى الخالق » دون الخالقية، لأن الخالق هو المخرج للشيء من العدم الى الوجود لاغير ، والرب يقتضي معـاني كثيرة ، وهي : الملك والحفظ والتدبير والتربية وهي تبليغ الشيء كماله بالتدريج، فلا جرم أتى بلفظ يشمل هذه المعاني ، وهي الربوبية. انتهى . وفيه نظر، لأن الخلق يكون بمعنى التقدير ايضاً.

قوله : (وكما أنه محيي الموتى بعد ما احيا استحق هذا الاسم قبل احيائهم ، كذلك استحق اسم الخالق قبل انشائهم) .

ش : يعني : انه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيي الموتـى قبل احيائهم ، فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خلقهم .

---

(١) هو في « الصحيحين » وغيرهما وسيأتي بتمامه .

(٢) في المطبوعة كالصغير .

قوله : (ذلك بأنه على كل شيء قدير ، وكل شيء اليه فقير ، وكل امر عليه يسير ، لايحتاج الى شيء ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير) .

ش : ذلك اشارة الى ثبوت صفاته في الازل قبل خلقه . والكلام على كل وشمولها وشمول كل / في كل / مقام بحسب مايحتف به من القرائن - يأتي في مسألة الكلام ان شاء الله تعالى .

فالله على كل شيء قدير ، وكل ممكن فهو مندرج فى هذا . وأما المحال لذاته، مثل كون الشيء الواحد موجودا معدوماً في حال واحدة ، فهذا لاحقيقة له ، ولايتصور وجوده ، ولايسمى شيئاً ، باتفاق العقلاء . ومن هذا الباب : خلق مثل نفسه ، واعدام نفسه وأمثال ذلك من المحال .

وهذا الاصل هو الايمان بربوبيته العامة التامة ، فانه لايؤمن بأنه رب كل شيء الا من آمن أنه قادر على تلك الاشياء ، ولايؤمن بتمام ربوبيته وكمالها الا من آمن بأنه على كل شيء قدير . وانما تنازعوا فيالمعدوم الممكن : هل هو شيء أم لا؟ والتحقيق : ان المعدوم ليس بشيء في الخارج ، ولكن الله يعلم مايكون قبل أن يكون ، ويكتبه ، وقد يذكره ويخبر به ، كقوله تعالى : (ان زلزلة الساعة شيء عظيم) الحج : ١ ، فيكون شيئا في العلم والذكر والكتاب ، لا في الخارج ، كما قال تعالى : (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) يس : ٨٢ ، قال تعالى : (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) مريم : ٩ أي : لم تكن شيئاً في الخارج وان كان شيئاً في علمه تعالى . وقال تعالى : (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا) الدهر : ١ .

وقوله : « ليس كمثله شيء » ، رد على المشبهة . وقوله تعالى : (وهو السميع البصير) الشورى : ١١ ، رد على المعطلة ، فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال ، وليس له فيها شبيه . فالمخلوق وان كان يوصف بأنه سميع بصير ـ فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ، ولايلزم من اثبات الصفة تشبيه ، اذ

صفات المخلوق كما يليق به ، وصفات الخالق كما يليق به .

ولا تنف عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به أعرف الخلق بربه وما يجب له وما يمتنع عليه ، وأنصحهم لامته ، وأفصحهم وأقدرهم على البيان . فانك ان نفيت شيئاً من ذلك كنت كافرا بما أنزل / على / محمد صلى الله عليه وسلم ، واذا وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبهه بخلقه ، فليس كمثله شيء . فاذا شبهته بخلقه كنت كافرا به . قال نعيم ابن حماد الخزاعي شيخ البخاري : من شبه الله / بخلقه / فقد كفر ، ومن جحد ماوصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس ماوصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيها . وسيأتي في كلام الشيخ الطحاوي رحمه الله « ومن لم يتوَق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه » .

وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الاعلى ، فقال تعالى : (للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى) النحل : ٦٠ ، وقال تعالى : (وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) الروم : ٢٧ . فجعل سبحانه مثل السوء - المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال - لاعدائه المشركين وأوثانهم ، وأخبر أن المثل الاعلى - المتضمن لاثبات الكمال كله - لله وحده . فمن سلب صفة الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ، ونفى عنه ماوصف به نفسه من المثل الاعلى ، / و / هو الكمال المطلق ، المتضمن للامور الوجودية ، والمعاني الثبوتية ، التي كلما كانت اكثر في الموصوف واكمل - كان بها اكمل واعلى من غيره .

ولما كانت صفات الرب / سبحانه / وتعالى اكثر واكمل ، كان له المثل الاعلى ، وكان احق به من كل ماسواه . بل يستحيل ان يشترك في المثل الاعلى المطلق اثنان ، لانهما ان تكافآ من كل وجه ، لم يكن احدهما اعلى من الآخر ، وان لم يتكافآ ، فالموصوف به احدهما وحده ، فيستحيل ان يكون لمن له المثل الاعلى مثل او نظير .

واختلفت عبارات المفسرين في المثل الاعلى . ووفق بين اقوالهم من وفقه الله وهداه ، فقال : المثل الاعلى يتضمن : الصفة العليا ، وعلم العالمين بها ، ووجودها العلمي ، والخبر عنها وذكرها ، وعبادة الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه .

فهاهنا امور أربعة : الاول(١) : ثبوت الصفات العليا لله سبحانه وتعالى ، سواء علمها العباد او لا ، وهذا معنى قول من فسرها بالصفة .

الثاني : وجودها في العلم والشعور ، وهـــذا معنى قول من قال من السلف والخلف : انه مافي قلوب عابديه وذاكريه ، من معرفته وذكره ، ومحبته وجلاله ، وتعظيمه ، وخوفه ورجائه ، والتوكل عليه والانابة اليه . وهذا الذي في قلوبهم من المثل الاعلى لايشركه فيه غيره اصلا ، بل يختص به في قلوبهم ، كما اختص به في ذاته . وهذا معنى قول من قال من المفسرين : ان معناه : اهل السموات يعظمونه ويحبونه ويعبدونه ، واهل الارض كذلك ، وان اشرك / به من اشرك / ، وعصاه من عصاه ، وجحد صفاته من جحـــدها ، فأهل الارض معظمون له ، مجلون ، خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجبروته .قال تعالى : (وله من في السموات والارض كل له قانتون) الروم : ٢٦ .

الثالث : ذكر صفاته والخبر عنها وتنزيهها من العيوب والنقائص والتمثيل.

الرابع : محبة الموصوف بها وتوحيـــده ، والاخلاص له ، والتوكل عليه ، والانابة اليه . وكلما كان الايمان بالصفات أكمل كان هـــذا الحب والاخلاص / اقوى / .

قوله : (خلق الخلق بعلمه) :

ش : خلق : أي : اوجد وانشأ وابدع . ويأتي خلق ايضاً بمعنى : قدر . والخلق : مصدر ، وهو هنا بمعنى المخلوق . وقوله : « بعلمه » في محل نصب على الحال ، اي : خلقهم عالماً بهم، قال تعالى : (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) الملك : ١٤ . وقال تعالى : (وعنده مفاتيح الغيب لايعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وماتسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولارطب ولا يابس الا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار)الانعام :٥٩

---

(١) هذه الزيادة غير موجودة فى الاصل ، ولا المطبوعة ،ونظم الكلام يقتضيها.

قوله : (وقدر لهم أقدارا) .

ش : قال تعالى : (وخلق كل شيء فقدره تقديرا)

وقال تعالى : (انا كل شيء خلقناه بقدر) القمر : ٤٩ . وقال تعالى :
(وكان امر الله قدراً مقدورا) الاحزاب : ٣٨ . وقال تعالى : (الذي خلق فسوى
والذي قدر فهدى) الاعلى : ٢ - ٣ . وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو رضي الله
عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « قدر الله مقادير الخلق قبل ان يخلق
السموات والارض بخمسين الف سنة ، وكان عرشه على الماء »(١) .

قوله : (وضرب لهم آجالا) .

ش : يعني : ان الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق ، بحيث اذا جاء أجلهم
لايستأخرون ساعة ولايستقدمون . قال تعالى : (اذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة
ولايستقدمون) وقال تعالى : (وما كان لنفس ان تموت الا بإذن الله كتاباً مؤجلا)
آل عمران : ١٤٥ . وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال : « قالت ام حبيبة
زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها : اللهم امتعني بزوجي رسول الله ، وبأبي
سفيان ، وبأخي معاوية ، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد سألت الله لآجال
مضروبة ، وايام معدودة ، وارزاق مقسومة ، لن يعجل شيئاً قبل اجله ، ولن يؤخر
شيئاً عن اجله ، ولو كنت سألت الله ان يعيذك من عذاب في النار وعذاب في القبر
كان خيراً وافضل »(٢) فالمقتول ميت بأجله ، فعلم الله تعالى وقدر وقضى ان هذا
يموت بسبب المرض ، وهذا بسبب القتل ، وهذا بسبب الهدم ، وهذا بسبب الحرق
وهذا بالغرق ، الى غير ذلك من الأسباب . والله سبحانه خلق الموت والحياة ،
وخلق سبب الموت والحياة . ووجوب القصاص والضمان على القاتل ، لإرتكابه
المنهي عنه ومباشرته السبب المحظور . وعلى هذا يخرج قوله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح ، وهو عند مسلم في « القدر » واحمد في المسند (١ / ٣٩٠ ، ٤١٣ ،
٤٣٣ ، ٤٤٥ ، ٤٦٦) .

« صلة الرحم تزيد في العمر »(١) أي : سبب طول العمر . وقد قدر الله ان هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب الى هذه الغاية ، ولولا ذلك السبب لم يصل الى هذه الغاية ، ولكن قدر هذا السبب وقضاه ، وكذلك قدر ان هذا يقطع رحمه فيعيش الى كذا ، كما قلنا في القتل وعدمه .

قوله : (ولم يخف عليه شيء قبل ان يخلقهم ، وعلم ماهم عاملون قبل ان يخلقهم) .

ش : فإنه سبحانه يعلم ما كان ومايكون / و / ما لم يكن ان لو كان كيف يكون ، كما قال تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) الانعام : ٢٨ . وان كان يعلم انهم لايردون ، ولكن اخبر انهم لو ردوا لعادوا ، كما قال تعالى : (ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون) الانفال : ٢٣ .

قوله : (وامرهم بطاعته ، ونهاهم عن معصيته) .

ش : ذكر الشيخ الامر والنهي ، بعد ذكره الخلق والقدر ، إشارة الى ان الله تعالى خلق الخلق لعبادته ، كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) الذاريات : ٥٦ وقال تعالى : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا) الملك : ٢ .

قوله : (وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ ، لامشيئة للعباد ، الا ما شاء لهم ، فما شاء لهم كان ، ومالم يشأ لم يكن) .

ش : قال تعالى : (وماتشاؤون الا ان يشاء الله ان الله كان عليماً حكيما) الدهر : ٣ وقال : (وما تشاؤون الا ان يشاء الله رب العالمين) التكوير : ٢٩ .

---

(١) صحيح ، وهو قطعة من حديث رواه ابو يعلى عن انس بسند ضعيف ، لكن معناه صحيح ، يشهد له احاديث كثيرة منها حديث انس ايضاً مرفوعاً : « من احب ان يبسط له في رزقه وينسأ له في اثره ، فليصل رحمه » . متفق عليه .

وقال تعالى : (ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله) الانعام : ١١١ . وقال تعالى : (ولو شاء ربك مافعلوه) الانعام : ١١٢ . وقال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً) يونس : ٩٩ وقال تعالى : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) الانعام : ١٢٥ . وقال تعالى حكاية / عن / نوح عليه السلام اذ قال لقومه : (ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) هود : ٣٤ . وقال تعالى : (من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) الانعام : ٣٩ الى غير ذلك من الادلة على أنه ماشاء الله كان ومالم يشأ يكن . وكيف / يكون / في ملكه مالا يشاء ! ومن أضل سبيلا وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الايمان من الكافر والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله ! ! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

فان قيل : يشكل على هذا قوله تعالى : (سيقول الذين أشركوا لو شاءالله ماأشركناولاآباؤنا) ،الانعام : ١٤٨ ، الآية . وقولهتعالى : (وقال الذين أشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونهمن شيء) النحل : ٣٥ ، الآية . وقولهتعالى : (وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم ان هم إلا يخرصون) الزخرف : ٢٠ فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائناً منهم بمشيئة الله ، وكذلك ذم ابليس حيث أضاف الاغواء الى الله تعالى ، اذ قال : (رب بماأغويتني لأزينن لهم فى الارض ولاغوينهم أجمعين) الحجر : ٣٩ .

قيل : قد أجيب على هذا بأجوبة ، من أحسنها : أنه أنكر عليهم ذلك لانهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته ، وقالوا : لو / كره / ذلك وسخطه لما شاءه ، فجعلوا مشيئته دليل رضاه ، فرد الله عليهم ذلك . أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به ، أو أنه أنكر عليهم معارضته شرعهوأمره

الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره ، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للامر ، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد ، وانما ذكروها معارضين بها لأمره ، دافعين بها لشرعه ، كفعل الزنادقة والجهال ، إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر . وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر ، فقال : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره . يشهد لذلك قوله تعالى في الآية : (كذلك كذب الذين من قبلهم) الانعام: ١٤٨ . فعلم أن مرادهم التكذيب ، فهو من قبل الفعل ، من أين له أن الله لم يقدره؟ أطلع الغيب ؟

فان قيل : فما يقولون في احتجاج آدم على موسى عليهما السلام بالقدر ، اذ قال له : أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن أخلق بأربعين عاما ؟ وشهد النبي صلى الله عليه وسلم أن آدم حج موسى ، أي : غلب عليه بالحجة ؟

قيل : نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة ، لصحته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نتلقاه بالرد والتكذيب ولا بالتأويلات الباردة . بل الصحيح أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب ، وهو كان أعلم بربه وذنبه ، بل آحاد بنيه من المؤمنين لايحتج بالقدر ، فإنه باطل . وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه / من / أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه ، وانما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة ، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة ، فان القدر يحتج به عند المصائب ، لا عند المعائب . وهذا المعنى احسن ماقيل في الحديث. فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له ، فإنه من تمام الرضى بالله ربا ، واما الذنوب فليس للعبد ان يذنب ، واذا اذنب فعليه ان يستغفر ويتوب . فيتوب من المعائب ، ويصبر على المصائب . قال تعالى : (فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك) المؤمن : ٥٥ . وقال تعالى : (وان تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً) آل عمران : ١٢٠ .

واما قول ابليس : (رب بما أغويتني) ، انما ذم على احتجاجه بالقدر ، لا

على اعترافه بالمقدر واثباته له . ألم تسمع قول نوح عليـــه السلام : (ولاينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لـكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون) هود : ٣٤ . ولقد احسن القائل :

فما شئت كان / و / ان لم اشأ — وماشئت إن لم تشأ لم يكن

وعن وهب بن منبه ، انه قال : نظرت في القدر فتحيرت ، ثم نظرت فيه فتحيرت ، ووجدت اعلم الناس بالقدر اكفهم عنه ، واجهل الناس بالقدر انطقهم به .

قوله : (يهدي من يشاء ، ويعصم ويعافي ، فضلا . ويضل من يشاء ، ويخذل ويبتلي ، عدلا) .

ش : هذا رد على المعتزلة في قولهم بوجوب فعل الاصلح للعبد على الله ، وهي مسألة الهدى والضلال . قالت المعتزلة : الهدى من الله : بيان طريق الصواب ، والاضلال : تسمية العبد ضالا ، وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه . وهذا مبني على اصلهم الفاسد : ان افعال العباد مخلوقة لهم . والدليل على ماقلناه قوله تعالى : (انك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) القصص : ٥٦ . ولو كان الهدى بيان الطريق ـ لما صح هذا النفي عن نبيه ، لانه صلى الله عليه وسلم بين الطريق لمن احب وأبغض . وقوله تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) السجدة : ١٣ . (يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) المدثر : ٣١ . ولو كان الهدى من الله البيان ، وهو عام في كل نفس ـ لما صح التقييد بالمشيئة . وكذلك قوله تعالى : (ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين) الصافات : ٥٧ . وقوله : (من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) الانعام : ٣٩ .

قوله : (وكلهم يتقلبون في مشيئته ، بين فضله وعدله) .

ش : فانهم كما قال تعالى : (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنـكم مؤمن) التغابن : ٢ . فمن هـــداه الى الايمان فبفضله ، وله الحمد ، ومن اضله فبعدله ، وله الحمد . وسيأتي لهذا المعنى زيادة ايضاح ، ان شاء الله تعالى ، فان الشيخ رحمه الله لم

يجمع الكلام في القدر في مكان واحد ، بل فرقه ، فأتيت به على ترتيبه .

قوله : (وهو متعال عن الاضداد والانداد) .

ش : الضد : المخالف ، والند : المثل . فهو سبحانه لا معارض له بل ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، ولامثل له ، كما قال تعالى : (ولم يكن له كفوا أحد) الاخلاص : ٤ . ويشير الشيخ رحمه الله - بنفي الضد والند - الى الرد على المعتزلة ، في زعمهم ان العبد يخلق فعله .

قوله : (لاراد لقضائه ، ولامعقب لحكمه ، ولا غالب لامره) .

ش : اي : لايرد قضاء الله راد ، ولايعقب ، اي لايؤخر حكمه ، مؤخر ، ولايغلب امره غالب ، بل هو الله الواحد القهار .

قوله : (آمنا بذلك كله ، وايقنا ان كلا من عنده) .

ش : اما الايمان فسيأتي الكلام عليه ان شاء الله تعالى . والايقان : الاستقرار من قر الماء في الحوض اذا استقر . والتنوين في «كلا» بدل الاضافة(١) ، اي : كل كائن محدث من عند الله ، اي : بقضائه وقدره / وارادته / ومشيئـــه وتكوينه . وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه ، ان شاء الله تعالى .

قوله : (وان محمدا عبده المصطفى ، ونبيه المجتبى ، ورسوله المرتضى) .

ش : الاصطفاء والاجتباء والارتضـــاء : متقارب المعنى . واعلم ان كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى . وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته . ومن توهم ان المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه ، وان الخروج عنهـــا اكمل ، فهو / من / اجهل الخلق واضلهم ، قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون) الانبياء : ٢٦ . الى غير ذلك من الآيات . وذكر الله نبيه صلى الله عليه وسلم باسم العبد في اشرف المقامات ، فقال في ذكر الاسراء : (سبحان الذي اسرى بعبـــده) الاسراء : ١ . وقال تعالى :

(وانه لما قام عبدالله يدعوه) الجن : ١٩ . وقال تعالى : (فأوحى الى عبده ماأوحى) النجم : ١٠ . وقال تعالى : (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) البقرة : ٢٣ . وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة . ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة ، اذا طلبوا منه الشفاعة بعد الانبياء عليهم السلام : « اذهبوا الى محمد ، عبد غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر »(١) . فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى .

وقوله : « وإن محمدا » بكسر الهمزة ، عطفاً على قوله : « ان الله واحد لا شريك له » . لان الكل معمول القول ، اعنى : قوله « نقول في توحيد الله » . وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول ، واحسنها : ان من نبأه الله بخبر السماء ، إن امره ان يبلغ غيره ، فهو نبي رسول ، وان لم يأمره ان يبلغ غيره ، فهو نبي وليس برسول . فالرسول اخص من النبي ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا .

وإرسال الرسل من اعظم نعم الله على خلقه ، وخصوصاً محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال / تعالى / : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) آل عمران : ١٦٤ . وقال تعالى : (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) الانبياء : ١٠٧ .

قوله : (وانه خاتم الانبياء) .

ش : قال تعالى : (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) الاحزاب : ٤٠ . وقال صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل الانبياء كمثل قصر احسن بناؤه ، وترك منه موضع لبنة ، فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه ، إلا موضع تلك اللبنة ،

(١) متفق عليه وهو قطعة من حديث سيأتي بطوله في الكتاب .

لايعيبون سواها ، فكنت انا سددت موضع تلك اللبنــة ختم بي البنيان وختم بي الرسل »(١) ، اخرجاه في الصحيحين . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن لي أسماء: أنا محمد ، وانا احمد ، وانا الماحي ، يمحو الله بي الكفـر ، وانا الحاشر ، الذي يحشر الناس على قدمي ، وانا العاقب ، والعاقب الذي ليس بعده نبي »(٢) ، / وفي صحيح مسلم عن ثوبان ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وانه سيكون في امتي ثلاثون كذابون ، كلهم يزعم انه نبي / ، وانا خاتم النبيين ، لانبي بعدي »(٣) الحديث . ولمسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فضلت على الانبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، واحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الارض مسجداً وطهورا ، وارسلت / الى / الخلق كافة ، وختم بي النبيون »(٤) .

قوله : (وامام الاتقياء)

ش : صلى الله عليه وسلم : الامام الذي يؤتم به ، اي : يقتدون به . والنبي صلى الله عليه وسلم انما بعث للاقتداء به ، لقوله تعالى : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) آل عمران : ٣١ وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الاتقياء .

قوله : (وسيد المرسلين) .

ش : قال صلى الله عليه وسلم : « انا سيد ولد آدم يوم القيـامة واول من

(١) صحيح ، غير ان عزوه بهذا اللفظ للصحيحـين ، وهم ، وانما هو عند ابن عساكر في « تاريخ دمشق » من حديث ابي هريرة كما في « الجامع الكبير » للسيوطي (٢ / ٢٠٣ / ١) ، واخرجه الشيخان عنه وعن جابر نحوه .

(٢) اخرجه الشيخان .

(٣) واخرجه ابو داود ايضاً واحمد وغيرهما .

(٤) صحيح ، وهو من حديث ابي هريرة واخرجه الترمذي ايضاً (١ / ٢٩٣) وقال : « حديث حسن صحيح » واحمد (٢ / ٤١٢) وله عنده طرق بألفاظ اخرى

ينشق عنه القبر ، واول شافع واول مشفع » (١) . رواه مسلم . وفي اول حديث الشفاعة : « انا سيد الناس يوم القيامة »(٢) . وروى مسلم والترمذي عن واثلة بن الاسقع رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم »(٣) .

وانما اخبر صلى الله عليه وسلم انه سيد ولد آدم ، لأنا لايمكننا أن نعلم ذلك الا بخبره ، إذ لانبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله ، كما اخبرنا هو بفضائل الانبياء قبله ، صلى الله عليهم وسلم أجمعين . ولهذا أتبعه بقوله « ولافخر » ، كما جاء في رواية .

قوله : (وحبيب رب العالمين) .

ش : ثبت له صلى الله عليه وسلم أعلى مراتب المحبة ، وهي الخلة ، كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا »(٤) . وقال : « ولو كنت متخذا من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الرحمن »(٥) . والحديثان في الصحيح وهما يبطلان قول من قال :

(١) مسلم (٧/٥٩) وكذا ابو داود (٣ /٤٦٧) وابن سعد في « الطبقات » (١ / ٢٠) واحمد (٢ /٥٤٠) من حديث ابي هريرة .

(٢) مسلم (١ / ١٢٧) وكذا البخاري (٢/ ٣٣٤ ، ٣ / ٢٧٢) واحمد (٢ /٤٣٥) من حديث ابي هريرة ايضاً والدارمي (١/٢٧ - ٢٨) واحمد (٣/١٤٤) بسند صحيح عن انس ، وزاد : « ولافخر » والترمذي عن ابي سعيد وسيأتي .

(٣) وقال الترمذي (٢ / ٢٨١) : « حديث حسن صحيح » واللفظ لمسلم ولفظ الترمذي اتم .

(٤) مسلم وأبو عوانة من حديث جندب .

(٥) مسلم من حديث عبدالله بن مسعود ، بلفظ « خليل الله » ، وكذا رواه الترمذي (٢ / ٢٨٩) وصححه .

الخلة لأبراهيم والمحبة لمحمد ، فإبراهيم خليل الله ومحمد حبيبه . وفي الصحيح أيضاً : إني أبرأ الى كل خليل من خلته(١) . والمحبـة قد ثبتت لغيره . قال تعالى : (والله يحب المحسنين) آل عمران : ١٣٤ . (فإن الله يحب المتقين) آل عمران : ٧٦ . (إن الله يحب التوابـين ويحب المتطهرين) البقرة : ٢٢٢ . فبطل قول من خص الخلة بإبراهيم والمحبة بمحمد ، بل الخلة خاصة بهما ، والمحبة عامة . وحديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي الذي فيه : « إن ابراهيم خليل الله ، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر »(٢) — : لم يثبت .

والمحبة مراتب : أولها : العلاقة ، وهي تعلق القلب بالمحبوب . والثانيـة : الارادة ، وهي ميل القلب الى محبوبه وطلبه له . الثالثة : الصبابة ، وهي انصباب القلب اليه بحيث لايملكه صاحبه ، كانصباب الماء فى الحدور . الرابعة : الغرام ، وهي الحب اللازم للقلب ، ومنه الغريم ، لملازمته ، ومنه : (إن عذابها كان غراما) الفرقان : ٦٥ . الخامسة : المودة ، والود ، وهي صفو المحبة وخالصها ولبها ، قال تعالى : (سيجعل لهم الرحمن وداً) مريم : ٩٦ . السادسـة : الشغف ، وهي وصول المحبة الى شغاف القلب . السابعة : العشق : وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه ، ولكن لايوصف به الرب تعالى ولا العبد فى محبة ربه ، وان كان قد أطلقه بعضهم . واختلف في سبب المنع ، فقيل : عدم التوقيف ، وقيل غير ذلك . ولعل امتناع اطلاقه : أن العشق محبة مع شهوة . الثامنة : التيم ، وهو بمعنى التعبد . التاسعة : التعبد . العاشرة : الخلة ، وهي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه . وقيل في ترتيبها غير ذلك . وهذا الترتيب تقريب حسن ، / لا / يعرف حسنه /إلا/ بالتأمل في معانيه .

واعلم أن وصف الله تعالى بالمحبة والخلة هو كمايليق بجلال الله تعالى وعظمته ،

---

(١) هو من حديث ابن مسعود الذي قبله .

(٢) ضعيف ، لضعف زمعة وسلمة أيضاً .

كسائر صفاته تعالى ، وانما يوصف الله تعالى من هذه الأنواع بالأرادة والود والمحبة والخلة ، حسبما ورد النص .

وقد اختلف في تحديد المحبة على أقوال ، نحو ثلاثين قولا . ولاتحد المحبة بحد أوضح منها ، فالحدود لاتزيدها الا خفاء . وهـذه الاشياء الواضحة لاتحتاج الى تحديد ، كالماء والهواء والتراب والجوع ونحو ذلك .

قوله : (وكل دعوى النبوة بعده فغي وهوى) .

ش : لما ثبت أنـه خاتم النبيين على أن من ادعى بعده النبوة فهو كاذب . ولايقال : فلو جاء المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يقال بتكذيبه ؟ لانا نقول : هذا لايتصور أن يوجد ، وهو من باب فرض المحال ، لان الله تعالى لما أخبر أنـه خاتم النبيين ، فمن المحال أن يأتي مدع يدعي النبوة ولايظهر أمارة كذبه في دعواه . والغي : ضد الرشاد . والهوى : عبارة عن شهوة النفس . أي : أن تلك الدعوى بسبب هوى النفس ، لاعن دليل ، فتكون باطلة .

قوله : (وهو المبعوث الى عامة الجن وكافة الورى ، بالحق والهـدى ، وبالنور والضياء .

ش : أما كونه مبعوثاً الى عامة الجن ، فقال تعالى حكاية عن قول الجن : (ياقومنا أجيبوا داعي الله) الاحقاف : ٣١ ، الآية . وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل اليهم أيضاً . قال مقاتل : لم يبعث الله رسولا الى الانس والجن قبله . وهذا قول بعيد . فقد قال تعالى : (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) الانعام : ١٣٠ ، الآية ، والرسل من الانس فقط ، وليس من الجن رسول ، كذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الرسل من بني آدم ، ومن الجن نذر . وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن : (إنا سمعنا كتاباً

أُنزل من بعد موسى) الأحقاف : ٣٠ ، الآية - : تدل على أن موسى مرسل اليهم أيضاً . والله أعلم .

وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم : أنه زعم أن في الجن رسلا ، واحتج بهذه الآية الكريمة . وفي الاستدلال بها على ذلك نظر لانها محتمله وليست بصريحة ، وهي - والله أعلم - كقوله : (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) الرحمن : ٢٢ والمراد : من أحدهما .

وأما كونه مبعوثاً الى كافة الورى ، فقد قال : (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) سبأ : ٢٨ . وقد قال تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً) الاعراف : ١٥٧ . وقال تعالى : (وأوحي الي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) الانعام : ١٩ . أي : وأنذر من بلغه . وقال تعالى : (وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا) النساء : ٧٩ . وقال تعالى : (اكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) يونس : ٢ ، الآية . وقال تعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) الفرقان : ١ . وقد قال تعالى : (وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ) آل عمران : ٢٠ . وقال صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لاحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة » (١)، أخرجاه في الصحيحين. وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يسمع بي رجل من هذه الامة يهودي ولا نصراني

---

(١) صحيح ، وهو من حديث جابر .

ثم لا يؤمن بي الا دخل النار »(١) ، رواه مسلم . وكونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا الى الناس كافة معلوم من دين الاسلام بالضرورة .

وأما قول بعض النصارى إنه رسول الى العرب خاصة - : فظاهر البطلان ، فإنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه في كل مايخبر به . وقد قال إنه رسول الله الى الناس عامة ، والرسول لا يكذب ، فلزم تصديقه حتما ، فقد أرسل رسله وبعث كتبــه في أقطار الارض الى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الاطراف ، يدعو الى الاسلام .

وقوله : بالحق والهدى وبالنور والضياء . هذه أوصاف ماجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدين والشرع المؤيد بالبراهين الباهرة من القرآن وســائر الادلة . والضياء : أكمل من النور ، قال تعالى : (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) يونس : ٥ .

قوله : (وان القرآن كلام الله ، منه بدا بلا كيفية قولا ، وأنزله على رسوله وحيا ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البرية . فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقــد كفر ، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر ، حيث قال تعالى : (سأصليــه سقر) المدثر : ٢٦ فلما أوعـد الله بسقر لمن قال : (ان هــذا الا قول البشر) المدثر : ٢٥ - علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ، ولا يشبه قول البشر) :

ش : هذه قاعدة شريفة ، وأصل كبير من أصول الدين ، ضل فيه طوائف كثيرة من الناس . وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله هو الحق الذي دلت عليه

---

(١) صحيح ، وهو من حديث أبي هريرة ، وهو في مسلم (١/٩٣) ، ولكنه مغاير في بعض الاحرف لسياق الكتاب . وقد رواه ابن منده في « التوحيد » (ق٤٤/١) ولفظه أقرب .

الادلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما ، وشهدت به الفطرة السليمـــة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة .

وقول الشيـخ رحمه الله وإن القرآن كلام الله إن بكسر الهمزة ـ عطف على قوله : ان الله واحد لاشريك له ثم قال : وإن محمدا عبده المصطفى . وكسر همزة إن في المواضع الثلاثة ، لانها معمول القول ، أعني قوله في اول كلامه : نقول في توحيد الله .

وقوله : كلام الله منه بدا بلا كيفية قولا : ـ رد على المعتزلة وغيرهم . فإن المعتزلة تزعم أن القـــرآن لم يبـــد منـــه ، قالوا : وإضافتـــه اليـــه اضافة تشريف ، كبيت الله ، وناقـــة الله ، يحرفون الكلام عن مواضعه ! وقولهم باطل ، فإن المضاف إلى الله تعالى معان وأعيان ، فاضافة الاعيان الى الله للتشريف، وهي مخلوقة له ، كبيت الله ، وناقةالله ، بخلاف إضافةالمعاني ، كعلم الله ،وقدرته، وعزته ، وجلاله ، وكبريائه ، وكلامه ، وحياته ، وعلوه ، وقهره ـ فإن هذا كله من صفاته ، لايمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً .

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال ، وضده من أوصاف النقص . قال تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلا) الاعراف : ١٤٧ . فكان عباد العجل ـ مع كفرهم ـ أعرف بالله من المعتزلة ، فإنهم لم يقولوا لموسى : وربك لايتكلم أيضا . وقال تعالى عن العجل أيضا : (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً) طه : ٨٩ . فعلم أن نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل .

وغاية شبهتهم انهم يقولون : يلزم منه التشبيه والتجسيم ؟ فيقال لهم : اذا قلنا انه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم . الا ترى انه تعالى قال : (اليوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم) يس : ٦٥ . فنحن نؤمن انها

تتكلم ، ولانعلم كيف تتكلم . وكذا قوله تعالى : (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذي أنطق كل شيء) السجـدة : ٢١ . وكذلك تسبيح الحصا والطعام ، وسلام الحجـر ، كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه المعتمد على مقاطع الحروف .

والى هذا اشار الشيخ رحمه الله بقوله : منه بدا بلا كيفية قولا ، اي : ظهر منه ولاندري كيفية تكلمه به . واكد هـذا المعنى بقوله « قولا » ، أتى بالمصدر المعرف للحقيقة ، كما اكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت النافي للمجاز في قوله : (وكلم الله موسى تكليما) . فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ !

وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم : قال تعالى : (سلامٌ قولا من ربٍّ رحيم) يس : ٥٨

و / قد / قال تعالى : (إن الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلا اولئك لاخلاق لهم في الآخرة ولايكلمهم الله ولاينظر اليهم) آل عمران : ٧٧ فأهانهم بترك تكليمهم ، والمراد انه لايكلمهم تكليم تكريم ، / و / هو الصحيح ، إذ قد اخبر في الآية الاخرى انه يقول لهم في النار : (اخسأوا فيها ولا تكلمون) المؤمنون ١٠٨ ، فلو كان لايكلم عباده المؤمنين ، لكانوا في ذلك هم واعداؤه سواء ، ولم يكن في تخصيص اعدائه بأنه لايكلمهم فائدة أصلا . وقال البخاري في « صحيحه » باب كلام الرب تبارك وتعالى مع اهل الجنة ، وساق فيه عدة احاديث . فأفضل نعيم اهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى ، وتكليمه لهم . فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة . واعلى نعيمها وافضله الذي ماطابت لأهلها إلا به .

وأما استدلالهم بقوله تعالى : (الله خالق كل شيء) الرعد : ١٨ ، والقرآن شيء ، فيكون داخلا في عموم « كل » فيكون مخلوقاً ! ! فمن اعجب العجب . وذلك : ان افعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى ، وانمـا يخلقها العباد جميعها ، لايخلقها الله فأخرجوها من عموم « كل » ، وادخلوا كلام الله في عمومها مع انه صفة من صفاته ، به تكون الاشياء المخلوقة ، إذ بأمره تكون المخلوقات ، قال تعالى : (والشمس والقمـر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والامر)

الاعراف : ٥٣ . ففرق بين الخلق والامر ، فلو كان الامر مخلوقاً للزم ان يكون مخلوقاً بأمر آخر ، والآخر بآخر ، الى ما لا نهاية له ، فيلزم التسلسل ، وهو باطل.

وطرد باطلهم : ان تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة ، كالعلم والقدرة وغيرهما ، وذلك صريح الكفر ، فإن علمه شيء ، وقدرته شيء ، وحياته شيء ، فيدخل ذلك في عموم كل ، فيكون مخلوقاً بعد ان لم يكن ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وكيف يصح ان يكون متكلما بكلام يقوم بغيره ؟ ولو صح ذلك للزم ان يكون ما احدثه من الكلام في الجمادات كلامه ! وكذلك ايضاً ما خلقه في الحيوانات ولا يفرق حينئذ بين نَطق وانْطَق . وانما قالت الجلود : « انطقنا الله » السجدة : ٢١ ولم تقل : نطق الله ، بل يلزم ان يكون متكلما بكل كلام خلقه في غيره ، زوراً كان او كذباً او كفراً او هذياناً ! ! تعالى الله عن ذلك .

ولو صح ان يوصف احد بصفة قامت بغيره ، لصح ان يقال للبصير : اعمى وللاعمى : بصير ! لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره ، والاعمى قد قام وصف البصر بغيره ! ولصح ان يوصف الله تعالى بالصفات التي خلقها في غيره ، من الالوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك .

وعموم كل في كل موضع بحسبه ، ويعرف ذلك بالقرائن . الا ترى الى قوله تعالى : (تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم) الاحقاف : ٢٥ ومساكنهم شيء ، ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح ؟ وذلك لان المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير . وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس (واوتيت من كل شيء) النمل : ٢٣ ، المراد من كل شيء يحتاج اليه الملوك وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام . اذ مراد الهدهد انها ملكة كاملة في امر الملك ، غير محتاجة الى ما يكمل به امر ملكها ، ولهذا نظائر كثيرة .

والمراد من قوله تعالى : (خالق كل شيء) الرعد : ١٦ ، أي كل شيء مخلوق ، وكل موجود سوى الله فهو مخلوق ، فدخل في هذا العموم أفعال العباد

حتماً ، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى ، وصفاته ليست غيره ، لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال ، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة ، لا يتصور انفصال صفاته عنه ، كما تقدم الاشارة الى هــذا المعنى عند قوله : «مازال قديماً بصفــاته قبل خلقه» .

وأما استدلالهم بقوله تعالى : (إنا جعلناه قرآناً عربياً) الزخرف : ٣ ، فما افسده من استدلال ! فإن « جعل » إذا كان بمعنى خلق يتعدى الى مفعول واحد ، كقوله تعالى : (وجعل الظلمات والنور) الانعام : ١ ، وقوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) الانبياء : ٣٠ . (وجعلنا في الارض رواسي ان تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون) الانبياء : ٣١ . (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً) الانبياء : ٣٢ . واذا تعدى الى مفعولين لم يكن بمعنى خلق ، قال تعالى : (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) النحل : ٩١ وقال تعالى : (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم) البقرة : ٢٤٤ . وقال تعالى : (الذين جعلوا القرآن عضين) الحجر : ٩١ وقال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) الاسراء : ٢٩ . وقال تعالى : (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر) الاسراء : ٣٩ . وقال تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) الزخرف : ١٩ . ونظائره كثيرة . فكذا قوله تعالى : (إنا جعلناه قرآناً عربياً) الزخرف : ٣ .

وما افسد استدلالهم بقوله تعالى : (نودي من شاطــيء الوادي الايمن في البقعــة المباركة من الشجرة) القصص : ٣٠ - على ان الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة فسمعه موسى منها ! وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها ، فإن الله تعالى قال : (فلما أتاها نودي من شاطيء الوادي الايمن) القصص : ٣٠ ، والنداء هو الكلام من بُعد ، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي ، ثم قال : (في البقعة المباركة من الشجرة) القصص : ٣٠ اي ان النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة ، كما يقول سمعت كلام زيد من البيت ، يكون من البيت لابتداء الغاية

لا ان البيت هو المتكلم ! ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة ، لكانت الشجرة هي القائلة : (ياموسى اني انا الله رب العالمين) القصص : ٣٠ . وهل قال : (إني انا الله رب العالمين) القصص : ٣٠ غير رب العالمين ؟

فإن قيل : فقد قال تعالى : (إنه لقول رسول كريم) الحاقة : ٤٠ . وهذا يدل على ان الرسول احدثه ، إما جبرائيل او محمد .

قيل : ذكر الرسول معرف انه مبلغ عن مرسله ، لانه لم يقل إنه قول ملك او نبي ، فعلم انه بلغه عمن ارسله به ، لا أنه انشأ من جهة نفسه . وأيضاً : فالرسول في إحدى الآيتين جبرائيل ، وفي الاخرى محمد ، فإضافته الى كل منهما تبين ان الاضافة للتبليغ ، اذ لو أحدثه أحدهما امتنع ان يحدثه الآخر . وأيضاً : فوصف الرسول بأنه امين(١) ، دليل على انه لا يزيد في الكلام الذي أرسل بتبليغه ولا ينقص منه ، بل هو امين على ما ارسل به ، يبلغه عن مرسله . وايضاً : فإن الله قد كفر من جعله قول البشر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بشر ، فمن جعله قول محمد ، بمعنى أنه انشأه - فقد كفر . ولا فرق بين ان يقول : إنه قول بشر ، او جني ، او ملك ، والكلام كلام من قال مبتدئاً ، لا من قاله مبلغاً . ومن سمع قائلا يقول :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

- قال : هذا شعر امرىء القيس ، ومن سمعه يقول : « إنما الاعمال بالنيات

---

(١) قال الشيخ احمد شاكر : الآية التي ذكرها الشارح (انه لقول رسول كريم) جاءت مرتين في سورة الحاقة : ٤٠ وليس فيما بعدها الوصف بلفظ (امين) . والاخرى في سورة التكوير : ١٩ ، ثم بعدها : (ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم امين) - ٢٠ ، ٢١ . فتعبير الشارح بقوله : وايضاً فقوله : رسول امين فيه شيء من التساهل ، لم يرد به حكاية التلاوة ، وانما اراد المعنى فقط . ولو قال : وايضاً فوصف الرسول بأنه (امين) . . . . » كان ادق واجود .

وإنما لكل امرئ ما نوى »(١) ـ : قال : هذا كلام الرسول ، وان سمعه يقول :
(الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . اياك نعبد واياك نستعين)
قال : هذا كلام الله ، ان كان عنده خبر ذلك ، والا قال : لا أدري كلام من هذا؟
ولو انكر عليه احد ذلك لكذب . ولهذا من سمع من غيره نظما او نثراً ، يقول له :
هذا كلام من ؟ هذا كلامك أو كلام غيرك ؟

وبالجملة ، فأهل السنة كلهم ، من أهل المذاهب الاربعة وغيرهم من السلف والخلف ، متفقون على أن كلام الله غير مخلوق .

والذي يدل عليه كلام الطحاوي رحمه الله : أنه تعالى لم يزل متكلما إذا شاء كيف شاء ، وأن نوع كلامه قديم . وكذلك ظاهر كلام الامام أبي حنيفة رضي الله عنه في الفقه الاكبر ، فإنـه قال : والقرآن في المصاحف مكتوب ، وفي القلوب محفوظ ، وعلى الالسن مقروء ، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم منزل ، ولفظنا بالقرآن مخلوق ، والقرآن غير مخلوق ، وما ذكر الله في القرآن عن موسى عليه السـلام وغيره ، وعن فرعون وابليس ـ فان ذلك كلام الله إخبارا عنهم ، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق ، والقرآن كلام الله لا كلامهم ، وسمع موسى عليـه السلام كلام الله تعالى ، فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته لم يزل ، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا ، ويتكلم لا ككلامنا . وانتهى . فقوله : ولما كلم(٢) موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته ـ يعلم منه أنه حين جاء كلمه ، لا أنه لم يزل ولا يزال أزلا وأبدا يقول ياموسى ، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه).
والقرآن في الاصل : مصـدر ، فتارة يذكر ويراد به القراءة ، قال تعـالى : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) الاسراء : ٧٨ . وقال صلى الله عليه

---

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب .
(٢) في المطبوعة « ولما كان » ، وهو خطأ .

وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم »(١) . وتارة يذكر ويراد به المقروء ، قال تعالى: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) النحل : ٩٨ . وقال تعالى : (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) الاعراف : ٢٠٣ . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف »(٢) . الى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على كل من المعنيين المذكورين .

ومعنى قوله : « منه بدا » أي هو المتكلم به ، فمنه بدا ، لا من بعض المخلوقات، كما قال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) الزمر : ١ . (ولكن حق القول مني) السجدة : ١٣ . (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) النحل : ١٠٢ . ومعنى قولهم : وإليه يعود ـ: يرفع من الصدور والمصاحف ، فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف . كما جاء ذلك في عدة آثار .

وقوله بلا كيفية : أي : لا تعرف كيفية تكلمه به قولا ليس بالمجاز ، وأنزله على رسوله وحياً ، أي : أنزله اليه على لسان الملك ، فسمعه الملك جبرائيل من الله ، وسمعه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من الملك ، وقرأ على الناس . قال تعالى : (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) الاسراء : ١٠٦ . وقال تعالى : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين) الشعراء : ١٩٣ . وفي ذلك إثبات صفة العلو لله تعالى .

وقوله : وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً الإشارة إلى ما ذكره من التكلم على الوجه المذكور وإنزاله ، أي هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهم السلف الصالح ، وأن هذا حق وصدق .

---

(١) صحيح ، رواه أبو داود وغيره من أصحاب السنن والحاكم وأحمد بسند صحيح عن البراء بن عازب .

(٢) متفق عليه من حديث عمر .

وقوله : وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية .
رد على المعتزلة وغيرهم بهذا القول ظاهر . وفي قوله : بالحقيقة رد على من قال : إنه معنى واحد قام بذات الله لم يسمع منه وانما هو الكلام النفساني . لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به - : أن هذا كلام حقيقة ، وإلا للزم أن يكون الاخرس متكلما ، ولزم أن لا يكون الذي في المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام الله ، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله ، كما لو أشار أخرس الى شخص بإشارة فهم بها مقصوده ، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي أوحاه إليه ذلك الاخرس ، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى . وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه وان كان الله تعالى لا يسميه أحد « أخرس » لكن عندهم ، أن الملك فهم منه معنى قائما بنفسه ، لم يسمع منه حرفا ولا صوتا ، بل فهم معنى مجردا ، ثم عبر عنه ، فهو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه العربي ، وأن الله خلق في بعض الاجسام كالهوى الذي هو دون الملك هذه العبارة .

ويقال لمن قال إنه معنى واحد - : هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه ؟ فإن قال : سمعه كله ، فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله ! وفساد هذا ظاهر . وإن قال : بعضه ، فقد قال يتبعض . وكذلك كل من كلمه الله أو أنزل اليه شيئا من كلامه .

ولما قال تعالى للملائكة : (إني جاعل في الارض خليفة (البقرة : ٣٠ . ولما قال لهم : (اسجدوا لآدم) . وأمثال ذلك - : هل هذا جميع كلامه أو بعضه ؟ فإن قال : إنه جميعه ، فهذا مكابرة ، وإن قال : بعضه ، فقد اعترف بتعدده .

ولا شك أن من قال : إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارىء حكاية كلام الله وهو مخلوق - : فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر ، فإن الله يقول : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) الاسراء : ٨٨ . أفتراه سبحانه وتعالى

يشير الى ما في نفسه أو الى المتلو المسموع ؟ ولاشك أن الإشارة إنما هي إلى هـذا المتلو المسموع ، إذ ما في ذات الله غير مشار اليه ، ولا منزل ولا متلو ولا مسموع.

وقوله : (لايأتون بمثله) ـ أفتراه سبحانه يقول : لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه ، وما في نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه ، ولا الى الوقوف عليه .

وقوله : ومن سمعه وقال إنه كلام البشر فقد كفر . لاشك في تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله ، بل قال إنه كلام محمد أو غـيره من غير الخلق ، ملكا كان أو بشراً . وأما إذا أقر انه كلام الله ، ثم أول وحرف ـ فقد وافق قول من قال : « إن هـذا إلا قول البشـر » في بعض ما به كفر ، أولئك الذين استزلهم الشيطان ـ وسيأتي الكلام عليه عند قول الشيخ « ولا نكفر أحدا من أهـل القبلة بذنب ما لم يستحله » إن شاء الله تعالى .

وقوله : ولا يشبه قول البشـر ، يعني أنه أشرف وأفصح وأصـدق . قال تعالى : (ومن أصدق من الله حديثا) النساء : ٨٧ وقال تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) ، الاسـراء : ٨٨ . الآيـة . وقال تعـالى : (قل فأتـوا بسـورة مثله) يونس ٣٨ . فلما عجزوا ـ وهم فصحاء العرب ، مع شدة العداوة ـ عن الإتيان بسورة مثله ، تبين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أنه من عند الله . وإعجازه من جهة نظمه ومعناه ، لا من جهة أحدهما فقط . هذا مع أنه قرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين ، أي بلغة العربية . فنفي المشابهة من حيث التكلم ، ومن حيث التكلم به ، ومن حيث النظم والمعنى ، لا من حيث الكلمات والحروف . والى هـذا وقعت الاشـارة بالحروف المقطعة في أوائل السـور ، أي انه في أسـلوب كلامهم وبلغتهم التي يخاطبون بها . ألا ترى أنه يأتي بعـد الحروف المقطعة بذكر القرآن ؟ كما في قوله تعالى : (آلم . ذلك الكتاب لاريب فيه) البقرة : ١-٢ . (آلم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزّل عليك الكتاب بالحق) آل عمران : ١-٣ الآية . (آلمص. كتاب

أنزل إليـك) الاعراف : ١-٢ ، الآيـة . (آلر . تلك آيات الكتاب الحكيم) يونس: ١-٢. وكذلك الباقي ، ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لاتعرفونه ، بل خاطبكم بلسانكم .

ولكن أهل المقالات الفاسـدة يتذرعون بمثل هـذا إلى نفي تكلم الله به ، وسماع جبرائيل منه ، كما يتذرعون بقوله تعالى : (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١ الى نفي الصفات. وفي الآية ما يرد عليهم قولهم ، وهو قوله تعالى : (وهو السميع البصير) الشورى : ١١ . كما في قوله تعالى : (فأتوا بسورة مثله) يونس : ٣٨ ما يرد على من ينفي الحرف ، فانه قال : (فأتوا بسورة) ، ولم يقـل فأتوا بحرف ، أو بكلمة . وأقصر سورة في القرآن ثلاث آيات . ولهـذا قال أبو يوسف ومحمد : إن أدنى ما يجزيء في الصلاة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة ، لأنه لايقع الإعجاز بدون ذلك . والله أعلم .

قوله : (ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر ، فقد كفر . من أبصـر هذا اعتبر . وعن مثل قول الكفار أنزجر . علم أنه بصفاته ليس كالبشر) .

ش : لما ذكر فيما تقدم أن القرآن كلام الله حقيقة ، منه بدا ، نبه بعـد ذلك على أنه تعالى بصفاته ليس كالبشر ، نفيا للتشبيه عقيب الإثبات . يعني أن الله تعالى وإن وُصف بأنه متكلم ، لكن لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون الانسان بها متكلما ، فان الله ليس كمثله شي وهو السميـع البصير . وما أحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غـير تشبيه ولا تعطيل ـ: باللبن الخالص السائغ للشاربين ، يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه . والمعطل يعبد عدما ، والمشبه يعبد صنما. وسيأتي في كلام الشيـخ : ومن لم يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه . وكذا قوله : وهو بين التشبيه والتعطيل . أي دين الاسلام ، ولاشك أن التعطيل شر من التشبيه ، بما سأذكره إن شاء الله تعالى . وليس ما وصف الله به نفسه ولا

ما وصفه به وسوله تشبيها ، بل صفات الخالق كما يليق به ، وصفات المخلوق كما يليق به .

وقوله : فمن أبصر هذا اعتبر . أي من نظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات الوصف ونفي التشبيه ووعيد المشبه اعتبر وانزجر عن مثل قول الكفار .

قوله : (والرؤية حق لاهل الجنة ، بغير احاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا : (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) القيامة : ٢٢-٢٣ . وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه ، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كما قال ، ومعناه على ما أراد ، لاندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ، فانه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم . ورد على ما اشتبه عليه الى عالمه) .

ش : المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم. وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة . وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون ، وأئمة الاسلام المعروفون بالامامة في الدين ، وأهل الحديث ، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون الى السنة والجماعة .

وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها ، وهي الغاية التي شمر اليها المشمرون ، وتنافس المتنافسون ، وحُرِمها الذين هم عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مردودون .

وقد ذكر الشيخ رحمه الله من الأدلة قوله تعالى : (وجوه يؤمئذ ناظرة الى ربها ناظرة) القيامة : ٢٢-٢٣ . وهي من أظهر الادلة . واما من أبى إلا تحريفها بما يسميه تأويلا - : فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب ، أسهل من تأويلها على أرباب التأويل . ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد الي ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص .

وهذا الذي أفسد الدنيا والدين . وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والانجيل ، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم . وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم ، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية . فهل قتل عثمان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد ؟ وكذا ما جرى في يوم الجمل ، وصفين ، ومقتل الحسين ، والحرة ؟

وإضافة النظر الى الوجه ، الذي هو محله ، في هذه الآية ،وتعديته بأداة «إلى» الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه حقيقة(١) موضوعة صريحة في ان الله اراد بذلك نظر العين التي في الوجه الى الرب جل جلاله .

فإن النظر له عدة استعمالات ، بحسب صلاته وتعديه بنفسه : فان عدي بنفسه فمعناه : التوقف والانتظار : (انظرونا نقتبس من نوركم) الحديد : ١٣ . وان عدي بـ « في » ، فمعناه : التفكر والاعتبار ، كقوله : (او لم ينظروا في ملكوت السموات والارض) الاعراف : ١٨٤ . وإن عدي بـ « إلى » فمعناه : المعاينة بالابصار ، كقوله تعالى : (انظروا الى ثمره اذا اثمر) الانعام : ٩٩ . فكيف اذا أضيف الى الوجه الذي هو محل البصر ؟ وروى ابن مردويه بسنده الى ابن عمرو ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - في قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة) - قال : من البهاء والحسن (الى ربها ناظرة) ، قال في وجه الله عز وجل(٢) . عن الحسن قال : نظرت الى ربها فنضرت بنوره . وقال ابو صالح ابن عباس رضي الله عنهما، (الى ربها ناظرة) قال : تنظر الى وجه ربها عز وجل وقال عكرمة : (وجوه يومئذ ناضرة) ، قال : من النعيم ، (الى ربها ناظرة) ،قال : تنظر الى ربها نظراً ثم حكى عن ابن عباس مثله / . وهذا قول المفسرين(٣) من اهل السنة والحديث .

---

(١) في الاصل : حقيقته .

(٢) لم اقف على سنده ، ولم يورده السيوطي في « الدر المنثور » في تفسير الآية (٦ / ١٩٠) ، وقد ذكر فيه الآثار الآتية .

(٣) في الاصل : كل مفسر .

وقال تعالى : (لهم مايشاؤون فيها ولدينا مزيد) ق : ٣٥ . قال الطبري : قال علي بن ابي طالب وأنس بن مالك : هو النظر الى وجـه الله عز وجل . وقال تعالى : (للذين احسنوا الحسنى وزيادة) يونس : ٢٦ ، فالحسنى : الجنة ، والزيادة : هي النظر الى وجهه الكريم ، فسرها بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده ، كما روى مسلم في صحيحه عن صهيب ، قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (للذين احسنوا الحسنى وزيادة) يونس : ٢٦ ، قال : « إذا دخل اهل الجنة الجنة ، واهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ماهو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ فيكشف الحجاب ، فينظرون اليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر اليه ، وهي الزيادة »(١) . ورواه غيره بأسانيد متعـددة و الفاظ اخر ، معناها ان الزيادة النظر الى وجه الله عز وجل . وكذلك فسرها الصحابة رضي الله عنهم . روى ابن جرير / ذلك / عن جماعة ، منهم : ابو بكر الصديق رضي الله عنه وحذيفة ، وابو موسى الاشعري ، وابن عباس ، رضي الله عنهم .

وقال تعالى : (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) المطففين : ١٥ . احتج الشافعي رحمه الله وغيره من الائمة بهـذه الآية على الرؤية لأهل الجنة ، ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي . وقال الحاكم : حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال : حضرت محمد إدريس الشافعي ، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها : ما تقول في قول الله عز وجل : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ؟ المطففين : ١٥ فقال الشافعي : لما أن حُجب هؤلاء في السخط ، كان في هـذا دليل على أن اولياءه يرونه في الرضى .

واما استدلال المعتزلة بقوله تعالى : (لن تراني) الاعراف : ١٤٢ ، وبقوله تعالى : (لاتدركه الأبصار) ـ: فالآيتان دليل عليهم :

---

(١) صحيح ، ورواه الترمذي وابن ماجه واحمد نحوه .

أما الآية الأولى : فالاستدلال منها على ثبوت رؤيته من وجوه : احدهما :
انه لايظن بكليم الله ورسوله الكريم واعلم بربه في وقته - أن يسأل مالا يجوز عليه ،
بل هو عندهم من اعظم المحال . الثاني : أن الله لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح
ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله ، وقال : (إني أعظك انتكون من الجاهلين) هود: ٤٦
الثالث : انه تعالى قال : (لن تراني) ، ولم يقل : اني لاأرى ، او لاتجوزرؤيتي ،
او لست بمرئي . والفرق بين الجوابين ظاهر . ألا ترى أن من كان في كمه حجر
فظنه رجل طعاما فقال : أطعمنيه ، فالجواب الصحيح : أنه لايؤكل ، أما اذا
كان طعاما صح أن يقال : انك لن تأكله . وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي ،
ولكن موسى لاتحتمل قواه رؤيته في هذه الدار ، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته
تعالى . يوضحه : الوجه الرابع : وهو قوله : (ولكن انظر الى الجبل فإن استقر
مكانه فسوف تراني) الاعراف : ١٤٢ . فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا
يثبت للتجلي في هذه الدار ، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف ؟ الخامس : أن
الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقرا وذلك ممكن ، وقد علق به الرؤية ،
ولو كانت محالا لكان نظير أن يقول : إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب
وأنام . والكل عندهم سواء . السادس : قوله تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله
دكا) الاعراف : ١٤٢ ، فاذا جاز أن يتجلى للجبل ، الذي هو جماد لاثواب له
ولا عقاب ، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته ؟ ولكن الله
أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته فى هذه الدار ، فالبشر أضعف . السابع :
أن الله كلم موسى وناداه وناجاه ، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه
كلامه بغير واسطة - فرؤيته أولى بالجواز . ولهذا لايتم إنكار رؤيته الا بإنكار كلامه ،
وقد جمعوا بينهما . واما دعواهم تأييد النفى بـ « لن » وأن ذلك يدل على نفي الرؤية
في الآخرة - : ففاسد ، فانها لو قيدت بالتأبيد لايدل على دوام النفى في الآخرة ،
فكيف اذا أطلقت ؟ قال تعالى : « ولن يتمنوه أبدا » البقرة : ٩٥ ، مع قوله
(ونادوا يامالك ليقض علينا ربك) الزخرف : ٧٧ . ولأنها لو كانت للتأبيد

المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها ، وقد جاء ذلك ، قال تعالى : (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي ابي) يوسف : ٨٠ . فثبت ان « لن » لاتقتضي النفي المؤبد .

قال الشيخ جمال الدين ابن مالك رحمه الله :

ومن رأى النفي بلن مؤبدا فقوله اردد وسواه فاعضدا

واما الآية الثانية : فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف ، وهو: أن الله تعالى انما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم أن المدح انما يكون بالصفات الثبوتية ، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به ، وانما يمدح الرب تعالى بالنفي اذا تضمن أمرا وجودياً ، كمدحه بنفي السِنة والنوم ، المتضمن كمال القيومية ، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة ، ونفي اللغوب والاعياء ، المتضمن كمال القدرة ، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير ، المتضمن كمال الربوبية والالوهية وقهره ،ونفي الاكل والشرب المتضمن كمال صمديته وغناه ، ونفي الشفاعة عنده الا بإذنه المتضمن كمال توحده وغناه عن خلقه ، ونفي الظلم ، المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه ، المتضمن كمال علمه وإحاطته ، ونفي المثل، المتضمن لكمال ذاته وصفاته . ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن أمرا ثبوتيا ، فان المعدم يشارك الموصوف في ذلك العدم ، ولايوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فان المعنى : أنه يُرى ولا يُدرك ولايحاط به ، فقوله : (لاتدركه الأبصار) الانعام : ١٠٣ ، يدل على كمال عظمته ، وأنه أكبر من كل شيء ، وأنـــه لكمال عظمته لايدرك بحيث يحاط به ، فان « الادراك » هو الاحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤيـــة ، كما قال تعالى : (فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون ، قال : كلا)الشعراء : ٦٢ ، فلم ينف موسى الرؤية ، وإنما نفى الإدراك، فالرؤية والادراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه ، فالرب تعالى يُرى ولا يدرك ، كما يعلم ولا يحاط به علما ، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية ، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية . بل هذه الشمس المخلوقة لايتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه .

وأما الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه ، الدالة على الرؤيـة فمتواترة ، رواها اصحاب الصحاح والمسانيد والسنن . فمنها : حديث ابي هريرة : « أن ناسا قالوا : يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا ، قال فإنكم ترونه كذلك »(١) ، الحديث ، أخرجاه في « الصحيحين » بطوله . وحديث أبي سعيد الخدري أيضا في « الصحيحين » نظيره . وحديث جرير بن عبدالله البجلي ، قال : « كنا جلوسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فنظر إلى القمر ليلة اربع عشرة،فقال : انكم سترون ربكم عيانا ، كما ترون هذا ، لاتضامون في رؤيته »(٢) ، الحديث اخرجاه في « الصحيحين » . وحديث صهيب المتقدم ، رواه مسـلم وغيره . وحديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « وجنتان من فضه ، آنيتهما ومافيهما ، وجنتان من ذهب ، آنيتهما وما فيهما ، ومابين القوم وبين ان يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »(٣) ، اخرجاه في « الصحيحين » . ومن حديث عدي بن حاتم : « وليلقين الله احدكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه حجاب ولاترجمان يترجم له ، فيقول : الم ابعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى يارب ، فيقول : الم اعطك مالا وافضل عليك ؟ فيقول ، بلى يارب »(٤) . اخرجه البخاري في « صحيحه » .

وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا . ومن احاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها ، ولولا اني التزمت الاختصار لسقت مافي الباب من الأحاديث . ومن اراد الوقوف عليها فليواظب سماع الاحاديث النبويـة ، فإن فيها مع

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) البخاري في « المناقب » .

إثبات الرؤية انه يكلم من شاء إذا شاء ، وانه يأتي لفصل القضاء يوم القيامة ، وانه فوق العالم ، وانه يناديهم بصوت يسمع من بعد كما يسمعه من قرُب ، وانه يتجلى لعباده ، وانه يضحاك ، الى غير ذلك من الصفات التي سماعها على الجهمية بمنزلة الصواعق . وكيف تعلم اصول دين الاسـلام من غير كتاب الله وسنة رسوله ؟ وكيف يفسر كتاب الله بغير مافسره به رسولهصلى الله عليه وسلم واصحابه رضوان الله عليهم ، الذين نزل القرآن بلغتهم ؟

وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية ، لاتشبيه المرئي بالمرئي ، وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا ، لا لامتناع الرؤية ، فهذه الشمس اذا حدق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها لا لامتناع في ذات المرئي ، بل لعجز الرائي ، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته . ولهذا لما تجلى الله للجبل (خر موسى صعقاً ،فلما أفاق قال : سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين) الاعراف : ١٤٢ ، بأنهلا يراك حي إلا مات ، ولا يابس الا تدهده ، ولهذا كانالبشر يعجزون عن رؤية الملَك في صورته ، الا من ايده الله كما ايد نبينا ، قال تعالى : (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو انزلنا ملكاً لقضي الامر) الانعام : ٨ . قال غير واحد من السلف : لايطيقون أن يروا الملك في صورته ، فاو أنزلنا عليهم ملكاً لجعلناه في صورة بشر ، وحينئذ يشتبه عليهـم : هل هو بشر او ملك ؟ ومن تمام نعمة الله علينـا أن بعث فينا رسولا منا .

وقوله : والرؤية حق لأهل الجنة ، تخصيص أهل الجنة بالذكر ، يفهم منه نفي الرؤية عن غيرهم . ولاشك في رؤية اهل الجنة لربهم في الجنة ، وكذلكيرونه في المحشر قبل دخولهم الجنة ، كما ثبت ذلك في « الصحيحين » عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) . ويدل عليهقوله تعالى : (تحيتهم يومياقونه سلام) الاحزاب:

(١) انظر صفحة٦٣ .

٤٤ . واختلف في رؤية اهل المحشر على ثلاثة أقوال : أحدها : أنه لايراه إلا المؤمنون . الثاني : يراه أهل الموقف ، مؤمنهم وكافرهم ، ثم يحتجب عن الكفار ولايرونه بعد ذلك . الثالث : يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار . وكذلك الخلاف في تكليمه لأهل الموقف .

واتفقت الامة على أنه لايراه احد في الدنيا بعينه ، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة : منهم من نفى رؤيته بالعين ، ومنهم من اثبتها له صلى الله عليه وسلم . وحكى القاضي عياض في كتابه « الشفا » اختلاف الصحابة ومن بعدهم في رؤيته صلى الله عليه وسلم ، وإنكار عائشة رضي الله عنها ان يكون صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه ، وانها قالت لمسروق حين سألها : هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت ، ثم قالت : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ثم قال : وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها ، وهو المشهور عن ابن مسعود وابي هريرة واختلف عنه ، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه صلى الله عليه وسلم رآه بعينه(١) ، وروى عطاء عنه : أنه رآه بقلبه . ثم ذكر أقوالا وفوائد ، ثم قال : وأما وجوبه لنبينا صلى الله عليه وسلم والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع ولانص ، والمعول فيه على آيتي النجم ، والتنازع فيهما مأثور ، والاحتمال لهما ممكن . وهذا القول الذي قاله القاضي عياض رحمه الله هو الحق ، فإن الرؤية في الدنيا ممكنة ، إذ لو لم تكن ممكنة ، لما سألها موسى عليه السلام لكن لم يرد نص بأنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه ، بل ورد مايدل على نفي الرؤية ، وهو مارواه مسلم في « صحيحه » عن أبي ذر رضي الله عنه قال : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنّى أراه »

(١) ضعيف أخرجه ابن خزيمة في « التوحيد » .

(١). وفي رواية : «رأيت نوراً» . وقد روى مسلم ايضاً عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه أنه قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : إن الله لاينام ولاينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور »(٢) ، وفي رواية : « النار ، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ماانتهى اليه بصره من خلقه » . فيكون - والله اعلم - معنى قوله لابي ذر « رأيت نوراً » : أنه رأى الحجاب ، ومعنى قوله « نور أنى أراه » : النور الذي هو الحجاب يمنع من رؤيته ، فأنى أراه ؟ أي فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته ؟ فهذا صريح في نفي الرؤية . والله اعلم.

وحكى عثمان بن سعيد الدرامي اتفاق الصحابة على ذلك ، ونحن الى تقرير رؤيته لجبريل احوج منا الى تقرير رؤيته(٣) لربه تعالى ، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم واعلى ، فإن النبوة لايتوقف ثبوتها عليها البتة .

وقوله : بغير إحاطة ولا كيفية - هذا لكمال عظمته وبهائه ، سبحانه وتعالى لاتدركه الابصار ولاتحيط به ، كما يُعلم ولايحاط به علما . قال تعالى : (لاتدركه الأبصار) الانعام : ١٠٣ . وقال تعالى : (ولايحيطون به علما) طه : ١١٠ .

وقوله : وتفسيره على ما أراد الله وعلمه ، الى أن قال : لاندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولامتوهمين بأهوائنا . أي كما فعلت المعتزلة بنصوص الكتاب والسنة

---

(١) صحيح ، أخرجه مسلم في آخر « كتاب الايمان » ويشهد له حديث ابن عمر مرفوعاً بلفظ : « يوم القيامة اول يوم نظرت فيه عين الى الله عز وجل » . رواه الدارقطني كما فى « الدر » (٦ / ١٩١) ،وله شاهد مرسل ،رواه ابو سعيد الدرامي في « الرد على الجهمية » (٤٩) .

(٢) صحيح .

(٣) مافي المطبوعتين خطأ وصوابه ما اثبتناه من الاصل ويؤيده مافي « الرد على الجهمية » للدرامي .

في الرؤية ، وذلك تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه . فالتأويل الصحيح هو الذي يوافق ماجاءت به السنة ، والفاسد المخالف له . فكل تأويل لم يدل عليه دليل من السياق ، ولامعه قرينة تقتضيه ، فإن هذا لايقصده المبين الهادي بكلامه ، إذ لو قصده لحف" بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره ، حتى لايوقع السامع في اللبس والخطأ ، فإن الله أنزل كلامه بياناً وهدى ، فإذا أراد به خلاف ظاهره ، ولم يحف به قرائن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره الى فهم كل أحد ،لم يكن بياناً ولاهدى . فالتأويل إخبار بمراد المتكلم ، لاإنشاء .

وفي هذا الموضع يغلط كثير من الناس فإن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه فاذا قيل : معنى اللفظ كذا وكذا ، كان إخباراً بالذي عنى المتكلم ، فإن لم يكن الخبر مطابقاً كان كذباً على المتكلم ، ويُعرف مراد المتكلم بطرق متعددة : منها : ان يصرح بارادة ذلك المعنى . ومنها : أن يستعمل اللفظ الذي له معنى ظاهر بالوضع ولايبين بقرينة تصحب الكلام أنه لم يرد ذلك المعنى ، فكيف إذا حف بكلامه مايدل على انه إنما اراد حقيقته وما وضع له ، كقوله : (وكلم الله موسى تكليما) النساء : ١٦٣ . و « إنكم ترون ربكم عيانا كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب» (١) فهذا مما يقطع به السامع له بمراد المتكلم ، فإذا أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذي وضع له مع القرائن المؤكدة ، كان صادقاً في إخباره . وأما إذا تأول الكلام بما لايدل عليه ولا اقترن به مايدل عليه ، فإخباره بأن هذا مراده كذب عليه وهو تأويل بالرأي ، وتوهم بالهوى .

وقوله : فإنه ماسلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه . أي : سلم لنصوص الكتاب والسنة ، ولم يعترض عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة ، أو بقوله : العقل يشهد بضد مادل عليه النقل! والعقل اصل النقل ! فاذاعارضه قدمنا العقل!! وهذا لايكون قط .

(١) متفق عليه وتقدم .

لكن إذا جاء ما يوهم مثل ذلك : فان كان النقل صحيحاً فذلك الذي يدعي أنه معقول إنما هو مجهول، ولو حقق النظر لظهر ذلك . وان كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة ، فلا يتصور أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبداً . ويعارض كلام من يقول ذلك بنظره ، فيقال : اذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل ، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين ، ورفعهما رفع النقيضين ، وتقديم العقل ممتنع ، لان العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلو أبطلنا النقل لكنا قد ابطلنا دلالة العقل ، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح ان يكون معارضاً للنقل ، لان ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الاشياء ، فكان تقديم العقل موجباً عدم تقديمه ، فلا يجوز تقديمه . وهذا بين واضح ، فإن العقل هو الذي دل على صدق السمع وصحته ، وأن خبره مطابق لمخبره ، فإن جاز ان تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم أن لا يكون النقل دليلا صحيحاً ، واذا لم يكن دليلا صحيحاً لم يجز ان يتبع بحال ، فضلا عن ان يقدم ، فصار تقديم العقل على النقل قدحاً في العقل .

فالواجب كمال التسليم للرسول صلى الله عليه وسلم ، والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولا ، أو نحمله شبهة او شكاً ، او نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم ، فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان ، كما نوحد المرسِل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل .

فهما توحيدان ، لا نجاة للعبد من عذاب الله الا بهما : توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول ، فلا نحاكم الى غيره ، ولا نرضى بحكم غيره ، ولا نوقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره ، والا فإن طلب السلامة فوضه اليهم وأعرض عن أمره وخبره ، وإلا حرفه عن مواضعه ، وسمى تحريفه تأويلا وحملا ، فقال : نؤوله

وتحمله . فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب - ماخلا الإشراك بالله - خير له من أن يلقاه بهذه الحال . بل اذا بلغه الحديث الصحيح يعد نفسه كأنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهل يسوغ أن يؤخر قبوله والعمل به حتى يعرضه على رأي فلان وكلامه ومذهبه ؟ ! بل كان الفرض المبادرة الى امتثاله ، من غير التفات الى سواه ولا يستشكل قوله لمخالفته رأي فلان ، بل يستشكل الآراء لقوله ، ولا يعارض نصه بقياس ، بل نهدر الأقيسة ، ونتلقى نصوصه ، ولا نحرف كلامه عن حقيقته ، لخيال يسميه أصحابه معقولا ، نعم هو مجهول ، وعن الصواب معزول ! ولا يوقف قبول قوله على موافقة فلان دون فلان ، كائناً من كان .

قال الإمام أحمد : حدثنا انس بن عياض ، حدثنا أبو حازم : عن عمرو بن شعيب ، عن ابيه ، عن جده ، قال : لقد جلست أنا واخي مجلساً ما أحب ان لي به حمر النعم ، اقبلت انا واخي واذا مشيخة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس عند باب من أبوابه ، فكرهنا ان نفرق بينهم ، فجلسنا حُجرة ، اذ ذكروا آية من القرآن ، فتماروا فيها ، حتى ارتفعت اصواتهم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنما أهلكت الامم من قبلكم ، باختلافهم على انبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، ان القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا ، بل يصدق بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه الى عالمه » (١)

ولاشك ان الله قد حرم القول عليه بغير علم ، قال تعالى : (قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالاتعلمون) الاعراف : ٣٣ . وقال تعالى (ولاتقف ماليس لك به علم) الاسراء : ٣٦ . فعلى العبد ان يجعل مابعث الله به رسله ، وانزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه ، فيصدق بأنه حق وصدق ، وما سواه من كلام سائر الناس يعرضه عليه ، فان وافقه فهو حق ، وان خالفه فهو باطل

(١) صحيح .

وأن لم يعلم : هل خالفه او وافقه - يكون ذلك الكلام مجملا لايعرف مراد صاحبه او قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه او بتكذيبه - فانه يمسك عنه ، ولا يتكلم الا بعلم ، والعلم ماقام عليه الدليل ، والنافع منه ما جاء به الرسول ، وقد يكون علم من غير الرسول ، لكن في الامور الدنيوية ، مثل الطب والحساب والفلاحة ، وأما الامور الإلهية والمعارف الدينية ، فهذه العلم فيها ما أُخذ عن الرسول لاغير .

قوله : (ولاتثبت قدم الاسلام الا على ظهر التسليم والاستسلام) .

ش : هذا من باب الاستعارة ، اذ القدم الحسي لاتثبت الا على ظهر شيء. أي لا يثبت اسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين ، وينقاد اليها ، ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه . روى البخاري عن الإمام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله أنه قال : من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم . وهذا كلام جامع نافع .

وما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل ، وهو : أن العقل مع النقل العامي المقلد مع العالم المجتهد ، بل هو دون ذلك بكثير ، فإن العامي يمكنه أن يصير عالماً، ولايمكن العالم أن يصير نبيا رسولا ، فاذا عرف العامي المقلد عالما ، فدل عليه عاميا آخر . ثم اختلف المفتي والدال ، فإن المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي ، دون الدال ، فلو قال الدال : الصواب معي دون المفتي ، لأني انا الأصل في علمك بأنك مفت ، فإذا قدمت قوله على قولي قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفت ، فلزم القدح في فرعه ! فيقول له المستفتي : أنت لما شهدت له بأنه مفت ، ودللت عليه ، شهدت له بوجوب تقليده دونك ، فموافقتي لك في هذا العلم المعين ، لاتستلزم موافقتك في كل مسألة ، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتي الذي هو اعلم منك ، لايستلزم خطأك في علمك بأنه مفت ، هذا مع علمه أن ذلك المفتي قد يخطىء .

والعقل يعلم أن الرسول معصوم في خبره عن الله تعالى، لايجوز عليه الخطأ ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره ، وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن

الرجل لو قال للرسول : هذا القرآن الذي تلقيه علينا ، والحكمة التي جئتنا بها ، قد تضمن كل منهما اشياء كثيرة تناقض ماعلمناه بعقولنا ، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا ، فلو قبلنا جميع ماتقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحا في ماعلمنا به صدقك ، فنحن نعتقد موجب الأقوال الناقضة لما ظهر من كلامك ، وكلامك نعرض عنه ، لانتلقى منه هدياً ولا علماً ، لم يكن مثل هذا الرجل مؤمنا بما جاء به الرسول ، ولم يرض منه الرسول بهذا ، بل يعلم أن هذا لو ساغ لأمكن كل احد أن يؤمن بشيء مما جاء به الرسول ، إذ العقول متفاوتة ، والشبهات كثيرة ، والشياطين لاتزال تلقي الوسواس في النفوس ، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا في كل ما أخبر به الرسول وما أمر به ! ! وقد قال تعالى : (وما على الرسول إلا البلاغ) النور : ٥٤ . وقال : (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) النحل : ٣٥ . وقال تعالى : (وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) ابراهيم : ٤ . (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) المائدة : ١٥ . (حم والكتاب المبين) الدخان : ١ ــ ٢ ، والزخرف : ١ــ٢ . (تلك آيات الكتاب المبين) يوسف : ٢ . (ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) يوسف : ١١١ . (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) النحل : ٨٩ . ونظائر ذلك كثيرة في القرآن . فأمر الإيمان بالله واليوم الآخر : إما أن يكون الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق ام لا ؟ الثاني باطل ، وإن كان قد تكلم / بما يدل / على الحق بألفاظ مجملة محتملة . فما بلّغ البلاغ المبين ، وقد شهد له خير القرون بالبلاغ ، وأشهد الله عليهم فى الموقف الأعظم ، فمن يدعي أنه في اصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين ، فقد افترى عليه صلى الله عليه وسلم .

قوله : (فمن رام علم ما حظر عنه علمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمه ، حجبه مرامه عن خالص التوحيد ، وصافي المعرفة ، وصحيح الايمان .) .

ش : هذا تقرير للكلام الاول ، وزيادة تحذير أن يتكلم في اصول الدين -بل

وفي غيرها- بغير علم . وقال تعالى : (ولاتقف ماليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا) الاسراء : ٣٦ . وقال تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه الى عذاب السعير) الحج : ٣-٤ . وقال تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) الحج : ٨-٩ . وقال تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين) القصص : ٥٠ . وقال تعالى : (إن يتبعون الا الظن وماتهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى) النجم : ٢٣ . الى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى .

وعن ابي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا اوتوا الجدل » ثم تلا : (ماضربوه لك إلا جدلا) »(١) الزخرف : ٥٨ . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن . وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان أبغض الرجال الى الله الألد الخصم »(٢) . خرجاه في « الصحيحين » .

ولاشك أن من لم يسلم للرسول نقص توحيده ، فإنه يقول برأيه وهواه ، ويقلد ذا رأي وهوى بغير هدى من الله ، فينقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول ، فانه قد اتخذه في ذلك إلها غير الله . قال تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) الفرقان : ٤٣ . أي : عبد ماتهواه نفسه . وإنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق ، كما قال عبد الله بن المبارك رحمة الله عليه :

---

(١) حسن كما قال الترمذي .

(٢) صحيح ، متفق عليه .

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة، ويعارضونها بها، ويقدمونها على حكم الله ورسوله. وأحبار السوء، وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة، المتضمنة تحليل ماحرم الله ورسوله، وتحريم ماأباحه، واعتبار ماألغاه، وإلغاء مااعتبره، واطلاق ماقيده، وتقييد ماأطلقه، ونحو ذلك. والرهبان وهم جهال المتصوفة، المعترضون على حقائق الإيمان والشرع، بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، والتعوض عن حقائق الايمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس. فقال الأولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة! وقال الآخرون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل! وقال أصحاب الذوق اذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف.

ومن كلام أبي حامد الغزالي رحمه الله في كتابه الذي سماه « إحياء علوم الدين » وهو من أجل كتبه، أو أجلها: « فإن قلت: فعلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم او هو مباح او مندوب اليه، فاعلم ان للناس في هذا غلواً وإسرافا في أطراف. فمن قائل: انه بدعة وحرام، وان العبد أن يلقى الله بكل ذنب سوى الشرك خير له من ان يلقاه بالكلام. ومن قائل: إنه فرض، إما على الكفاية، واما على الاعيان، وانه أفضل الأعمال وأعلى القربات، فانه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله. قال: وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أئمة الحديث من السلف » وساق الالفاظ عن هؤلاء. قال: وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا. لا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات

فيه ، قالوا : ما سكت عنه الصحابة - مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم - إلا لما يتولد منه من الشر . وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : « هلك المتنطعون »(١) . أي المتعمقون في البحث والاستقصاء . واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثني على أربابه . ثم ذكر بقية استدلالهم ، ثم ذكر استدلال الفريق الآخر . إلى أن قال : فان قلت : فما المختار عندك ؟ . فأجاب بالتفصيل ، فقال : فيه منفعة ، وفيه مضرة : فهو في وقت الانتفاع حلال أو مندوب أو واجب ، كما يقتضيه الحال . وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام . قال : فأما مضرته ، فاثارة الشبهات ، وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم ، وذلك مما يحصل بالابتداء . ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الأشخاص . فهذا ضرورة في اعتقاد الحق ، وله ضــرر في تأكيد اعتقاد البدعة ، وتثبيتها في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصــرار عليه ، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل . قال : وأما منفعته ، فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيئتها ، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف . قال : وهذا اذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعــداء ما جهلوا ، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ، ثم قاله بعد حقيقة الخــبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك الى التعمق في علوم أخر ســوى نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق الى حقائق المعرفة من هــذا الوجه مسدود . ولعمري لاينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الامور ، ولكن على الندور . انتهى ما نقلته عن الغزالي رحمه الله .

وكلام مثله في ذلك حجة بالغة ، والسلف لم يكرهوه لمجرد كونه اصطلاحا

---

(١) مسلم .

جديداً على معان صحيحة ، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة ، ولا كرهوا أيضا الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل ، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق . ومن ذلك : مخالفتها للكتاب والسنة وما فيه من علوم صحيحة ، فقد وعروا الطريق الى تحصيلها ، وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها ، فهي لحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقى. وأحسن ما عندهم فهو في القرآن أصح تقريرا ، وأحسن تفسيرا ، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد .

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك ، والفاضل الذي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك .

ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين . بل الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الاصل ، ويتدبر معناه ويعقله ، ويعرف برهانه ودليله العقلي والخبري السمعي ، ويعرف دلالته على هذا وهذا ، ويجعل اقوال الناس التي توافقه وتخالفه متشابهة مجملة ، فيقال لأصحابها : هذه الألفاظ تحتمل كذا وكذا ، فان ارادوا بها مايوافق خبر الرسول قبل ، وان ارادوا بها ما يخالفه رد . وهذا مثل لفظ المركب والجسم والتحيز والجوهر والجهة والحيز والعرض ، ونحو ذلك . فان هذه الألفاظ لم تأت في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده اهل الاصطلاح ، بل ولا في اللغة ، بل هم يخصون بالتعبير بها عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها ، فتفسر تلك المعاني بعبارات اخر ، وينظر مادل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية ، واذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل .

وسبب الإضلال الاعراض عن تدبر كلام الله وكلام رسوله ، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة . وإنما سمي هؤلاء أهل الكلام ، لأنهم لم يفيدوا علما لم يكن معروفاً ، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد ، وهو مايضربونه من القياس لإيضاح ما علم بالحس ، وإن كان هذا القياس وأمثاله ينتفع به في موضع آخر ، ومع

من ينكر الحس . وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته - مع وجود النص، أوعارض النص بالمعقول - فقد ضاهى ابليس ، حيث لم يسلم لأمر ربه ، بل قال : (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) الاعراف : ١١ . وقال تعالى : (من يطع الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) النساء : ٨٠ . وقال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) آل عمران : ٣١ . وقال تعالى : (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) النساء : ٦٥ . اقسم سبحانه بنفسه انهم لايؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليما.

قوله : (فيتذبذب بين الكفر والايمان ، والتصديق والتكذيب ، والاقرار والانكار ، موسوسا تائها ، شاكا ، لامؤمنا مصدقا ، ولا جاحدا مكذبا) .

ش : يتذبذب : يضطرب ويتردد . وهذه الحالة التي وصفها الشيخ رحمه الله حال كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم ، او اراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة ، وعند التعارض يتأول النص ويرده الى الرأي والآراء المختلفة ، فيؤول امره الى الحيرة والضلال والشك ، كما قال ابن رشد الحفيد ، وهو من اعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم ، في كتابه « تهافت التهافت » : « ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به ؟ » . وكذلك الآمدي ، افضل اهل زمانه ، واقف في المسائل الكبار حائر . وكذلك الغزالي رحمه الله ، انتهى آخر امره الى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية ، ثم اعرض عن تلك الطرق واقبل على احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فمات والبخاري على صدره . وكذلك ابو عبدالله محمد بن عمر الرازي ، قال في كتابه الذي صنفه : / اقسام / اللذات :

نهاية إقدام العقول عِقال	وغاية سعي العالمين ضَلال
وأرواحنا في وَحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه : قيل وقالوا

فكم قد رأينا من رجال ودولة
فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها
رجالٌ ،فزالوا والجبالُ جبالُ

لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، إقرأ فى الإثبات : (الرحمن على العرش استوى) طه : ٥ . (إليه يصعد الكلم الطيب) فاطر : ١٠ . وإقرأ فى النفي : (ليس كمثله شيء)الشورى : ١١ . (ولايحيطون به علما) طه : ١١٠. ثم قال : « ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي » . وكذلك قال الشيخ أبو عبدالله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم ، حيث قال :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها
وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر
على ذقن أو قارعاً سن نادم

وكذلك قال أبو المعالي الجويني : ياأصحابنا لاتشتغلوا بالكلام ، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى مابلغ مااشتغلت به . وقال عند موته : لقد خضت البحر الخضم ، وخليت اهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت في الذي نهوني عنه ، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي ، او قال : على عقيـــدة عجائز نيسابور . وكذلك قال شمس الدين الخسرو شاهي ، وكان من اجل تلامذة فخر الدين الرازي ، لبعض الفضلاء ، وقـــد دخل عليه يوما ، فقال : ماتعتقده ؟ قال : مايعتقده المسلمون ، فقال : وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به ؟ او كما قال ، فقال : نعم ، فقال : اشكر الله على هذه النعمة، لكني والله ماادري مااعتقد ،والله ماادري مااعتقد ، والله ماأدري ماأعتقد، وبكى حتى أخضل لحيته .

وقال الخوفجي عند موته : ماعرفت مما حصلته شيئا سوى أن الممكن يفتقر

إلى المرجح ، ثم قال : الأفتقار وصف سابي ، أموت وماعرفت شيئا . وقال آخر : أضطجع على فراشي وأضع اللحفة على وجهي ، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ، ولم يترجح عندي منها شيء .

ومن يصل الى مثل هذه الحال إن لم يتدارك الله برحمته والا تزندق ، كما قال ابو يوسف : من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب . وقال الشافعي رحمه الله : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واقبل على الكلام وقال : لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ماظننت مسلما يقوله ، ولأن يبتلى العبد بكل مانهى الله عنه - ماخلا الشرك بالله - خير له من أن يبتلى بالكلام . انتهى .

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع الى مذهب العجائز ، فيقر بما أقروا به ، ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك ، التي كان يقطع بها ، ثم تبين له فسادها ، أو لم يتبين له صحتها ، فيكونون في نهاياتهم - اذا سلموا من العذاب - بمنزلة أتباع اهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب .

والدواء النافع لمثل هذا المرض ، ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله - اذا قام من الليل يفتتح الصلاة - : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك ، انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم »(١) . اخرجه مسلم . توجه صلى الله عليه وسلم الى ربه بربوبية جبرائيل وميكائيل واسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق باذنه ، إذ حياة القلب بالهداية . وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة : فجبرائيل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب ، وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان ،

---

(١) صحيح ، ورواه ابو عوانة أيضاً في « صحيحه » .

وسائر الحيوان ، واسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح الى أجسادها . فالتوسل الى الله سبحانه بربوبية هذه الارواح العظيمة الموكلة بالحياة ، اه تأثير عظيم في حصول المطلوب . والله المستعان .

قوله : (ولايصح الايمان بالرؤية لاهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم او تأولها بفهم ، اذ كان تأويل الرؤية - وتأويل كل معنى يضاف الى الرؤية - بترك التأويل ، ولزوم التسليم ، وعليه دين المسلمين ، ومن لم يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه) .

ش : يشير الشيخ رحمه الله الى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم في نفي الرؤية ، وعلى من يشبه الله بشيء من مخلوقاته . فان النبي صلى الله عليه وسلم قال « انكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر »(١) ،الحديث : أدخل « كاف »التشبيه على « ما » المصدرية / او / الموصولة بترون التي تتأول مع صلتها الى المصدر الذي هو الرؤية ، فيكون التشبيه في الرؤية لافي المرئي . وهذا بين واضح في أن المراد اثبات الرؤية وتحقيقها ، ودفع الاحتمالات عنها . وماذا بعد هذا البيان وهذا الإيضاح ؟ ! فاذا ساط التأويل على مثل هذا النص ، كيف يستدل بنص من النصوص ؟! وهل يحتمل هذا النص ان يكون معناه : إنكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة البدر ؟! ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) الفيل : ١ . ونحو ذلك مما استعمل فيه « رأى » التي من افعال القاوب !! ولاشك أن « ترى » تارة تكون بصرية ، وتارة تكون قلبية ، وتارة تكون من رؤيا الحلم ، وغير ذلك ، ولكن مايخلو الكلام من قرينة تخلص أصل معانيه من الباقي . وإلا لو أخلى المتكلم كلامه من القرينة المخاصة لأحد المعاني لكان مجملا ملغزا ، لامبينا موضحاً . وأي بيان وقرينة فوق قوله : « ترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب » ؟ فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر ،

(١) متفق عليه ، وقد تقدم .

أو برؤية القلب ؟ وهل يخفى مثل هذا إلا على من أعمى الله قلبه ؟ !

فإن قالوا : الجأنا إلى هذا التأويل حكم العقل بأن رؤيته تعالى محال لايتصور إمكانهـا .

فالجواب : أن هـذه دعوى منكم ، خالفكم فيها أكثر العقلاء ، وليس في العقل ما يحيلها ، بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم بأن هذا محال .

وقوله : « لمن اعتبرها منهم بوهم » ، اي توهم أن الله تعالى يرى على صفة كذا ، فيتوهم تشبيها ، ثم بعد هذا التوهم ـ ان اثبت ما توهمه من الوصف ـ فهو مشبه ، وان نفى الرؤية من اصلها لأجل ذلك التوهم ـ فهو جاحد معطل . بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده ، ولا يعم بنفيه الحق والباطل ، فينفيهما رداً على من أثبت الباطل ، بل الواجب رد الباطل واثبات الحق .

والى هذا المعنى اشار الشيخ رحمه الله بقوله : « ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه » ، فإن هؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم ينزهون الله بهذا النفي ! وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال ؟ فإن نفي الرؤية ليس بصفة كمال ، إذ المعدوم لايرى ، وإنما الكمال في إثبات الرؤية ونفي إدراك الرائي له ادراك احاطة ، كما في العلم ، فإن نفي العلم به ليس بكمال ، وإنما الكمال في إثبات العلم ونفي الإحاطة به علماً. فهو سبحانه لايحاط به رؤية ، كما لايحاط به علماً .

وقوله : « أو تأولها بفهم » أي ادعى أنه فهم لها تأويلا يخالف ظاهرها ، وما يفهمه كل عربي من معناها ، فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل: أنه صرف اللفظ عن ظاهره ، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص ، وقالوا : نحن نتأول مايخالف قولنا ، فسموا التحريف : تأويلا ، تزييناً له وزخرفة ليقبل ، وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل ، قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً) الانعام : ١١٢ ،

والعبرة للمعاني لا للألفاظ . فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق . وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم : « لاندخل في ذلك متأولين بآرائنا ، ولا متوهمين بأهوائنا » . ثم أكد هذا المعنى بقوله : « اذا كان تأويل الرؤيـة ـ وتأويل كل معنى يضاف الى الربوبية ـ : بترك التأويل ، ولزوم التسليم ، وعليه دين المسلمين » . ومراده ترك التأويل / الذي / يسمونه تأويلا ، وهو تحريف . ولكن الشيخ رحمه الله تأدب وجادل بالتي هي احسن ، كما امر الله تعالى بقوله : (وجادلهم بالتي هي احسن) النحل : ١٢٥ . وليس مراده ترك كل مايسمى تأويلا ، ولا ترك شيء من الظواهر لبعض الناس لدليل راجح من الكتاب والسنة . وانما مراده ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة ، المخالفة لمذهب السلف ، التي يدل الكتاب والسنة على فسادها ، وترك القول على الله بلا علم .

فمن التأويلات الفاسدة ، تأويل أدلة الرؤية ، وأدلة العلو ، وأنه لم يكلم موسى تكليماً ، ولم يتخذ ابراهيم خليلا !

ثم قد صار لفظ « التأويل » مستعملا في غير معناه الأصلي :

فالتأويل في كتاب الله وسنة رسوله : هو الحقيقة التي يؤول اليها الكلام :

فتأويل الخبر : هو عين المخبر به ، وتأويل الامر : نفس الفعل المأمور به . كما قالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » ، يتأول القرآن(١) . وقال تعالى : (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) الاعراف : ٣٥ . ومنه تأويل الرؤيا ، وتأويل العمل ، كقوله : (هذا تأويل رؤياي من قبل) يوسف : ١٠٠ . وقوله : (ويعلمك من تأويل الأحاديث) يوسف : ٦ . وقوله : (ذلك خير وأحسن تأويلا) النساء : ٥٨ . وقوله : (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) الكهف : ٧٨ ، الى قوله : (ذلك تأويل ما لم

---

(١) متفق عليه .

تسطع عليه صبرا) الكهف : ٨٢ . فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل ، والعلم بما تعلق بالأمر والنهي منه ؟ واما ما كان خبراً ، كالإخبار عن الله واليوم الآخر ،فهذا قد لا يُعلم تأويله ، الذي هو حقيقته ، إذ كانت لا تعلم بمجرد الإخبار ، فان المخبر ان لم يكن قد تصور المخبر به ، او مايعرفه قبل ذلك ـ لم يعرف حقيقته ، التي هي تأويله ، بمجرد الإخبار . وهذا هو التأويل الذي لايعلمه إلا الله . لكن لايلزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطب إفهام المخاطَب إياه ، فما في القرآن آية الا وقد امر الله بتدبرها ، وما انزل آية الا وهو يحب ان يعلم ماعنى بها ، وان كان من تأويله ما لايعلمه الا الله. فهذا معنى التأويل فى الكتاب والسنة وكلام السلف ، وسواء كان هذا التأويل موافقاً للظاهر او مخالفاً له .

والتأويل في كلام كثير من المفسرين ، كابن جرير ونحوه ، يريدون به تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره او خالف ، وهذا اصطلاح معروف . وهذا التأويل كالتفسير ، يحمد حقه ، ويُرد باطله . وقوله تعالى : (ومايعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم) آل عمران : ٧ ، الآية ـ فيها قراءتان : قراءة من يقف على قوله (الا الله) ، وقراءة من لايقف عندها ،وكلتا القراءتين حق .ويراد بالأولى المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله .ويراد بالثانية المتشابه الإضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره ، وهو تأويله. ولايريد من وقف على قوله (الا الله) ان يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى ، فان لازم هذا ان يكون الله انزل على رسوله كلاماً لايعلم معناه جميع الأمة ولا الرسول ، ويكون الراسخون في العلم لاحظ لهم في معرفة معناها سوى قولهم : (آمنا به كل من عند ربنا) آل عمران : ٧ . وهذا القدر يقوله غير الراسخ في العلم من المؤمنين ، والراسخون في العلم يجب امتيازهم عن عوام المؤمنين في ذلك . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : انا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله . ولقد صدق رضي الله عنه ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا له وقال : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه

التأويل »(١) . رواه البخاري وغيره. ودعاؤه صلى الله عليه وسلم لا يرد .قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس ، من أوله الى آخره ، أقفه عند كل آية واسأله عنها . وقد تواترت النقول عنه انه تكلم في جميع معاني القرآن ، ولم يقل عن آية إنها من المتشابه الذي لايعلم احد تأويله الا الله .

وقول الأصحاب رحمهم الله في الأصول : المتشابه : الحروف المقطعة في اوائل السور ، ويروى هذا عن ابن عباس . مع أن هذه الحروف قد تكلم في معناها اكثر الناس ، فإن كان معناها معروفاً ، فقد عرف معنى المتشابه ، وإن لم يكن معروفا ، وهي المتشابه ، كان ماسواها معلوم المعنى ، وهذا المطلوب .

وايضا فإن الله قال : (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) آل عمران : ٧ . وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العادّين .

والتأويل فى كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين : هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك . وهذا هو التأويل الذي تنازع الناس فيه في كثير من الأمور الخبرية والطلبية . فالتأويل الصحيح منه : الذي يوافق مادلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد ، وهذا مبسوط في موضعه . وذكر في « التبصرة » أن نصير بن يحيى البلخي روى عن عمرو بن اسماعيل ابن حماد بن ابي يحيى بن محمد بن الحسن رحمهم الله : أنه

(١) صحيح ، رواه احمد (٢٦٦/١ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥) والطبراني في« المعجم الكبير » (٢/٨٤/١) والبيهقي في « دلائل النبوة » والضياء المقدسي في « المختارة» بسند صحيح عن ابن عباس . وأما عزو المصنف اياه للبخاري فوهم ، وانما عنده بلفظ : « اللهم علمه الحكمة » ، وفي لفظ « الكتاب » بدل « الحكمة » ، أخرجه (٣١/١ ، ٤٤٥/٢، ٤٩٩/٤) وهو رواية لأحمد (٢١٤/١ ، ٢٦٩، ٣٥٩)والطبراني، ورواه مسلم (١٥٨/٧) مختصرا بلفظ : « اللهم فقه » . وهو رواية لاحمد(٣٢٧/١) وفي أخرى له (٣٣٠/١) عن ابن عباس قال .... فدعا الله أن يزيدني علما وفهما .

سئل عن الآيات والأخبار التي فيها من صفات الله تعالى مايؤدي ظاهره الى التشبيه؟ فقال : نمرها كما جاءت ، ونؤمن بها ، ولانقول : كيف وكيف . ويجب ان يعلم ان المعنى الفاسد الكفري ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه ، وأن من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه ، وإذا كان قد قيل في قول بعض الناس :

وكم من عائب قولا صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وقيل :

علي نحت القوافي من مقاطعها وما علي لهم أن تفهم البقر

فكيف يقال في قول الله ، الذي هو اصدق الكلام واحسن الحديث ، وهو الكتاب الذي (أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هود : ١ . ان حقيقة قولهم إن ظاهر القرآن والحديث هو الضلال ، وانه ليس فيه بيان مايصلح من الاعتقاد ، ولافيه بيان التوحيد والتنزيه ؟! هذا حقيقة قول المتأولين . والحق ان مادل عليه القرآن فهو حق ، وما كان باطلا لم يدل عليه . والمنازعون يدعون دلالته على الباطل الذي يتعين صرفه !

فيقال لهم : هذا الباب الذي فتحتموه ، وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون به على اخوانكم المؤمنين في مواضع قليلة خفية - : فقد فتحتم عليكم باباً لأنواع المشركين والمبتدعين ، لاتقدرون على سده ، فإنكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي ، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لايسوغ ؟ فإن قلتم : مادل القاطع العقلي على استحالته تأولناه ، وإلا أقررناه ! قيل لكم : وبأي عقل نزن القاطع العقلي ؟ فإن القرمطي الباطني يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع ! ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد ! ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى ، وعلى امتناع قيام علم او كلام او رحمة به تعالى !! وباب التأويلات التي يدعي أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من ان تنحصر في هذا المقام ، ويلزم حينئذ محذوران عظيمان : أحدهما : أن لانقر بشيء

من معاني الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل ! وكل طائفة من المختلفين في الكتاب يدّعون أن العقل يدل على ماذهبوا اليه ، فيؤول الأمر الى الحيرة المحذورة . الثاني : أن القلوب تتخلى عن الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به الرسول ، اذ لايوثق بأن الظاهر هوالمراد ، والتأويلات مضطربة فيلازم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد الى ما انبأ الله به العباد ، وخاصة النبي هي الانباء ، والقرآن هو النبأ العظيم . ولهذا نجد اهل التأويل انما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد ، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دل عليه قبلوه ، وان خالفته اولوه ! وهذا فتح باب الزندقة ، نسأل الله العافية .

قوله : (ومن لم يتوق النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه) .

ش : النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب ، فإن أمراض القلوب نوعان : مرض شبهة ، ومرض شهوة ، وكلاهما مذكور في القرآن ، قال تعالى : (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) الاحزاب : ٣٢ . فهذا مرض الشهوة ، وقال تعالى : (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) البقرة : ١٠ . وقال تعالى : (وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم) التوبة : ١٢٥ . فهذا مرض الشبهة ، وهو أردأ من مرض الشهوة ، اذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة ، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته . والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيهها ، وشبه النفي أردأ من شبه التشبيه ، فإن شبه النفي ردّ وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشبه التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وتشبيه الله بخلقه كفر فإن الله تعالى يقول : (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١ ، ونفي الصفات كفر ، فان الله تعالى يقول : (وهو السميع البصير) الشورى : ١١ . وهذا أصل نوعي التشبيه ، فإن التشبيه نوعان : تشبيه الخالق بالمخلوق ، وهذا الذي يتعب أهل الكلام في رده وإبطاله ، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني ، الذين هم أهل تشبيه المخلوق

بالخالق ، كعباد المشايخ ، وعزير ، والشمس والقمر ، والأصنام ، والملائكة ، والنار ، والماء ، والعجل ، والقبور ، والجن ، وغير ذلك . وهؤلاء هم الذين أرسلت لهم الرسل يدعونهم الى عبادة الله وحده لاشريك له .

قوله : فان ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية ، منعوت بنعوت الفردانية ، ليس في معناه أحد من البرية .

ش : يشير الشيخ رحمه الله إلى تنزيه الرب تعالى بالذي هو وصفه كما وصف نفسه نفياً وإثباتا . وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الإخلاص . فقوله : موصوف بصفات الوحدانية . مأخوذ من قوله تعالى : (قل هو الله أحد . الله الصمد) الاخلاص : ١ - ٢ . وقوله : منعوت بنعوت الفردانية . من قوله تعالى : (الله الصمد . لم يلد ولم يولد) الاخلاص : ٢-٣ . وقوله : ليس في معناه أحد من البرية من قوله تعالى : (ولم يكن له كفواً أحد) الاخلاص : ٤ . وهو أيضا مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفي التشبيه . والوصف والنعت مترادفان ، وقيل : متقاربان . فالوصف للذات ، والنعت للفعل ، وكذلك الوحدانية والفردانية . وقيل في الفرق بينهما : إن الوحدانية للذات ، والفردانية للصفات ، فهو تعالى موحد في ذاته ، منفرد بصفاته . وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد ، ولكن في اللفظ نوع تكرير . وللشيخ نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة ، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد ، والتسجيع (١) بالخطب أليق . و (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١ . أكمل في التنزيه من قوله : ليس في معناه أحد من البرية .

قوله : (وتعالى عن الحدود والغايات ، والأركان والاعضاء والادوات ، لاتحويه الجهات الست كسائر المبتدعات) .

ش : أذكر بين يدي الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة ، وهي : أن

(١) التسجيع ، بالسين المهملة ، يعني : السجع .

الناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال : فطائفة تنفيها ، وطائفة تثبتها ، وطائفة تفصل ، وهم المتبعون للسلف ، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها الا اذا تبين ، ماأثبت بها فهو ثابت ، ومانفي بها فهو منفي . لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمال وابهام ، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية ، فليس كلهم يستعملها في نفس معناها اللغوي . ولهذا كان النفاة ينفون بها حقاً وباطلا ، ويذكرون عن مثبتها مالا يقولون به ، وبعض المثبتين لها يدخل لها معنى باطلا ، مخالفاً لقول السلف ولما دل عليه الكتاب والميزان . ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثباتها ، وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفياً ولا إثباتاً ، وانما نحن متبعون لا مبتدعون .

فالواجب ان ينظر في هذا الباب ، أعني باب الصفات ، فما أثبته الله ورسوله اثبتناه ، وما نفاه الله ورسوله نفيناه . والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي ، فنثبت ما اثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني ، وننفي مانفته نصوصها من الألفاظ والمعاني . وأما الالفاظ التي لم يرد نفيها ولا اثباتها فلاتطلق حتى ينظر في مقصود قائلها : فإن كان معنى صحيحاً قُبل ، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص ، دون الألفاظ المجملة ، إلا عند الحاجة ، مع قرائن تبين المراد والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لايتم المقصود معه ان لم يخاطب بها ، ونحو ذلك .

والشيخ رحمه الله أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة ، كداود الجواربي وامثاله القائلين : إن الله جسم وانه جثة واعضاء وغير ذلك ! تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا . فالمعنى الذي اراده الشيخ رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا حق ، لكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقاً وباطلا ، فيحتاج الى بيان ذلك . وهو : أن السلف متفقون على أن البشر لايعلمون لله حداً ، وأنهم لايحدون شيئاً من صفاته قال ابو داود الطيالسي : كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك

وأبو عوانة - لايحدون ولايشبهون ولايمثلون ، يروون الحديث ولايقولون : كيف
وإذا سئلوا قالوا بالأثر . وسيأتي في كلام الشيخ : وقد أعجز خلقه عن الإحاطة به .
فعلم أن مراده أن الله يتعالى عن ان يحيط أحدٌ بحده ، لأن المعنى أنه متميز عن خلقه
منفصل عنهم مباين لهم . سئل عبدالله بن المبارك : بم نعرف ربنا ؟ قال : بأنه على
العرش ، بائن من خلقه ، قيل : بحد ؟ قال : بحد ، انتهى . ومن المعلوم أن الحد
يقال على ماينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره ، والله تعالى غير حال في خلقه ،
ولاقائم بهم ، بل هو القيوم القائم بنفسه، المقيم لما سواه . فالحد بهذا المعنى لايجوز
ان يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلا ، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفي وجود الرب
ونفي حقيقته . واما الحد بمعنى العلم والقول ، وهو ان يحده العباد ، فهذا منتف بلا
منازعة بين أهل السنة . قال ابو القاسم القشيري في « رسالته » : سمعت الشيخ أبا
عبد الرحمن السلمي ، سمعت أبا منصور بن عبدالله ، سمعت أبا الحسن العنبري ،
سمعت سهل بن عبدالله التستري يقول ، وقد سئل عن ذات الله ؟ فقال : ذات الله
موصوفة بالعلم ، غير مدركة بالإحاطة ، ولامرئية بالأبصار في دار الدنيا ، وهي
موجودة بحقائق الإيمان ، من غير حد ولا إحاطة ولاحلول، وتراه العيون في العقبى
ظاهراً في ملكه وقدرته ، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته
فالقلوب تعرفه ، والعيون لاتدركه ، ينظر اليه المؤمن بالابصار ، من غير احاطة
ولا ادراك نهاية .

واما لفظ الاركان والاعضاء والادوات - فيستدل بها النفاة على نفي بعض
الصفات الثابتة بالأدلة القطعية ، كاليد والوجه . قال ابو حنيفة رضي الله عنه في
« الفقه الاكبر » : له يد ووجه ونفس ، كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه
والنفس ، فهو له صفة بلا كيف ، ولايقال : ان يده قدرته ونعمته ، لأن فيه إبطال
الصفة ، انتهى . وهذا الذي قاله الإمام رضي الله عنه ، ثابت بالأدلة القاطعة : قال
تعالي : (مامنعك أن تسجد لماخلقت بيدي) ص : ٧٥ . (والارض جميعاً قبضته

يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) الزمر : ٦٧ . وقال تعالى : (كل شيء هالك إلا وجهه) القصص : ٨٨ . (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) الرحمن : ٢٧ . وقال تعالى : (تعلم مافي نفسي ولا اعلم ما في نفسك) المائدة : ١١٦ وقال تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) الانعام : ٥٤ . وقال تعالى : (واصطنعتك لنفسي) طه : ٤١ . وقال تعالى : (ويحذركم الله نفسه) آل عمران ٢٨ . وقال صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة لما يأتي الناس آدم فيقولون له : « خلقك الله بيده واسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء »(١) ، الحديث .

ولا يصح تأويل من قال : ان المراد باليد : بالقدرة ، فإن قوله : (لما خلقت بيدي) ص : ٧٥ . لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد ، ولو صح ذلك لقال إبليس : وانا ايضاً خلقتني بقدرتك ، فلا فضل له علي بذلك . فإبليس - مع كفره - كان اعرف بربه من الجهمية . ولا دليل لهم في قوله تعالى : (او لم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاماً فهم لها مالكون) يس : ٧١ . لأنه تعالى جمع الايدي لما أضافها الى ضمير الجمع ، ليتناسب الجمعان ، فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة ولم يقل : « ايدي » مضافاً الى ضمير المفرد ، ولا « يدينا » بتثنية اليد مضافاً الى ضمير الجمع . فلم يكن قوله : (مما عملت ايدينا) نظير قوله : (لما خلقت بيدي) وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل : « حجابه النور ، ولو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه »(٢) .

ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء ، أو جوارح ، أو أدوات ، أو أركان ، لأن الركن جزء الماهية ، والله تعالى هو الأحد الصمد ، لا يتجزأ ، سبحانه وتعالى ، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية(٣) ، تعالى الله عن ذلك ، ومن هذا المعنى

---

(١) صحيح ، اخرجه البخاري (٤ / ٤٥٤ ، ٤٦٤) واحمد (٣ / ١١٦) في حديث الشفاعة من حديث انس ، وسيأتي بلفظ آخر .

(٢) صحيح ، وقد تقدم .

(٣) التعضيه : التقطيع ، وجعل الشيء اعضاء .

قوله تعالى : (الذين جعلوا القرآن عضين) الحجر : ٩١ . والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع . وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع الضرة . وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى ، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى . فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني ، سالمة من الاحتمالات الفاسدة ، فكذلك يجب أن لا يعدل عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً ، لئلا يثبت معنى فاسد ، أو ينفي معنى صحيح : وكل هذه الألفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل .

وأما لفظ الجهة ، فقد يراد به ماهو موجود ، وقد يراد به ماهو معدوم ، ومن المعلوم أنه لاموجود إلا الخالق والمخلوق ، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقاً ، والله تعالى لايحصره شيء ، ولايحيط به شيء من المخلوقات ، تعالى الله عن ذلك . وإن أريد بالجهة أمر عدمي ، وهو مافوق العالم ، فليس هناك إلا الله وحده . فإذا قيل : إنه في جهة بهذا الاعتبار ، فهو صحيح ، ومعناه : أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع ، عال عليه . ونفاة لفظ « الجهة » ، الذين يريدون بذلك نفي العلو يذكرون من أدلتهم : أن الجهات كلها مخلوقة ، وأنه كان قبل الجهات ، وأن من قال إنه في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم ، وأنه كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها . وهذه الألفاظ ونحوها إنما تدل على أنه ليس في شيء من المخلوقات ، سواء سمي جهة او لم يسم ، وهذا حق . ولكن الجهة ليست امراً وجودياً ، بل امر اعتباري ، ولاشك ان الجهات لانهاية لها ، وما لايوجد فيما لانهاية له فليس بموجود .

وقول الشيخ رحمه الله : لاتحويه الجهات الست كسائر المبتدعات . - هو حق ، باعتبار انه لايحيط به شيء من مخلوقاته ، بل هو محيط بكل شيء وفوقه . وهذا المعنى هو الذي اراده الشيخ رحمه الله ، لما يأتي في كلامه : انه تعالى محيط بكل شيء وفوقه . فإذا جمع بين كلاميه ، وهو قوله : لاتحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ، وقوله : محيط بكل شيء وفوقه - عُلم ان مراده ان الله تعالى

لايحويه شيء ، ولايحيط به شيء ، كما يكون لغيره(١) من المخلوقات ، وانه تعالى هو المحيط بكل شيء ، العالي عن كل شيء .

قوله : (والمعراج حق ،وقداسري بالنبي صلى الله عليه وسلم وعرج بشخصه في اليقظة ، الى السماء ، ثم الى حيث شاء الله / من العلا / ، واكرمه الله بما شاء ، واوحى اليه ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى . فصلى الله عليه وسلم في الآخرة والاولى) .

ش : « المعراج » : مفعال ، من العروج(٢) ، أي الآلة التي يعرج فيها ،أي يصعد ، وهو بمنزلة السلم ، لكن لايعلم كيف هو ، وحكمه كحكم غيره من المغيبات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته .

وقوله : وقد اسري بالنبي صلى الله عليه وسلم / وعرج / بشخصه في اليقظة - اختلف الناس في الإسراء .

فقيل : كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده ، نقلـه ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية رضي الله عنهما ، ونقل عن الحسن البصري نحوه . لكن ينبغي أن يعرف الفرق بين ان يقال : كان الإسراء مناماً ، وبين أن يقال : كان بروحه دون جسده وبينهما فرق عظيم . فعائشة ومعاوية رضي الله عنهما لم يقولا كان مناماً ، وإنما قالا أسري بروحه ولم يفقـد جسده ، وفرق مابين الأمرين : / أن / مايراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة ، فيرى كأنه قد عرج الى السماء وذهب به الى مكة ، وروحه لم تصعد ولم تذهب ،وانما ملك الرؤيا ضرب له المثال. فما اراد(٣) ان الإسراء منامـاً ، وإنمـا أراد أن الروح ذاتها أسـري بهـا ، ففارقت الجسد ثم عادت اليـه ، ويجعلان هذا من خصائصه ، فإن غيره لاتنال

(١) في الاصل : بغيره .
(٢) في الاصل : المعروج .
(٣) قوله : « فما اراد»- يعني عائشة ومعاوية.وهو كلام فاسد ، لامعنى له .

ذات روحه الصعود الكامل الى السماء إلا بعد الموت .

وقيل : كان الإسراء مرتين ، مرة يقظة ومرة مناماً . وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله : « ثم استيقظت » ، وبين سائر الروايات . وكذلك منهم من قال : بل كان مرتين ، مرة قبل الوحي ، ومرة بعده ومنهم من قال : بل ثلاث مرات ، مرة قبل الوحي ، ومرتين بعده . وكلما اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة ، للتوفيق !! وهذا يفعله ضعفاء اهل الحديث وإلا فالذي عليه أئمة النقل : أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة ، بعد البعثة ، قبل الهجرة بسنة، وقيل : بسنة وشهرين ، ذكره ابن عبد البر . قال شمس الدين ابن القيم : ياعجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً ! كيف ساغ لهم ان يظنوا أنه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين ، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً ، فيقول : « أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي » ، ثم يعيدها في المرة الثانية الى خمسين ، ثم يحطها الى خمس ؟! وقد غلط الحفاظ شريكاً في الفـاظ من حديث الاسراء ، ومسلم اورد المسند منه ، ثم قال : « فقدم وأخر وزاد ونقص » . ولم يرد الحديث واجاد رحمه الله . انتهى كلام الشيخ شمس الدين / رحمه الله / .

وكان من حديث الإسراء : أنه صلى الله عليه وسلم أسري بجسده في اليقظة على الصحيح ، من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، راكباً على البراق ، صحبة جبرائيل عليه السلام ، فنزل هناك ، وصلى بالأنبياء إماماً ، وربط البراق بحلقة باب المسجد . وقد قيل : انه نزل بيت لحم وصلى فيه ، ولايصح عنه ذلك البتة . ثم عرج من بيت المقدس تلك الليلة الى السماء الدنيا ،فاستفتح له جبرائيل ، ففتح لهما ،فرأى هناك آدم ابا البشر ، فسلم عليه ، فرحب به ورد عليـه السلام ، وأقر بنبوته ، ثم عُرج / به / الى السماء الثانية . فاستفتح له ، فرأى فيها يحيى ابن زكريا وعيسى بن مريم ، فلقيهما ، فسلم عليهما ، فردا عليه السلام ، ورحبا به ، وأقرا بنبوته ، ثم عرج به / الى السماء الثالثة ، فرأى فيها يوسف ، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته ، ثم

عرج / به / الى السماء الرابعة ، فرأى فيهـا إدريس ، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته ، ثم عرج / به / الى السماء الخامسة ، فرأى فيهـا هارون بن عمران ، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته ، ثم عرج به الى السماء السادسة ، فلقي فيها موسى فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته ، فلما جاوزه بكى موسى ، فقيل له : مايبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته اكثر مما يدخلهـا من أمتي ، ثم عرج به الى السماء السابعة ، فلقي فيها ابراهيم ، فسلم عليه ورحب به وأقر بنبوته ، ثم رفع الى سدرة المنتهى ، ثم رفع له البيت المعمور ، ثم عرج به الى الجبار ، جل جلاله وتقدست أسماؤه ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين او ادنى ، فأوحى الى عبده ما أوحى ، وفرض عليه خمسين صلاة ، فرجع حتى مر على موسى ، فقال : بمَ أمرت ؟ قال : بخمسين صلاة ، فقال : / إن / أمتك لاتطيق ذلك ، ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فالتفت الى جبرائيل كأنه يستشيره في ذلك ، فأشار أن نعم ، إن شئت ، فعلا به جبرائيل حتى أتى به / الى / الجبار تبارك وتعالى وهو في مكانه ـ هذا لفظ البخاري في صحيحه وفي بعض الطرق ـ فوضع عنه عشراً ، ثم نزل حتى مر بموسى ، فأخبره ، فقال : ارجع الى ربك فاسأله التخفيف ، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى ، حتى جعلها خمساً ، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف ، فقال : قد استحييت من ربي ، ولكن أرضى واسلم ، فلما نفذ نادى مناد : قد أمضيتُ فريضتي وخففت عن عبادي(١) .

وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة في رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه عزوجل

---

(١) حديث الإسراء صحيح ، وهو ملتقط من احاديث متفرقة ، غير أن الدنو المذكور في هذا السياق هو من رواية شريك بن عبدالله بن أبي نمر الذي غلطه الحفاظ في الفاظ من حديث الإسراء كما ذكر المؤلف آنفاً ، ومن ذلك هذا اللفظ كما بينه الحافظ ابن كثير في تفسير (الاسراء) .

بعين رأسه ، وأن الصحيح أنـه رآه(١) بقلبـه ، ولم يره بعين رأسه ، وقوله : (ما كذب الفؤاد مارأى) النجم : ١١ ، (ولقد رآه نزلة اخرى) النجم : ١٣ ، صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا المرئي / جبرائيـل / ، رآه مرتين على صورته التي خلق عليها(٢) .

وأما قوله تعالى في سورة النجم : (ثم دنى فتدلى) ، فهو غير الدنو والتدلي المذكورين في قصة الإسراء ، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه ، كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما ، فإنه قال : (علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى) النجم : ٥ ـ ٨ . فالضمائر كلها راجعة الى هذا المعلم الشديد القوى ، وأما الدنو والتدلي الذي في حديث الإسراء ، فذلك صريح في أنه دنو الرب تعالى وتدليه(٣) . وأما الذي في سورة النجم : أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ،فهذا هو جبرائيل، رآه مرتين ، مرة في الارض ومرة عند سدرة المنتهى .

ومما يدل على ان الإسراء بجسده في اليقظـة ، قوله تعالى : (سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى) الاسـراء : ١ . والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح ، كما ان الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح ، هذا هو المعروف عند الإطلاق ، وهو الصحيح . فيكون الإسراء بهذا المجموع ، ولايمتنع ذلك عقلا ، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة ، وذلك يؤدي الى إنكار النبوة وهو كفر .

فإن قيل : فما الحكمة في الاسـراء الى بيت المقدس اولا ؟ فالجواب ـ والله اعلم ـ : ان ذلك كان اظهاراً لصدق دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم المعراج

---

(١) في الاصل : رأى .

(٢) متفق عليه .

(٣) لكن في ثبوته نظر كما تقدم في الصفحة (٩٣) .

حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم واخبرهم عن عيرهم التي مر عليها في طريقه ، ولو كان عروجه الى السماء من مكة لما حصل ذلك ، إذ لايمكن أطلاعهم على مافي السماء لو اخبرهم عنه ، وقد اطلعوا على بيت المقدس ، فأخبرهم بنعته .

قوله : (والحوض ـ الذي اكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته ـ حق) .

ش : الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً ، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير ، تغمده الله برحمته ، في آخر تاريخه الكبير ، المسمى بـ « البداية والنهاية » . فمنها : مارواه البخاري رحمه الله تعالى ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن قدر حوضي كما بين أيلة الى صنعاء من اليمن ، وان فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء »(١) . وعنه ايضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليردن علي ناس من أصحابي ، حتى اذا عرفتهم اختُلجوا دوني، فأقول أصحابي ، فيقول : لاتدري ما أحدثوا بعدك » (٢) . رواه مسلم . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ، قال : « أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اغفاة ، فرفع رأسه مبتسما ، إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه أنزلت علي آنفاً سورة ، فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر) الكوثر : ١ ، حتى ختمها ، ثم قال لهم : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله اعلم ، قال : هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة ، عليه خير كثير ،

(١) صحيح ، وروى منه احمد (٣ / ٢٢٥ ، ٢٣٨) بإسنادين صحيحين الشطر الثاني وزاد في أحدهما « أباريق الذهب والفضة » وهو رواية لمسلم ، ورواه البخاري أيضاً (٤ / ٢٤٨) بتمامه .

(٢) صحيح ، ورواه البخاري أيضاً (٤ / ٢٤٨ ، ٢٤٩) فلو عزاه اليه المؤلف لكان أولى ، فان اللفظ له ، ولفظ مسلم (٧ / ٧٠ ـ ٧١) بنحوه .

تردُ عليه امتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يُختلج العبد منهم ، فأقول : يارب إنه من أمتي ، فيقال لي : انك لاتدري ما أحدثوا بعدك »(١) . ورواه مسلم ، ولفظه « هو نهر وعدنيه ربي ، عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة » ، والباقي مثله . ومعنى ذلك أنـــه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر الى الحوض ، والحوض في العرصات قبل الصراط ، لأنه يختلج عنه ، ويمنع منه ، أقوام قد ارتدوا على أعقابهم ، ومثل هؤلاء لايجاوزون الصراط وروى البخاري ومسلم عن جندب بن عبدالله البجلي ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا فَرَطكم على الحوض »(٢) . والفرَط : الذي يسبق الى الماء . وروى البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني فرطكم على الحوض ، من مر عليّ شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفونني ، ثم يحال بيني وبينهم »(٣) . قال ابو حازم : فسمعني النعمان بن ابي عياش فقال : هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت : نعم . فقال : أشهد على أبي سعيد الخدري ، سمعتـــه وهو يزيد : فأقول : « إنهم من أمتي » فقال : إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك . فقال : « سُحقاً سحقاً لمن غير بعدي » . سحقاً : أي بعداً .

والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض : أنه حوض عظيم ومورد كريم ، يمد من شراب الجنـــة ، من نهر الكوثر ، الذي هو أشد بياضاً من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأطيب ريحاً من المسك ، وهو في غاية الاتساع ، عرضه وطوله ســواء ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر . وفي بعض الأحاديث : أنه كلما شرب منه وهو فى زيادة واتساع ، وأنه ينبت في خلاله من

---

(١) صحيح ، وهو في « المسند » (٣ / ١٠٢) بسند صحيح على شرط مسلم ، وقد أخرجه في « صحيحه » كما ذكر المؤلف .

(٢) صحيح ، متفق عليه .

(٣) صحيح ، ورواه مسلم أيضاً (٧ / ٦٦) .

المسك والرضراض من اللؤلؤ / و/ قضبان الذهب ، ويثمر ألوان الجواهر ،فسبحان الخالق الذي لايعجزه شيء . وقد ورد في احاديث ان لكل نبي حوضاً ، وأن حوض نبينا صلى الله عليه وسلم أعظمها وأحلاها واكثرها وارداً . جعلنا الله منهم بفضله و كرمه(١) .

قال العلامة ابو عبدالله القرطبي / رحمه الله / في « التذكرة » : واختلف في الميزان والحوض : أيهما يكون قبل الآخر ؟ فقيل : الميزان ، وقيل : الحوض . قال ابو الحسن القابسي : والصحيح ان الحوض قبل . قال القرطبي : والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشا من قبورهم ، كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط . قال ابو حامد الغزالي رحمه الله، في كتاب كشف علم الآخرة : حكى بعض السلف من اهل التصنيف ، أن الحوض يورد بعد الصراط ، وهو غلط من قائله . قال القرطبي : هو كما قال ، ثم قال القرطبي : ولايخطر ببالك أنه في هذه الأرض ، بل في الأرض المبدلة ، أرض بيضاء كالفضة، لم يسفك فيها دم ، ولم يظلم على ظهرها احد قط ، تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء . انتهى . فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض ،وأخلق بهم ان يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر.

---

(١) ضعيف ، وحديث حوض نبينا صلى الله عليه وسلم له طرق كثيرة متواترة ولم اجد في شيء منها « ان لكل نبي حوضاً » ،اللهم الا في حديث سمرة بن جندب أخرجه الترمذي (٢ / ٦٧ - طبع الهند)وصفه بقوله : « غريب »ثم ذكر انه ورد مرسلاوقال : « وهو اصح » ورواه الطبراني ايضاً كما في« المجمع » (١٠ / ٣٦٣) وقال : « وفيه مروان بن جعفر السمري وثقه ابن ابي حاتم ،وقال الازدي يتكلمون فيه ، وبقية رجاله ثقات » .

قوله : (والشفاعة التي ادخرها لهم حق ، كما روي في الأخبار) .

ش : الشفاعة انواع : منها ماهو متفق عليه بين الأمة ، ومنها ماخالف فيه المعتزلة ونحوهم من اهل البدع .

النوع الأول : الشفاعة الاولى ، وهي العظمى ، الخاصة بنبينا صلى الله عليه وسلم من بين سائر إخوانه من الانبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم اجمعين . في « الصحيحين » وغيرهما عن جماعة من الصحابة ، رضي الله عنهم اجمعين ، أحاديث الشفاعة .

منها : عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : « أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم ، فدفع اليه منها الذراع ، وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة ، ثم قال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون لمَ ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد / واحد / ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون الى ما انتم فيه ؟ الاترون الى ماقد بلغكم ؟ الا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض ابوكم آدم ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم ، انت ابو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، فاشفع لنا الى ربك ، الا ترى الى مانحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي ، / نفسي نفسي / ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون : يانوح ، أنت أول الرسل الى أهل الارض ، وسماك الله عبداً شكورا ، فاشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى مانحن فيه ؟ ألا ترى ماقد بلغنا ؟ فيقول نوح : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي نفسي ، نفسي / نفسي نفسي / ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى إبراهيم ، فيأتون ابراهيم ، فيقولون : ياابراهيم ، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، ألا ترى / الى / مانحن فيه ؟ ألا ترى ماقد بلغنا ؟ فيقول : ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي نفسي / نفسي نفسي / ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى موسى ،

فيأتون موسى : فيقولون : ياموسى ، أنت رسول الله ، اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ؟ ألا ترى ماقد بلغنا؟ فيقول لهم موسى : ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قتلت نفسا لم أومر بقتلها ، نفسي نفسي / نفسي نفسي / ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : ياعيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، قال : هكذا هو ، وكلمت الناس في المهد، فاشفع لنا الى ربك ، ألا ترى / الى / مانحن فيه؟ ألا ترى ماقد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى : ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده / مثله ولم يذكر له ذنبا / ، اذهبوا الى غيري ،، اذهبوا الى محمد صلى الله عليه وسلم، فيأتوني ، فيقولون : يامحمد ، أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، غفر الله لك ذنبك ، ماتقدم منه وما تأخر ، فاشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى مانحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم ، فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي عز وجل ، ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ، فيقال : يامحمد، ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع تُشفّع ، فأقول : / يا / رب أمتي أمتي ، / يارب أمتي أمتي ، يا رب أمتي أمتي / ، فيقول : أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب ، ثم قال: والذي نفسي بيده ، لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى »(1) . أخرجاه في « الصحيحين » بمعناه ، واللفظ للإمام أحمد .

والعجب كل العجب ، من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه ، لايذكرون أمر الشفاعة الأولى ، في مأتى الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء ، كما ورد هذا في حديث الصّور(2) ، فإنه المقصود في هذا المقام ، ومقتضى سياق أول

---

(1) صحيح ، وهو في « المسند » (2 / 435) بسند « الصحيحين » .

(1) يأتي ذكر خلاصته في الكتاب قريبا .

الحديث ، فان الناس إنما يستشفعون الى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم ، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه ، فإذا وصلوا الى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة فى عُصاة الأمة وإخراجهم من النار . وكان مقصود السلف ـ في الاقتصار على هذا المقدار من الحديث ـ هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها ، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم ، فيما ذهبوا اليه من البدعة المخالفة للأحاديث . وقد جاء التصريح بذلك في حديث الصور ، ولولا خوف الإطالة لسقته بطوله ، لكن من مضمونه : أنهم يأتون آدم ثم نوحا ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم يأتون رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فيذهب فيسجد تحت العرش في مكان يقال له الفحص ، فيقول الله : ما شأنك ؟ وهو أعلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقول : يا رب ، وعدتني الشفاعة ، فشفعني في خلقك ، فاقض بينهم ، فيقول سبحانه وتعالى : شفعتك ، أنا آتيكم فأقضي بينهم ، قال : فأرجع فأقف مع الناس ، ثم ذكر انشقاق السموات ، وتنزل الملائكة في الغمام ، ثم يجيء الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء ، والكروبيون والملائكة المقربون يسبحون بأنواع التسبيح ، قال : فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه ، ثم يقول : إني أنصتُ لكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا أسمع أقوالكم ، وأرى أعمالكم ، فأنصتوا إليّ ، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، الى أن قال : فإذا أفضى أهل الجنة الى الجنة ، قالوا : من يشفع لنا الى ربنا فندخل الجنة ؟ فيقولون : من أحق بذلك من أبيكم ، إنه خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، /و كلمه/ قُبُلا ، فيأتون آدم ، فيطلبون(١) ذلك إليه ، وذكر نوحاثم ، ابراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ثم محمداً صلى الله عليه وسلم ... الى أن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) في الاصل : فيطلب .

« فآتي الجنة ، فآخذ بحلقة الباب ، ثم استفتح ، فيفتح لي ، فأحيّا ويرحب بي ، فإذا دخلت الجنة فنظرت الى ربي عز وجل خررت له ساجداً ، فيأذن لي من حمده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه ، ثم يقول الله لي : ارفع يا محمد ، واشفع تشفع ، وسل تعطه ، فاذا رفعت رأسي ، قال الله - وهو أعلم - : ما شأنك ؟ فأقول : يا رب : وعدتني الشفاعة ، فشفعني في أهل الجنة يدخلون الجنة ، فيقول الله عز وجل : قد شفعتك ، وأذنت لهم في دخول الجنة »(١) ، الحديث . رواه الأئمة : ابن جرير في تفسيره ، والطبراني ، وأبو يعلى الموصلي ، والبيهقي وغيرهم :

النوع الثاني والثالث من الشفاعة : شفاعته صلى الله عليه وسلم في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة ، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم الى النار ، ان لايدخلونها .

النوع الرابع : شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم . وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة ، وخالفوا فيما عداها من المقامات ، مع تواتر الأحاديث فيها .

النوع الخامس : الشفاعة في أقوام ان يدخلوا(٢) الجنة بغير حساب ،ويحسن ان يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن ، حين دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب(٣) ، والحديث

---

(١) ضعيف ، أخرجه ابن جرير في تفسيره كما ذكر الشارح . (٢/٣٣٠-٣٣١ ، ٢٤/٣٠ ، ١٨٦-١٨٧) من حديث أبي هريرة مرفوعا ، واسناده ضعيف لانه من طريق اسماعيل بن رافع المدني عن يزيد بن ابي زياد وكلاهما ضعيف بسندهما عن رجل من الانصار ، وهو مجهول لم يسم ، وقول الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٢٤٨/١ ، ٦٣/٤) أنه حديث مشهور ، لا يستلزم صحته كما لا يخفى على أهل العلم .

(٢) في الاصل : يدخلون بدل يدخلوا .

(٣) صحيح ، متفق عليه ، وهو الذي فيه قوله صلى الله عليه وسلم : « سبقك بها عكاشة » .

مخرج في الصحيحين .

النوع السادس : الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه ، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه(١) . ثم قال القرطبي في « التذكرة » بعد ذكر هذا النوع : فإن قيل : فقد قال تعالى : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) المدثر : ٤٨ . قيل له : لاتنفعه في الخروج من النار ، كما تنفع عصاة الموحدين ، الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة .

النوع السابع : شفاعته ان يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة ، كما تقدم وفي « صحيح مسلم » عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا اول شفيع في الجنة »(٢) .

النوع الثامن : شفاعته في أهل الكبائر من امته ، ممن دخل النار ، فيخرجون منها ، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة فخالفوا في ذلك ، جهلا منهم بصحة الأحاديث ، وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته . وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً . وهذه الشفاعة تتكرر منه صلى الله عليه وسلم أربع مرات . ومن أحاديث هذا النوع ، حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »(٣) . رواه الإمام أحمد رحمه الله . وروى البخاري رحمه الله في كتاب « التوحيد » : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا معبد بن هلال العنزي ، قال : اجتمعنا ، ناس من اهل البصرة ، فذهبنا الى أنس بن مالك ، وذهبنا معنا بثابت / البناني اليه / ، يسأله لنا عن حديث الشفاعة ، فإذا هو في قصره ، فوافقناه يصلي الضحى ، فاستأذنا ، فأذن لنا وهو قاعد على

---

(١) صحيح ، رواه مسلم ، وقد خرجته في « الاحاديث الصحيحة » .

(٢) صحيح ، واحمد ايضاً (٣ / ١٤٠) .

(٣) صحيح ، وله طرق وشواهد .

فراشه ، فقلنا لثابت : لاتسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة ، / فقال : ياأبا حمزة ، هؤلاء إخوانك من اهل البصرة ، جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة / فقال : حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : إذا كان يوم القيامة ، ماج الناس بعضهم في بعض ، فيأتون آدم ، فيقولون : اشفع لنا الى ربك ، فيقول : لست لها ولكن عليكم بإبراهيم ، فانه خليل الرحمن ، فيأتون ابراهيم ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى ، فإنه كليم الله ، فيأتون موسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد / صلى الله عليه وسلم / ، فيأتوني ، فأقول : أنا لها ، فأستأذن على ربي فيؤذن لي ، ويلهمني محامد أحمده بها ، لاتحضرني الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، وأخر له ساجداً ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يُسمع لك واشفع تشفع ، وسل تعط ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقال : انطلق فأخرج /منها/ من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، واشفع تشفع ، وسل تعط ، فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقال : انطلق فأخرج /منها/ من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ، أمتي أمتي ، فيقول : انطلق فأخرج من كان في قلبه أدني أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان ، فأخرجه من النار ، فأنطلق فأفعل . قال : فلما خرجنا من عند أنس ، قلت/لبعض أصحابنا/لو مررنا بالحسن ، وهو متوار في منزل أبي خليفة ، فحدثناه بما حدثنا به أنس بن مالك ، فأتيناه ، فسلمنا عليه ، فأذن لنا ، فقلنا له : يا أبا سعيد ، جئناك من عند أخيك أنس بن مالك ، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة ، فقال : هيه ؟ فحدثناه بالحديث ، فانتهى الى هذا الموضع ، فقال : هيه ؟ فقلنا لم يزد لنا على هذا ، فقال : لقد حدثني وهو جميع ، منذ عشرين سنة ، فما أدري ، أنسي أم كره أن تتكلوا ؟

فقلنا : يا أبا سعيد ، فحدثنا ، فضحك وقال : خلق الإنسان عجولا ! ما ذكرته إلا وانا أريد أن أحدثكم ، حدثني كما حدثكم /به/ ، قال : ثم أعود الرابعة ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخر له ساجداً ، فيقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ، ائذن لي فيمن قال : لا إلا الا الله ، فيقول : وعزتي وجلالي ، وكبريائي وعظمتي ، لأخرجن منها من قال : لا إله الا الله »(١) . وهكذا رواه مسلم . وروى الحافظ أبو يعلى عن عثمان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء »(٢) . وفي « الصحيح » من حديث ابي سعيد رضي الله عنه مرفوعا ، قال : « فيقول الله تعالى : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا ارحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار ، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط »(٣) ، الحديث .

ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة اقوال : فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم : يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا . والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الكبائر . وأما أهل السنة والجماعة ، فيقرون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر ، وشفاعة غيره ، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حداً ، كما في الحديث الصحيح ، حديث الشفاعة : « إنهم يأتون آدم ، ثم نوحاً ، ثم ابراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فيقول لهم عيسى عليه السلام : اذهبوا

---

(١) صحيح .

(٢) موضوع ، رواه ابن ماجه (٤٣١٣) والعقيلي فى « الضعفاء » (ص ٣٣١) في ترجمة عنبسة بن عبدالرحمن القرشي وقال « لايتابع عليه » وروي عن البخاري انه قال : تركوه . وقال ابو حاتم : كان يضع الحديث .

(٣) صحيح . أخرجه مسلم (١ / ١١٥ ـ ١١٦) وأحمد (٣ / ٩٤) .

الى محمد ، فإنه عبد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتوني ، فأذهب ، فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً ، فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي ، لا أحسنها الآن ، فيقول : أي محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، واشفع تشفع ، فأقول : ربي : أمتي فيحد لي حداً ، فأدخلهم الجنة ، ثم انطلق فأسجد ، فيحد لي حداً »(١) ذكرها ثلاث مرات .

وأما الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم وغيره في الدنيا الى الله تعالى في الدعاء ، ففيه تفصيل : فإن الداعي تارة يقول بحق نبيك أو بحق فلان ، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته ، فهذا محذور من وجهين : أحدهما : أنه أقسم بغير الله ؛ والثاني : اعتقاده أن لأحد على الله حقاً . ولايجوز الحلف بغير الله ، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه ، كقوله تعالى : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) الروم : ٤٧ . وكذلك ماثبت في « الصحيحين » من قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه ، وهو رديفه : « يامعاذ ، أتدري ماحق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدري ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقهم عليه أن لايعذبهم »(٢) . فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق ، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق على المخلوق ، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير ، وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم ، وترك تعذيبهم معنى لايصلح أن يقسم به ، ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به ، لأن السبب هو مانصبه الله سببا ؛ وكذلك الحديث الذي في « المسند » من حديث ابي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في قول الماشي الى الصلاة : « أسألك بحق ممشاي هذا ، وبحق السائلين

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه ؛

عليك »(١) ، فهذا حق السائلين ، هو اوجبه على نفسه ، فهو الذي احق للسائلين ان يجيبهم ، وللعابدين ان يثيبهم ، ولقد احسن القائل :

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ، ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله ، او نعموا ... فبفضله وهو الكريم السامع

فإن قيل : فأي فرق بين قول الداعي : « بحق السائلين عليك » وبين قوله : « بحق نبيك » او نحو ذلك ؟ فالجواب : ان معنى قوله : « بحق السائلين عليك » أنك وعدت السائلين بالإجابة ، وأنا من جملة السائلين ، فأجب دعائي ، بخلاف قوله : بحق فلان - فإن فلاناً وإن كان له حق على الله بوعده الصادق - فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هــذا السائل . فكأنه يقول : لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعاي ! وأي مناسبة في هذا وأي ملازمة ؟ وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء . وقد قال تعالى : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ، إنه لا يحب المعتدين) الاعراف : ٥٥ . وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة ، ولم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن الصحابة ، ولا عن التابعين ، ولا عن احد من الأئمة رضي الله عنهم ، وإنما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهال والطرقية . والدعاء من افضل العبادات ، والعبادات مبناها على السنة والاتباع ، لا على الهوى والابتداع .

وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان ، فذلك محذور أيضا ، لأن الإقسام بالمخلوق لا يجوز ، فكيف على الخالق ؟ ! وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من حلف بغير الله فقد اشرك »(٢) . ولهذا قال ابو حنيفة وصاحباه رضي الله عنهم :

---

(١) ضعيف ، وقد فصلت القول في ذلك في « سلسلة الاحاديث الضعيفة » (رقم ٢٤) .

(٢) صحيح ، رواه احمد والترمذي والحاكم وصححه .

يكره ان يقول الداعي : اسألك بحق فلان ، او بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام ، والمشعر الحرام ، ونحو ذلك . حتى كره ابو حنيفة ومحمد رضي الله عنهما ان يقول الرجل : اللهم إني اسألك بمعقدالعز من عرشك ، ولم يكرهه ابو يوسف رحمه الله لما بلغه الأثر فيه . وتارة يقول : بجاه فلان عندك ، او يقول : نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك واوليائك . ومراده ان فلاناً عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فأجب دعائنا . وهذا ايضامحذور ، فإنه لو كان هذا هوالتوسل الذي كان الصحابة يفعلونه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لفعلوه بعد موته ، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه ، يطلبون منه ، ان يدعو لهم ، وهم يؤمنون على دعائه ، كما في الاستسقاء وغيره . فلما مات صلى الله عليه وسلم قال عمر رضي الله عنه - لما خرجوا يستسقون - : اللهم إنا كنا اذا اجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا . معناه بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله ، ليس المراد انا نقسم عليك / به / ، او نسألك بجاهه عندك ، إذ لو كان ذلك مراداً لكان جاه النبي صلى الله عليه وسلم اعظم واعظم من جاه العباس .

وتارة يقول : باتباعي لرسولك ومحبتي له وإيماني به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقي لهم ، ونحو ذلك . فهذا من أحسن مايكون في الدعاء والتوسل والاستشفاع.

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمال ، غلط بسببه(١) من لم يفهم معناه : فإن أريد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً ، وهذا في حياته يكون ، أو لكون الداعي محباً له ، مطيعاً لأمره ، مقتدياً به ، وذلك أهل للمحبة والطاعة والاقتداء ، فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته ، وإما بمحبة السائل واتباعه، أو يراد به الاقسام به والتوسل بذاته ، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه .

وكذلك السؤال بالشيء ، قد يراد به التسبب به ، لكونه سبباً في حصول المطلوب ، وقد يراد / به / الإقسام به .

---

(١) في الاصل : بتسببه .

ومن الأول : حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار ، وهو حديث مشهور في « الصحيحين » وغيرهما ، فإن الصخرة انطبقت عليهم ، فتوسلوا الى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة ، وكل واحد منهم يقول : فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مانحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون(١) . فهؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال ، لأن الأعمال الصالحه هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله ، ويتوجه به اليه ، ويسأله به ، لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله .

فالحاصل أن الشفاعة عند الله / ليست / كالشفاعة عند البشر ، فإن الشفيع عند البشر كما أنه شافع للطالب شفعة(٢) في الطلب ، بمعنى أنه صار شفعاً فيه بعد أن كان وتراً ، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه ، وبشفاعته(٣) صار فاعلا للمطلوب ، فقد شفع الطالب والمطلوب منه ، والله تعالى وتر ، لايشفعه أحد ، / فلا يشفع عنده أحد / إلا بإذنه ، فالأمر كله اليه ، فلا شريك له بوجه . فسيد الشفعاء يوم القيامة اذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله : « ارفع رأسك ، وقل يسمع ، / واسأل تعطه / ، واشفع تشفع » ، فيحد له حداً فيدخلهم الجنة ، فالأمر كله لله . كما قال تعالى : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾ ، آل عمران : ١٥٤ . وقال تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ آل عمران : ١٢٨ . وقال تعالى : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ .

فإذا كان لايشفع عنده أحد إلا باذنه لمن يشاء ، ولكن يُكرم الشفيع بقبول شفاعته ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه مايشاء »(٤) . وفي « الصحيح » : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يابني

---

(١) صحيح ، متفق عليه .

(٢) في الاصل : شفع .

(٣) في الاصل : فبشفاعته .

(٤) صحيح ، متفق عليه .

عبد مناف ، لاأملك لـكم من الله شيء ، ياصفية ياعمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاأملك لك من الله شيء ، ياعباس عم رسول الله ، لاأملك لك من الله شيء »(١) .
وفي « الصحيح » أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لاألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، او شاة لها يعار ، أو رقاع تخفق ، فيقول : أغثني أغثني ، فأقول : قد أبلغتك ، لاأملك لك من الله من شيء »(٢) . فإذا كان سيد الخلق وافضل الشفعاء يقول لأخص الناس به : « لا املك لـكم من الله من شيء » فما الظن بغيره ؟ وإذا دعاه الداعي ، وشفع عنـده الشفيع ، فسمع الدعاء ، وقبل الشفاعة ، لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق ، فإنه سـبحانه / وتعالى / هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ثم اثابه ، وهو الذي وفقه للدعاء ثم اجابه . وهذا مستقيم على اصول اهل السنة المؤمنين بالقـدر ، وان الله خالق كل شيء .

قوله : (والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق) .

ش : قال تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهـورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيـامة إنا كنا عن هذا غافلين) الاعراف : ١٧٢ . أخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على انفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لااله الا هو . وقـد وردت احاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتمييزهم الى أصحاب اليمين والى أصحاب الشمال ، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم :

فمنها : مارواه الإمام احمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله

(١) صحيح ، اخرجه مسلم (١ / ١٣٣) بأتم منه .
(٢) صحيح ، اخرجه البخاري (٢ / ٢٦٦) ومسلم .

عليه وسلم ، قال : « إن الله اخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ، فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قُبُلا ، قال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا . . . الى قوله : المبطلون »(١) . ورواه النسائي ايضاً، وابن جرير ، وابن ابي حاتم ، والحاكم في « المستدرك » ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وروى الإمام احمد ايضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انه سئل عن هذه الآية ، فقال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها ، فقال : ان الله خلق آدم عليه السلام ، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل اهل النار يعملون فقال رجل : يارسول الله ، ففيم العمل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : / إن الله عز وجل / اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل اهل الجنة ، حتى يموت على عمل من اعمال اهل الجنة ، فيدخل / به الجنة ، واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل اهل النار ، حتى يموت على عمل من اعمال اهل النار فيدخل به النار »(٢) . ورواه ابو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ابي حاتم ، وابن جرير ، وابن حبان في « صحيحه » .

وروى الترمذي عن ابي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما خلق الله آدم مسح على ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل انسان منهم وبيصا من نور ، ثم عرضهم على آدم ، فقال : اي ربّ ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلا منهم ، فأعجبه وبيص مابين عينيه ، فقال : أي رب ، من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، قال : / ربِ / ، كم عمره ؟ قال :

---

(١) صحيح ، لطرقه وشواهده .

(٢) صحيح لغيره .

ستون سنة ، قال : أي رب ، زده من عمري أربعين سنة ، فلما انقضى(١) عمر آدم جاء ملك الموت ، قال : او لم يبق من عمري اربعون سنة ؟ قال : او لم تعطها ابنك داود ؟ قال فجحد ! فجحدت ذريته ، ونسي آدم ، فنسيت ذريته ، وخطى آدم ، فخطيت ذريته »(٢) . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وروى الإمام احمد ايضاً عن انس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « يقال للرجل من اهل النار يوم القيامة : ارأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء ، أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم ، قال : فيقول : قد اردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لاتشرك بي شيئا فأبيت إلا ان تشرك بي شيئا »(٣) . واخرجاه في « الصحيحين » ايضاً .

وذكر احاديث اخرى ايضاً كلها دالة على ان الله استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميز بين اهل النار واهل الجنة . ومن هنا قال من قال : إن الارواح مخلوقة قبل الاجساد . وهذه الآثار لاتدل على سبق الأرواح الأجساد(٤) سبقاً مستقراً ثابتاً ، وغايتها أن تدل على ان باريها وفاطرها سبحانه صوّر النسمة وقدر خلقها واجلها وعملها ، واستخرج تلك الصور من مادتها ، ثم اعادها اليها ، وقدّر خروج كل فرد من افرادها في وقته المقدر له ، ولايدل على انها خلقت خلقاً مستقراً واستمرت موجودة ناطقة كلها في موضع واحد ثم يرسل منها الى الأبدان جملة بعد جملة ، كما قاله ابن حزم . فهذا لاتدل الآثار عليه . نعم ، الرب سبحانه يخلق

---

(١) في الاصل : قضى .

(٢) حسن .

(٣) صحيح ، متفق عليه ، وهو في « المسند » (٣ / ١٢٧ ، ١٢٩)

(٤) في الأصل : او الاجساد .

منها جملة بعدجملة ، / كما قاله / على الوجه الذي سبق به التقدير(١) اولا ،فيجيء الخلق الخارجي مطابقاً للتقدير السابق ، كشأنه سبحانه في جميع مخلوقاته ، فإنه قدر لها اقداراً وآجالا وصنعات وهيآت ، ثم ابرزهـا الى الوجود مطابقة لذلك التقدير السابق . فالآثار المروية في ذلك إنما تدل على القدر السابق ، وبعضها يدل على انه سبحانه استخرج امثالهم وصورهم وميز اهل السعادة من اهل الشقاوة . واما الإشهاد عليهم هناك ، فإنما هو في حديثين موقوفين على ابن عباس وعمر رضي الله عنهم . ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد انما هو فطرتهم(٢) على التوحيد ، كما تقدم / كلام المفسرين على هذه الآية الكريمة / في حديث ابي هريرة رضي الله عنه . ومعنى قوله (شهدنا) : اي قالوا : بلى شهدنا انك ربنا . وهذا قول ابن عباس وأبيّ ابن كعب . وقال ابن عباس ايضاً : اشهد بعضهم على بعض . وقيل : (شهدنا) من قول الملائكة ، / و / الوقف على قوله (بلى) . وهذا قول مجاهد والضحاك والسدي . ايضاً : هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته انهم شهدوا على إقرار بني آدم . والاول اظهر ، وما عداه احتمال لادليل عليه ، وانما يشهد ظاهر الآية للأول .

واعلم ان من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره واشهدهم على انفسهم بما اعادهم ، كالثعلبي والبغوي وغيرهما ، ومنهم من لم يذكره ، بل ذكر انه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ١٤٩ ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها الله فيهم ، كالزمخشري وغيره ، ومنهم من ذكر القولين ، كالواحدي والرازي والقرطبي وغيرهم ، لكن نسب الرازي القول الاول الى اهل السنة ، والثاني الى المعتزلة . ولاريب ان الآية لاتدل على القول الأول ، اعني ان الأخذ كان من ظهر آدم ، وإنما فيها ان الأخذ من ظهور بني آدم والإشهاد

---

(١) في الاصل : التدبير .

(٢) في الاصل : فطرهم .

عليهم هناك في بعض الأحاديث ، وفي بعضهـا الأخذ والقضاء بأن بعضهم الى الجنة وبعضهم الى النار ، كما فى حديث عمر رضى الله عنـه ، وفي بعضها الأخذ وإراء آدم اياهم من غير قضاء ولا إشهاد ، كما في حديث ابي هريرة . والذي فيه الإشهاد - على الصفة التي قالها اهل القول الاول - موقوف على ابن عباس وعمر ، وتكلم فيه اهل الحديث ، ولم يخرجه احد من اهل الصحيح غير الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» والحاكم معروف التساهل رحمه الله .

والذي فيه القضاء بأن بعضهم الى الجنة وبعضهم الى النار دليل على مسألة القدر . وذلك شواهده كثيرة ، ولا نزاع فيه بين اهل السنة ، وإنما يخالف فيه القدرية المبطلون المبتدعون .

وأمـا الأول : فالنزاع فيه بين اهل السنـة من السلف والخلف ، ولولا ما التزمته من الاختصار لبسطت الأحاديث الواردة في ذلك ، وماقيل من الكلام عليها ، وما ذكر فيها من المعاني المعقولة ودلالة ألفاظ الآية الكريمة .

قال القرطبي : وهذه الآية مشكلة ، وقد تكلم العلماء في تأويلهـا ، فنذكر ما ذكروه من ذلك ، حسب ما وقفنا عليه . فقال قوم : معنى الآية : أن الله اخرج من ظهر بني آدم بعضهم من بعض ، ومعنى (أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم) الاعراف : ١٧٢ . دلهم على توحيده ، لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له رباً واحداً سبحانه وتعالى / قال : فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم ، كما قال تعالى في السموات والأرض : (قالتا أتينا طائعين) ، ذهب الى هذا القفال واطنب . وقيل : انه / سبحانه وتعالى / أخرج الارواح قبل خلق الاجساد ، وانه جعل فيهـا من المعرفة ماعلمت به ما خاطبها . ثم ذكر القرطبي بعد ذلك الأحاديث الواردة في ذلك ، الى آخـر كلامه . واقوى مايشهد لصحـة القول الاول : حديث أنس المخرج في « الصحيحين » ، الذي فيه : قـد اردت منك ماهو أهون من ذلك ، قد اخذت

عليك في ظهر آدم ان لاتشرك بي شيئا فأبيت الا ان تشرك بي(١) . ولكن قدروي من طريق اخرى : قد سألتك اقل من ذلك وايسر فلم تفعل فيرد الى النار . وليس فيه : في ظهر آدم . وليس في الرواية الاولى إخراجهم من ظهر آدم على الصفة التي ذكرها أصحاب القول الاول .

بل القول الأول متضمن(٢) لأمرين عجيبين: أحدهما : كون الناس تكلموا حينئذ وأقروا بالإيمان وانه بهذا تقوم الحجة عليهم يوم القيامة . والثاني : أن الآية دلت على ذلك ، والآية لاتدل عليه لوجوه : أحدها : أنه قال : « من بني آدم » ، ولم يقل : من آدم ، الثاني : أنه قال : « من ظهورهم » ، ولم يقل : من ظهره ، وهذا بدل بعض ، اوبدل اشتمال ، وهو احسن . الثالث : انه قال : « ذرياتهم » ولم يقل : ذريته ، الرابع : أنه قال : «وأشهدهم على انفسهم » ، ولابد ان يكون الشاهد ذاكراً لما شهد به ، وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه الى هذه الدار - كما تأتي الاشارة الى ذلك - لا يذكر شهادة قبله ، الخامس : أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة للحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة : (إنا كنا عن هذا غافلين) ، والحجة انما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فطروا عليها ، كما قال تعالى : (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) النساء : ١٦٥ : السادس : تذكيرهم بذلك ، لئلا يقولوا يوم القيامة : (إنا كنا عن هذا غافلين) الاعراف : ١٧٢ ، ومعلوم أنهم غافلون عن الإخراج لهم من صلب آدم كلهم وإشهادهم جميعاً ذلك الوقت ، فهذا لا يذكره أحد منهم ، السابع : قوله تعالى :

---

(١) صحيح ، وهو الذي قبله ، والرواية الاخرى عند مسلم (٨ / ١٣٤ ، ١٣٥) وكذا البخاري (٤ / ٢٣٩) ولامنافاة بينها وبين التي قبلها ، لان زيادة الثقة مقبولة كما لايخفى ، وفي هذا الحديث زيادات اخرى وقد جمعتها في الحديث وخرجته في المائة الثانية من « سلسلة الاحاديث الصحيحة » .

(٢) في الاصل : يتضمن .

(أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) الأعراف : ١٧٣ ، فذكر حكمتين في هذا الإشهاد(١) : لئلا يدّعوا الغفلة ، أو يدعوا التقليد ، فالغافل لاشعور له ، والمقلد متبع في تقليده لغيره . ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة . الثامن : قوله : (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) الاعراف : ١٧٣ : أي توعدهم(٢) بجحودهم وشركهم لما قالوا ذلك ، وهو سبحانه إنما يهلكهم بمخالفةرسله وتكذيبهم ، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرسل . التاسع : أنهسبحانهأشهد كل واحد على نفسهأنه ربه وخالقه ، واحتجّ عليهبهذافي غير موضع من كتابه ، كقوله : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لقمان : ٢٥ ، فهذه هي الحجة التي أشهدهم(٣) على أنفسهم بمضمونها ، وذكرتهم بها رساله ، بقولهم : (أفي الله شك فاطر السموات والأرض) ابراهيم : ١٠ . العاشر : أنه جعل هذا آية ، وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها ، وهذا شأن آيات الرب تعالى . فقال تعالى : (وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون) الاعراف : ١٧٤ ، وإنما ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، فما من مولود إلا يولد على الفطرة ، لا يولد مولود على غير هذه الفطرة ، هذا أمر مفروغ منه ، لاتبديل ولا تغيير . وقد تقدمت الإشارة الى هذا . والله أعلم .

وقد تفطن لهذا ابن عطية وغيره ، ولكن هابوا مخالفة /ظاهر/تلك الأحاديث التي فيها التصريح بأن الله أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم . وكذلك حكى القولين الشيخ أبو منصور الماتريدي في « شرح التأويلات » ورجح القول الثاني ، وتكلم عليه ومال إليه .

---

(١) في الاصل : الاخذ الاشهاد .

(٢) في الاصل : لوعذ بهم .

(٣) في الاصل : أشهد .

ولاشك أن الإقرار بالربوبية أمر فطري ، والشرك حادث طارئ ، والأبناء تقلدوه(١) عن الآباء ، فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا ونحن جرينا على عادتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن، يقال لهم : أنتم كنتم معترفين(٢) بالصانع ، مقرين بأن الله ربكم لا شريك له ، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم ، فإن شهادة المرء على نفسه هي إقراره بالشيء ليس إلا، قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) النساء : ١٣٥ . وليس المراد أن يقول : أشهد على نفسي بكذا ، بل من أقر بشيء فقد شهد على نفسه به ، فلم عدلتم عن هذه المعرفة والإقرار الذي شهدتم به على أنفسكم الى الشرك ؟ بل عدلتم عن المعلوم المتيقن الى ما لا يعلم له حقيقة ، تقليداً لمن لا حجة معه ، بخلاف اتباعهم في العادات الدنيوية ، فإن تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فساده ، وفيه مصلحة لكم ، بخلاف الشرك ، فإنه كان عندكم من المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يبين فساده وعدولكم فيه عن الصواب .

فان الدين الذي يأخذه الصبي عن أبويه هو دين التربية والعادة ، وهو لأجل مصلحة الدنيا ، فان الطفل لابدّ له من كافل ، وأحق الناس به أبواه ، ولهذا جاءت الشريعة بأن الطفل مع(٣) أبويه على دينهما في أحكام الدنيا الظاهرة ، وهذا الدين لا يعاقبه الله عليه - على الصحيح - حتى يَبلغَ وتقوم عليه الحجة ، وحينئذ فعليه أن يتبع دينَ العلم والعقل ، وهو الذي يعلم بعقله هو أنه دين صحيح ، فإن كان آباؤه مهتدين ، كيوسف الصديق مع آبائه ، قال : (واتبعتُ ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب) يوسف : ٣٨ ، وقال ليعقوب بنوه : (نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل وإسحق) البقرة : ١٣٣ ، وان كان الآباء مخالفين الرسل ،كان

(١) في الاصل : يقلدون .

(٢) في الاصل : مقرون .

(٣) في الاصل : على .

عليه ان يتبع الرسل ، كما قال تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) العنكبوت : ٨ ، الآية .

فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم ، بل يعدل عن الحق المعلوم إليه ، فهذا اتبع هواه ، كما قال تعالى : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا على آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون) البقرة : ١٧٠ .

وهذه حال كثير من الناس من الذين ولدوا على الإسلام ، يتبع أحدهم أباه فيما كان عليه من اعتقاد ومذهب(١) ، وإن كان خطأ ليس هو فيه على بصيرة ، بل هو من مسلمة الدار ، لامسلمة الاختيار ، وهذا إذا قيل له في قبره : من ربك؟ قال : هاه هاه ، لاأدري ، سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته .

فليتأمل اللبيب هذا المحل ، ولينصح نفسه ، وليقم معه ، ولينظر من أي الفريقين هو ؟ والله الموفق ، فإن توحيد الربوبية لايحتاج الى دليل ، فإنه مركوز في الفطر . وأقرب ماينظر فيه المرء(٢) أمرُ نفسه لما كان نطفة ، وقد خرج من بين الصلب والترائب / والترائب / : عظام الصدر(٣) ، ثم صارت تلك النطفة في قرار مكين ، في ظلمات ثلاث ، وانقطع عنها تدبير الأبوين وسائر الخلائق ، ولو كانت موضوعة على لوح او طبق ، واجتمع حكماء العالم على أن يصوروا منها شيئا لم يقدروا . ومحال توهم عمل الطبائع فيها ، لأنها موات عاجزة ، ولاتوصف بحياة ، ولن يتأتى من الموات فعل وتدبير ، فإذا تفكر في ذلك وانتقال هذه النطفة من حال الى حال ، علم بذلك توحيد الربوبية ، فانتقل منه الى توحيد الإلهية . فإنه اذا علم بالعقل أن له رباً اوجده ، كيف يليق به ان يعبد غيره ؟ وكلما تفكر وتدبر ازداد يقيناً وتوحيدا ، والله الموفق ، لارب غيره ، ولا إله سواه .

---

(١) في الاصل : مذهبه .

(٢) في الاصل : من .

(٣) في الاصل : الصدور .

قوله : (وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار ، جملة واحدة ، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه . وكذلك افعالهم فيما علم منهم ان يفعلوه) .

ش : قال الله تعالى : (إن الله بكل شيء عليم) الانفال : ٧٥ . (وكان الله بكل شيء عليما) الأحزاب : ٤٠ . فالله تعالى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلا وأبداً ، لم يتقدم علمه بالأشياء جهالة . وما كان ربك نسيا. وعن علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة ، فنكس رأسه فجعل ينكت بمخصرته ، ثم قال : مامن نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية او سعيدة ، قال : فقال رجل : يارسول الله ، افلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل اهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير الى عمل اهل الشقاوة . ثم قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما اهل السعادة فييسرون لعمل اهل السعادة ، وأما اهل الشقاوة فييسرون لعمل اهل الشقاوة ، ثم قرأ : (فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)(١) خرجاه في « الصحيحين » .

قوله : (وكل ميسر لما خلق له ، والأعمال بالخواتيم ، والسعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله) .

ش : تقدم حديث علي رضي الله عنه وقوله صلى الله عليه وسلم : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ، وعن زهير عن ابي الزبير عن جابر ابن عبدالله رضي الله

---

(١) صحيح ، متفق عليه .

عنهما ، قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال : يارسول الله ، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، / ام فيما يستقبل ؟ قال : لا ، بل فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير ، / قال : ففيم العمل ؟ / قال زهير : ثم تكلم ابو الزبير بشيء لم افهمه ، فسألت : ما قال ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر(١) . رواه مسلم . وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من اهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل اهل النار فيما يبدو للناس وهو من اهل الجنة »(٢) ،خرجاه في « الصحيحين » وزاد البخاري : وإنما الاعمال بالخواتيم . وفي « الصحيحين » ايضاً عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق - : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن امه اربعين يوماً / نطفة / ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل / اليه / الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي او سعيد ، فوالذي لا إله غيره ، إن أحدكم ليعمل بعمل / اهل / الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها ، وإن احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها »(٣) . والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، وكذلك الآثار عن السلف . قال أبو عمر بن عبد البر في « التمهيد » : قد اكثر الناس من تخريج الآثار في هذا الباب ، واكثر المتكلمون من الكلام فيه ، وأهل السنة مجتمعون / على الإيمان / بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها ، وبالله العصمة والتوفيق .

---

(١) صحيح ، مسلم في « القدر » (٨ / ٤٨) واحمد ايضاً (٣ / ٢٩٢ - ٢٩٣) .

(٢) صحيح ، متفق عليه .

(٣) صحيح ، متفق عليه .

وقوله : (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى في كتابه : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) الانبياء : ٢٣ . فمن سأل : لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين) .

ش : أصل القدر سر الله في خلقه ، وهو كونه أوجد وأفنى ، وأفقر وأغنى ، وأمات وأحيا ، وأضل وهدى . قال علي كرم الله وجهه ورضي عنه : القدر سر الله فلا نكشفه . والنزاع بين الناس في مسألة القدر مشهور .

والذي عليه أهل السنة والجماعة : أن كل شيء بقضاء الله وقدره ، وأن الله تعالى خالق أفعال العباد . قال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) القمر : ٤٩ . وقال تعالى : (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) الفرقان : ٢ . وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ، ويشاؤه ، ولا يرضاه ولا يحبه ، فيشاؤه كوناً ، ولا يرضاه ديناً ،

وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة ، وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر ، ولكن الكافر شاء الكفر ، فردوا الى هذا لئلا يقولوا شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه ! ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار ! فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه ! فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى ، فان الله قد شاء الإيمانَ منه - على قولهم - والكافر شاء الكفر ، فوقعت مشيئةُ الكافر دون مشيئة الله تعالى !! وهذا من أقبح الاعتقاد ، وهو قول لا دليل عليه ، بل هو مخالف للدليل .

وأما الأدلة من الكتاب والسنة : فقد قال تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حقّ القول مني لأملأن جهنم من الجِنة والناس أجمعين) السجدة : ١٣ . وقال تعالى : ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) يونس : ٩٩ . وقال تعالى : (وما تشاؤون إلا

أن يشاء الله رب العالمين) التكوير : ٢٩ . (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله . إن الله كان عليما حكيما) الدهر : ٣٠ . وقال تعالى : (من يشإ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) الانعام : ٣٩ . وقال تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) الانعام : ١٢٥ .

ومنشأ الضلال : من التسوية بين المشيئة والإرادة ، وبين المحبة والرضا ، فسوّى بينهما الجبرية والقدرية ، ثم اختلفوا : فقالت الجبرية : الكون كله بقضائه وقدَره ، فيكون محبوباً مرضياً . وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له ، فليست مقدرة ولا مقضية ، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه . وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتابُ والسنةُ والفطرةُ الصحيحة . أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب ، فقد تقدم ذكر بعضها . وأما نصوص المحبة والرضى ، فقال تعالى : (والله لايحب الفساد) البقرة : ٢٠٥ . (ولا يرضى لعباده الكفر) الزمر : ٧ . وقان تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر : (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) الاسراء : ٣٨ . وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله كره لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »(١) . وفي « المسند » : إن الله يحب أن يؤخذ برخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته(٢) . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك »(٣) . فتأمل ذكر /استعاذته/ بصفة الرضا من صفة السخط ، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة ، فالأول الصفة ، والثاني أثرها المرتب عليها ، ثم ربط ذلك كله بذاته

(١) صحيح متفق عليه ، البخاري في « الاستقراض » ومسلم في « الاقضية » .
(٢) صحيح . رواه احمد وغيره بسند صحيح .
(٣) صحيح .

سبحانه ، وأن ذلك كله راجع إليه وحـده / لا إلى غيره/ ، فما أعوذ منه واقـع بمشيئتك وإرادتك ، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك ، ان شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه ، وان شئت أن تغضب عليه وتعاقبه ، فإعاذتي مما أكره ومنعه أن يحل بي ، هي بمشيئتك أيضاً ، فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك ، فعياذي(١) بك منك ، وعياذي(١) بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك فلا ، /أستعيذ/ بغيرك من غيرك ولا أستعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك ، بل هو منك . فلا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته .

فإن قيل : كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه ؟ وكيف يشاؤه ويكوّنه ؟ وكيف يجمع إرادته له وبغضه وكراهته ؟ قيل : هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجـله فرقاً ، وتباينت طرقهم وأقوالهم . فاعلم أن المراد نوعان : مرادٌ لنفسه ، ومراد لغـيره ، فالمراد لنفسه ، مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير . فهو مراد إرادةَ الغايات والمقاصد . والمراد لغيره ، قد لايكون مقصوداً لما يريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر الى ذاته ، وإن كان وسيلة الى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته ، مراد له من حيث قضاؤه وايصاله الى مراده . فيجتمع فيه الأمران : بغضه وارادته ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما . وهـذا كالدواء الكريه ، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه ، وقطع العضو المتأكل ، اذا علم ان في قطعه بقاء جسده ، وكقطع المسافة الشاقة ، اذا علم انها توصل الى مراده ومحبوبه . بل العاقل يكتفي في إيثار هـذا المكروه وإرادته بالظن الغالب ، وان خفيت عنه عاقبته ، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية . فهو سبحانه يكره الشيء ، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره ، وكونه سبباً الى امر هو احب إليه من فوقه . من ذلك : انه خلق إبليس ، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات ،

(١) في الاصل : وعياذتي .

وهو سبب لشقاوة كثير من العباد ، وعملهم بما يغضب الرب /سبحانه/ تبـارك وتعالى ، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه . ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، ووجودها احب اليه من عدمها .
منها : أنه يظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فخلق هذا الذات ، التي هي اخبث الذوات وشرها ، وهي سبب كل شر ، في مقابلة ذات جبرائيل ، التي هي من أشرف الذوات واطهرها وازكاها ، وهي مادة كل خير ، فتبارك خالق هذا وهذا . كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار ، والدواء والداء والحياة والموت ، والحسن والقبيح ، والخير والشر . وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه ، فإنه خلق هذه المتضادات ، وقابلها بعضها ببعض وجعلها محالّ تصرفه وتدبيره . فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير ملكه . ومنهـا : ظهور آثار اسمائه القهرية ، مثل : القهار ، والمنتقم ، والعدل ، والضار ، والشديد العقاب ، والسريع العقاب ، وذي البطش الشديد ، والخافض ، والمذل . فإن هذه الأسماء والأفعال كمال ، لابـد من وجود متعلقها ، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هـذه الأسماء .
ومنها : ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيـده ، فلولا خلق مايكرهه من الأسباب المفضية الى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد . وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هـذا بقوله : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم »(١) . ومنها : ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، فإنه الحكيم الخبير ، الذي يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلا يضع الشيء في غير موضعه ، ولاينزله في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته . فهو أعلم حيث يجعل رسالاته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها اليه ، وأعلم بمن

---

(١) صحيح ، أخرجه مسلم .

لايصلح لذلك . فلو قدر عدم الأسباب المكروهة ، لتعطلت حكم كثيرة ، ولفاتت مصالح عديدة ، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر ، لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي فى تلك الأسباب ، وهذا كالشمس والمطر والرياح ، التي فيها من المصالح ماهو أضعاف أضعاف مايحصل بها من الشر . ومنها : حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت ، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه . ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة لله سبحانه / وتعالى / والمعاداة فيه ، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محاب الله تعالى ، وعبودية التوبة والاستغفار ، وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه . إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها .

وقوله : والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان . الى آخره - التعمق : هو المبالغة في طلب الشيء ، والمعنى : أن المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان . الذريعة : الوسيلة . والذريعة والدرجة والسلم - متقاربة المعنى ، وكذلك الخذلان والحرمان والطغيان متقاربة المعنى ايضا ، لكن الخذلان في مقابلة النصر ، والحرمان في مقابلة الظفر ، والطغيان في مقابلة الاستقامة .

وقوله : فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة . عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ؟ قال / وقد / وجدتموه ؟ / قالوا : نعم / ، قال : ذلك صريح الإيمان(١) . رواه مسلم ، الإشارة بقوله : « ذلك صريح الإيمان » إلى تعاظم أن يتكلموا به . ولمسلم أيضاً عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : سئل رسول الله صلى الله عليه

---

(١) صحيح ، اخرجه مسلم ، وقد جمعت طرقه ، وذكرت الفاظه في « الاحاديث الصحيحة » رقم (١١٥) .

وسلم عن الوسوسة ؟ فقال : تلك محض الإيمان(١) . وهو(٢) بمعنى حديث أبي هريرة ، فإن وسوسة النفس او مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين ، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان . هذه طريقة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان . ثم خلف من بعدهم خلف ، سودوا الأوراق بتلك الوساوس ، التي هي شكوك وشبه ، بل وسودوا القلوب ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا بـه الحق ، ولذلك اطنب الشيخ رحمه الله في ذم الخوض في الكلام في القدر والفحص عنه . وعن عائشة رضي الله عنها انها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ابغض الرجال الى الله الألد الخصم »(٣) . وقال الإمام احمد حدثنا ابو معاوية حدثنا داود بن ابي هند عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده ، قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم والناس يتكلمون في القدر ، قال : فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب ، قال : فقال / لهم /: مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ؟ بهذا هلك من كان قبلكم . قال : فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله لم اشهده ، بما غبطت نفسي بذلك المجلس ، اني لم اشهده(٤) . ورواه ابن ماجه ايضا . وقال تعالى : (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا) التوبة : ٦٩ ، الخلاق: النصيب ، قال تعالى : (وما له في الآخرة من خلاق) البقرة : ٢٠٠ ، اي استمتعتم بنصيبكم كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبهم وخضتم كالذي خاضوا ، أي كالخوض الذي خاضوه ، أو كالفوج أو الصنف أو الجيل الذي خاضوا . وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض ، لأن فساد الدين إما في العمل

---

(١) صحيح ، رواه مسلم .

(٢) في الاصل : فهو .

(٣) صحيح ، متفق عليه .

(٤) صحيح . رواه أحمد وغيره بسند جيد .

وإما في الاعتقاد ، فالأول من جهة الشهوات ، والثاني من جهة الشبهات . وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لتأخذنّ أمتي مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع »، قالوا : فارس والروم ؟ قال : فمن الناس إلا أولئك »(١) . وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليأتين على أمتي ما أتي على بني اسرائيل حذوَ النعل بالنعل ، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية كان من أمتي من يصنع ذلك ، وإن بني اسرائيل تفرقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : من هي يارسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي »(٢) . رواه الترمذي . وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تفرقت / اليهود / على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة »(٣) . رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح . وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة (٤) . يعني الأهواء ، كلها(٥) في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة . وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر . وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع.

وقوله : فمن سأل : لم فعل ؟ فقد ردّ حكم الكتاب ، ومن ردّ حكم الكتاب كان من الكافرين .

---

(١) صحيح ، أخرجه البخاري .

(٢) ضعيف بهذا السياق .

(٣) صحيح .

(٤) صحيح .

(٥) في الأصل : كلهم .

اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله - على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع . ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها ، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنه بنبيها ، بل انقادت وسلمت وأذعنت ، وما عرفت من الحكمة عرفته ، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته ، ولا جعلت ذلك من شأنها ، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك ، كما في الإنجيل : « يابني اسرائيل لاتقولوا : لم أمر ربنا ؟ ولكن قولوا : بم أمر ربنا » ، ولهذا كان سلف هذه الأمة ، التى هي أكمل الأمم عقولا ومعارف وعلوماً - لاتسأل نبيها : لمَ أمر الله بكذا ؟ ولم نهى عن كذا ؟ ولم قدر كذا ؟ ولم فعل كذا ؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لاتثبت إلا على درجة التسليم . فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به ، ثم العزم الجازم على امتثاله ، ثم المسارعة اليه والمبادرة به ، / والحذر / عن القواطع والموانع ، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه ، ثم فعله لكونه مأموراً ، بحيث لايتوقف الإتيان به على معرفة حكمته - فإن ظهرت له فعله وإلا عطله ، فإن هذا ينافي الانقياد ، ويقدح في الامتثال . قال القرطبي ناقلا عن ابن عبد البر : فمن سأل مستفهماً راغباً في العلم ونفي الجهل عن نفسه ، باحثاً عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه : فلا بأس به ، فشفاء العي السؤال . ومن سأل متعنتاً غير متفقه ولا متعلم ، فهو الذي لايحل قليل سؤاله ولا كثيره . قال ابن العربي الذي ينبغي للعالم ان يشتغل به هو بسط الأدلة ، وإيضاح سبل النظر ، وتحصيل مقدمات الاجتهاد ، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد . قال : فإذا عرضت نازلة أتيت من بابها ، ونشدت من مظانها ، والله يفتح وجه الصواب فيها . انتهى .
وقال صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه ما لايعنيه »(١) . رواه

---

(١) صحيح

الترمذي وغيره . ولاشك في تكفير من رد حكم الكتاب ، ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له ، بُين له الصواب ليرجع اليه ، فالله سبحانه وتعالى لايسأل عما يفعل ، لكمال حكمته ورحمته وعدله ، لا لمجرد قهره وقدرته ، كما يقول جهم وأتباعه . وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قول الشيخ : ولانكفر أحداً من اهل القبلة بذنب مالم يستحله .

قوله : (فهذا جملة مايحتاج اليه من هو منوّر قلبه من اولياء الله تعالى ، وهي درجة الراسخين في العلم ، لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود ، وعلم في الخلق مفقود ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولايثبت الايمان الا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود) .

ش : الإشارة بقوله : فهذا . / الى / ماتقدم ذكره ، مما يجب اعتقاده والعمل به ، مما(١) جاءت به الشريعة . وقوله : وهي درجة الراسخين في العلم . أي علم ما جاء به الرسول جملة وتفصيلا ، نفياً وإثباتاً . ويعني بالعلم المفقود ، علم القدر الذي طواه الله عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه . ويعني بالعلم الموجود ، علم الشريعة ، اصولها وفروعها ، فمن انكر شيئاً مما جاء به الرسول كان من الكافرين ، ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين . قال تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول) الجنّ : ٢٦ ـ ٢٧ ، الآية وقال تعالى : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم مافي الأرحام ، وماتدري نفس ماذا تكسب غداً وماتدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير) لقمان : ٣٤ . ولايلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها ، ولا من جهلنا انتفاء حكمته(٢) . ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات ، التي لايعلم منها إلا

---

(١) في الاصل : متى .

(٢) في الاصل : ولاانتفاؤها جهلنا حكمته .

المضرة : لم ينف أن يكون الله تعالى خالقاً لها ، ولايلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا ، لأن عدم العلم لايكون علما بالمعدوم .

قوله : (ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع مافيه قد رقم) .

ش : قال تعالى : (بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ) البروج : ٢١-٢٢
وروى الحافظ ابو القاسم الطبراني بسنده الى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ان الله خلق لوحاً محفوظاً ، من درة بيضاء ، صفحاتها ياقوتة حمراء ، قلمه نور وكتابه نور ، لله فيه كل يوم ستون وثلاثمئة لحظة ، / وعرضه مابين السماء والارض ، ينظر فيه كل يوم ستين وثلاثمائة نظرة / ، يخلق ويرزق ويميت ويحيي ، ويعز ويذل ويفعل مايشاؤه »(١) . اللوح المذكور هو الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه ، والقلم المذكور هو الذي خلقه الله وكتب به في اللوح المذكور المقادير ، كما في « سنن أبي داود » ، عن عبادة بن الصامت ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « / إن / اول ماخلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : يارب ، وما/ ذا/ اكتب؟

---

(١) ضعيف ، رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣/١٦٥/١) ، وفيه زياد بن عبدالله وهو البكائي عن ليث وهو ابن ابي سليم وكلاهما ضعيف ، وقد رواه (٣/٨٨/٢) من طريق أخرى نحوه عن ابن عباس موقوفاً عليه ، واسناده يحتمل التحسين ، فان رجاله كلهم ثقات غير بكير بن شهاب وهو الكوفي قال فيه ابو حاتم : « شيخ » ، وذكره ابن حبان في « الثقات » (٢/٣٢) .

(تنبيه) : كان الحديث محرفاً في مطبوعة احمد شاكر ، وكان هو صححه من « مجمع الزوائد » الذي أورد الحديث عن ابن عباس موقوفاً ، وصححناه نحن من حديثه المرفوع من « المعجم » وهو الصواب لأن المؤلف ساقه من الطريق المرفوعة فلا يصح تصحيح ما وقع فيه من التحريف من الطريق الموقوفة ، كما لايخفى ، لإختلاف لفظيها ؛ كما أشرت الى ذلك بقولي : « نحوه » .

قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة »(١) .

واختلف العلماء : هل القلم اول المخلوقات ، او العرش ؟ على قولين ، ذكرهما

---

(١) صحيح ، غير انني متوقف في صحة الحرف الذي استدل به المؤلف وهو «فقال» فقد جاء في بعض الروايات بلفظ : « ثم قال » ، فأخرجه ابو داود (٤٧٠٠) من طريق ابي حفصة قال : قال عبادة بن الصامت فذكره بلفظ « فقال .... »

قلت : وابو حفصة اسمه حبيش بن شريح الشامي لم يوثقه غير ابن حبان ، وفي « التقريب » : « مقبول » يعني عند المتابعة ، والا فلين الحديث كما نص عليه في المقدمة ، وقد توبع ، لكن الطريق الى المتابع لا يصح ، فقال الطيالسي : (٥٧٧) حدثنا عبدالواحد بن سليم عن عطاء بن ابي رباح حدثني الوليد ابن عبادة بن الصامت عن ابيه به .. ومن طريق الطيالسي رواه الترمذي (٢/٢٣٢) وقال : « حديث حسن غريب ، وفيه عن ابن عباس » .

قلت : وعبد الواحد هذا ضعيف كما في « التقريب » .

وقد خالفه ايوب بن زياد فقال : حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة حدثني ابي به لكنه قال : « ثم قال اكتب . . . . »

وهذا أخرجه احمد (٥/٣١٧) وسنده حسن ، رجاله كلهم ثقات معروفون غير زياد هذا ، وقد روى عنه جماعة ، ووثقه ابن حبان ، فهو حسن الحديث ان شاء الله تعالى ، لكن قد اخرجه الآجري في « كتاب الشريعة » (ص ١٧٧) من طريقه بلفظ « فقال له : اجر . . . » .

ورواه يزيد بن ابي حبيب عن الوليد بن عبادة به بلفظ : «ثم قال له اكتب».

ورجاله ثقات غير ابن لهيعة فانه سيء الحفظ .

ويشهد له حديث ابي هريرة بلفظ :

« ان اول شيء خلق الله عز وجل القلم ، ثم خلق النون وهي الدواة ، ثم قال : =

الحافظ أبو العلاء الهمداني ، أصحها : أن العرش قبل القلم ، لما ثبت في « الصحيح » من حديث عبدالله بن عمرو ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة ، / قال / : وعرشه على الماء »(١) . فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش ، والتقدير وقع عند اول خلق القلم ، بحديث عبادة هذا. ولايخلو قوله : «أول ماخلق الله القلم» إلخ - إما أن يكون جملة او جملتين . فإن كان جملة ، وهو الصحيح ، كان معناه أنه عند اول خلقه قال له : « اكتب » ،/ كما في اللفظ : « أول ماخلق الله القلم قال له : اكتب / » بنصب « أولَ » و« القلمَ » ، وإن كان جملتين ، وهو مروي برفع

= اكتب ... » الحديث.

رواه الآجري والواحدي في تفسيره (٢/١٥٧/٤) وفيه الحسن ابن يحيي الخشني مختلف فيه ، وفي « التقريب » « صدوق كثير الغلط » .

وبالجملة ، فالروايات في هذا الحرف مختلفة ، ولذلك فانه لايتم للمصنف الاستدلال بالرواية الاولى على تقدم خلق العرش على القلم ، حتى يثبت ارجحيتها على الاخرى : « ثم قال ... » ، واذا كان لابد من الترجيح بينهما ، فالأخرى ارجح من الاولى لاتفاق اكثر الرواة عليهـا ، ولان لها شاهداً عن ابي هريرة كما تقدم ، ولانها تتضمن زيادة في المعنى ، وعليه فلا تعارض بين الحديث على هذه الرواية وبين حديث عبدالله بن عمرو ، لان حديثه صريح في ان الكتابة تأخرت عن خلق العرش ، والحديث على الرواية الراجحة صريح في ان القلم اول مخلوق ، ثم أمر بأن يكتب كل شيء يكون ، ومنه العرش ، فالارجح عندي ان القلم متقدم على العرش . والله اعلم .

وفي الحديث اشارة لطيفة الى الرد على من يقول من العلماء بحوادث لا أول لها ، وأنه مامن مخلوق الا وهو مسبوق بمخلوق وهكذا الى مالا اول له ! فتأمل.

(١) صحيح وتقدم .

« أولُ » و « القلم » ، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ، فيتفق الحديثان ، إذ حديث عبدالله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم . وفي اللفظ الآخر : « لما خلق الله القلم قال له : اكتب» فهذا القلم اول الاقلام وأفضلها وأجلها . وقد قال غير واحد من أهل التفسير : انه القلم الذي أقسم الله به في قوله تعالى : (ن . والقلم ومايسطرون) القلم : ١ ، ٢ . والقلم الثاني : قلم الوحي : وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم . والأقلام كلها خدم لأقلامهم. وقد رفع النبي صلى الله عليه وسلم لله ليلة أسري به الى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، فهذه الاقلام هي التي تكتب مايوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبرها ، أمر العالم العلوي والسفلي .

قوله : (فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ، ليجعلوه غير كائن - لم يقدروا عليه . ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه، ليجعلوه كائناً - لم يقدروا عليه . جفّ القلم بماهو كائن الى يوم القيامة).

ش : تقدم حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال : يارسول الله ، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ، فيم العمل اليوم ، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما استقبل ؟ قال : « لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير »(١) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فقال : ياغلام ألا اعلمك كلمات : « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء

---

(١) صحيح وتقدم .

لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » (١)
رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح . وفي رواية غير الترمذي : « احفظ الله تجده أمامك ، تعرّف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما اخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

وقد جاءت « الأقلام » في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة ، فدل ذلك على أن للمقادير أقلاماً غير القلم الأول ، الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ .

والذي دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة ، وهذا التقسيم غير التقسيم المقدم (٢) ذكره : القلم الأول : العام الشامل لجميع المخلوقات ، وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح . القلم الثاني : خبر (٣) خلق آدم ، وهو قلم عام أيضا ، لكن لبني آدم ، ورد في هذا آيات تدل على أن الله قـدّر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقيب خلق أبيهم القلم الثالث : حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه ، فينفخ فيـه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقـه ، وأجله ، وعملـه ، وشقي أو سعيد (٤) . كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة . القلم الرابع : الموضوع على العبد عند بلوغه ، الذي بأيدي الكرام الكاتبين ، الذين يكتبون مايفعله بنو آدم ، كما ورد في الكتاب والسنة .

واذا علم العبد أن كلا من عند الله ، فالواجب إفراده سبحانه بالخشية والتقوى : قال تعالى : (فلا تخشوا الناس واخشون) المائـدة : ٤٤ . (وإياي فارهبون) البقرة : ٤٠ . (وإياي فاتقون) البقرة : ٤١ . (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) النور : ٥٢ . (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) المدثر : ٥٦ . ونظائر هذا المعنى في القرآن كثيرة . ولابد لكل عبد أن يتقي أشياء ،

---

(١) صحيح لغيره . (٢) في الاصل : المتقدم .
(٣) في الاصل : حين . (٤) متفق عليه .

فإنه لا يعيش وحده ، ولو كان ملكاً مطاعاً فلا بد أن يتقي أشياء يراعي بها رعيته ، فحينئذ فلا بد لكل إنسان أن يتقي ، فإن لم يتق الله اتقى المخلوق ، والخلق لا يتفق حبهم كلهم وبغضهم ، بل الذي يريده هـذا يبغضه هذا ، فلا يمكن إرضاؤهم كلهم ، كما قال الشافعي رضي الله عنه : رضى الناس غاية لا تدرك ، فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه ، ودع ماسواه فلا تعانه . فإرضاء الخلق لا مقدور ولا مأمور ، وإرضاء الخالق مقدور(١) ومأمور . / و / أيضاً فالمخلوق لا يغني عنـه من الله شيئاً ، فإذا اتقى العبد ربه كفاه مؤنة الناس . كما كتبت عائشة الى معاوية ، روي مرفوعاً ، وروي موقوفاً عليها : من أرضى الله بسخط الناس ، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله ، عاد حامده من الناس / له / ذاماً(٢) . فمن أرضى الله كفاه مؤنة الناس ورضي عنه ، ثم فيما بعد يرضون ، إذ العاقبة للتقوى ،

---

(١) في الأصل : فمقدور .

(٢) صحيح ، رواه الترمذي (٢/٦٧) من طريق عبدالوهاب بن الورد عن رجل من أهل المدينة قال : كتب معاوية الى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن اكتبي لي كتابا وصيني فيه ، ولا تكثري علي ، فكتبت عائشة رضي الله عنها الى معاوية : سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضى الله بسخط الناس ، كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضى الناس بسخط الله ، وكله الله الى الناس ، والسلام عليك » . ثم رواه من طريق هشام بن عروه عن أبيه عن عائشة انها كتبت الى معاوية فذكر الحديث بمعناه ، ولم يرفعه .

قلت : والمرفوع اسناده ضعيف لجهالة الرجل الذي لم يسم .

وأما الموقوف فسنده صحيح رجاله كلهم ثقات .

ورواه عثمان بن واقـد عن أبيه عن محمد بن المنكـدر عن عروة بن الزبير بـه مرفوعاً بلفظ :

« من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه ، وأرضى عنه الناس ، ومن =

ويحبه الله فيحبه الناس ، كما في « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: اذا أحب الله العبد نادى : ياجبرائيل ، إني أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبرائيل ، ثم ينادي جبرائيل في السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض »(١) ، وقال في البغض مثل ذلك . فقد بين أنه لابد لكل مخلوق من أن يتقي إما المخلوق ، واما الخالق . وتقوى المخلوق ضررها راجح

= التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه ، وأسخط عليه الناس » .

رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (ق ٢/٤٢) ومشرق بن عبدالله في «حديثه» (ق ٢/٦١) وابن عساكر (١/٢٧٨/١٥) .

قلت : وهذا سند حسن ، رجاله كلهم ثقات معروفون ، وفي عثمان ابن واقد كلام لاينزل حديثه عن رتبة الحسن وفي « التقريب » : « صدوق ربما وهم » .

وروى بعضه ابن بشران في « الأمالي » (١٤٥/١٤٤) وابن الاعرابي في «معجمه» (١/٨٢) وابو القاسم المهراني في « الفوائد المنتخبة » (١/٢٣/٣) وابن شاذان الأزجي في « الفوائد المنتقاة » (٢/١١٨/١) و « القضاعي » (٢/٤٢) عن قطبة بن العلاء بن المنهال الغنوي ثنا أبي عن هشام بن عروة به بلفظ :

« من طلب محامد الناس بمعصية الله عاد حامده ذاما » .

وقال المهراني :

« حديث غريب ، لاأعلم رواه عن هشام غير العلاء بن المنهال » .

وروي عنه بلفظ :

« من التمس محامد الناس بمعاصي الله تعالى عاد حامده من الناس ذاما له » .

رواه الخرائطي في « مساويء الاخلاق » (٢/٥/٢) والعقيلي في « الضعفاء » (٣٢٥) وابن عدي في « الكامل » (ق ٢/٢٧٢) وأبو الحسن ابن الصلت في =

(١) صحيح متفق عليه .

على نفعها من وجوه كثيرة ، وتقوى الله هي التي يحصل بها(١) سعادة الدنيا والآخرة ، فهو سبحانه أهل التقوى ، وهو أيضاً أهل المغفرة ، فإنه هو الذي يغفر الذنوب ، لايقدر مخلوق على أن يغفر الذنوب ويجير من عذابها غيره ، وهو الذي يجير ولا يجار عليه . قال بعض السلف : مااحتاج تقي قط ، لقوله تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب) الطلاق : ٢-٣ ، فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجاً مما يضيق على الناس ، وأن يرزقهم من حيث لايحتسبون ، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللا ، فليستغفر الله وليتب إليه ، ثم قال تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) الطلاق : ٣ ، أي فهو كافيه ، لايحوجه الى غيره .

وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب ، وأن الامور إذا كانت مقدرة فلا حاجة الى الأسباب ! وهذا فاسد ، فإن الاكتساب : منه فرض ، ومنه مستحب ، ومنه مباح ، ومنه مكروه ، ومنه حرام ، كما قد عرف

= حديث ابن عبدالعزيز الهاشمي (ق ١/٧٦) وقال العقيلي :

« العلاء بن المنهال لايتابع عليه ، ولايعرف الا به » .

وقال ابن عدي : « وليس بالقوي » .

قلت : وأما ابن حبان فذكره في « الثقات » !

ثم قال العقيلي :

« ولا يصح في الباب مسند ، وهو موقوف من قول عائشة » .

قلت : الصواب عندي أن الحديث صحيح موقوفا ومرفوعا ، أما الموقوف فظاهر الصحة ، واما المرفوع ، فلانه جاء من طريق حسنة عن عثمان بن واقد كما تقدم ، فاذا انضم اليه طريق الترمذي ارتقى الحديث ان شاء الله الى درجة الصحة .

(١) في الاصل : لها .

في موضعه. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أفضل المتوكلين ، يلبس لأمةَ الحرب ويمشي في الأسواق للاكتساب ، حتى قال الكافرون : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) الفرقان : ٧ . ولهذا تجد كثيراً ممن يرى الاكتساب ينافي التوكل يرزقون على يد من يعطيهم ، إما صدقة ، واما هدية ، وقد يكون / ذلك / من مكاس ، او والي شرطة ، او نحو ذلك ، وهذا مبسوط في موضعه ، لايسعه هذا المختصر . وقد تقدمت الإشارة الى بعض الأقوال التي في / تفسير / قوله تعالى : (يمحو الله مايشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب) الرعد : ٣٩ ، وأما قوله تعالى : (كل يوم هو في شأن) الرحمن : ٢٩ - فقال البغوي . قال مقاتل : نزلت في اليهود حين قالوا : ان الله لايقضي يوم السبت ! قال المفسرون : من شأنه أنه يحيي ويميت ، ويرزق ، ويعز قوماً ويذل آخرين ، ويشفي مريضاً ، ويفك عانياً ، ويفرج مكروبا ، ويجيب داعياً ، ويعطي سائلا ،ويغفر ذنباً ، الى مالايحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه مايشاء .

قوله : (وما اخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه) .

ش : هذا بناء على ماتقدم من أن المقدور كائن لامحالة ، ولقد أحسن القائل حيث يقول :

ماقضى الله كائن لامحاله   والشقي الجهول من لام حاله

والقائل الآخر :

اقنع بما ترزق ياذا الفتى   فليس ينسى ربنا نمله

إن اقبل الدهر فقم قائماً   وان تولى مدبراً نم له

قوله : (وعلى العبد ان يعلم ان الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه ، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً ، ليس فيه ناقض ، ولامعقب ولا مزيل ولامغير ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه) .

ش : هذا بناء على ماتقدم من أن الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات ، وانه قدر مقاديرها قبل خلقها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « قدر الله مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة ، وعرشه على الماء » . فيعلم ان الله قد علم ان الأشياء تصير موجودة لأوقاتها ، على ما اقتضته حكمته البالغة / فكانت كما علم / . فإن حصول المخلوقات على مافيها من غرائب الحكم لايتصور إلا من عالم قد سبق علمه على ايجادها . قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) الملك : ١٤ . وأنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالماً في الأزل ، وقالوا : إن الله تعالى لايعلم أفعال العباد / حتى يفعلوا / ! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : ناظروا القدرية بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن انكروا كفروا . فإن الله / تعالى / يعلم أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه ، وهذا مستطيع لايفعل ما استطاعه فيعذبه ، فإنما يعذبه لأنه لايفعل مع القدرة وقد علم الله ذلك منه ، ومن لايستطيع لايأمره ولايعذبه على مالم يستطعه .

وإذا قيل : فيلزم ان يكون العبد قادراً على تغيير علم الله ، لأن الله علم أنه لايفعل ، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله ؟ قيل : هذه مغالطة ، وذلك ان مجرد قدرته على الفعل لاتستلزم تغيير العلم ، وإنما يظن من يظن تغيير العلم اذا وقع الفعل ، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه لاعدم وقوعه ، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه ، بل إن وقع كان الله قد علم أنه يقع ، وإن لم يقع كان الله قد علم انه لايقع . ونحن لانعلم علم الله الا بما يظهر ، وعلم الله مطابق للواقع ، فيمتنع ان يقع شيء يستلزم تغيير العلم ، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم والعبد الذي لم يفعل لم يأت بما يغير العلم ، / بل هو قادر على فعل لم يقع ، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع ، لا أنه لايقع .

قوله : (وذلك من عقد(١) الأيمان وأصول المعرفة والأعتراف بتوحيدالله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى في كتابه : (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) الفرقان : ٢ . وقال تعالى : (وكان أمر الله قدرا مقدورا) الاحزاب : ٣٨.

ش : الإشارة إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها . قال صلى الله عليه وسلم في جواب السائل عن الإيمان : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث : « ياعمر ، أتدري من السائل ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبرائيل ، أتاكم يعلمكم دينكم » . رواه مسلم .

وقوله : والاقرار بتوحيد الله وربوبيته ، أي لايتم التوحيد والاقرار بالربوبية إلا بالإيمان بصفاتـــه تعالى ، فإن من زعم خالقاً غير الله فقد أشرك ، فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله ؟! ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة ، وأحاديثهم في « السنن » . وروى أبو داود عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم ،وإن ماتوا فلا تشهدوهم»(٣) وروى أبو داود أيضاً عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة مجوس ، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لاقدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته ، ومن مرض منهم فلا تعودوهم ، وهم شيعة الدجال ، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال »(٤) . وروى أبو داود أيضاً عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « لاتجالسوا أهل

(١) في الاصل : عقائد .

(٢) صحيح ، رواه مسلم عن عمر ، والبخاري ومسلم ايضا عن ابي هريرة نحوه .

(٣) اسناده ضعيف ، لكن له طرق يتقوى بها .

(٤) اسناده ضعيف .

القدر ولا تفاتحوهم »(١) . وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صنفان من بني آدم ليس لهم في الإسلام
نصيب : المرجئة والقدرية »(٢) . لكن كل احاديث القدرية المرفوعة ضعيفة وإنما
يصح الموقوف منها : فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : القدر نظام التوحيد،
فمن وحد الله وكذّب بالقدر نقض(٣) تكذيبُه توحيدَه »(٤) . وهذا لأن الإيمان
بالقدر يتضمن الايمان بعلم الله القديم وما اظهر من علمه الذي لايحاط به وكتابة
مقادير الخلائق . وقد ضل في هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة
وغيرهم ، ممن ينكر علمه بالجزئيات او بغير ذلك ، فإن ذلك كله مما يدخل في
التكذيب بالقدر . واما قدرة الله على كل شيء فهو الذي يكذب به القدرية جملة ،
حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد ، فأخرجوها عن قدرته وخلقه .

والقدر ، الذي لاريب في دلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه ، وأن الذي
جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع : هو ما قدره الله من مقادير العباد . وعامة
مايوجد من كلام الصحابة والأئمة في ذم القدرية يعني به هؤلاء ، كقول ابن عمر
رضي الله عنهما ، لما قيل له : يزعمون أن لاقدر وأن الأمر انُف : اخبرهم اني منهم
بريء وانهم مني برآء .

والقدر ، الذي هو التقدير المطابق للعلم : يتضمن اصولا عظيمة : احدها :
انه عالم بالأمور المقدرة قبل كونها ، فيثبت علمه القديم ، وفى ذلك الرد على من

---

(١) اسناده ضعيف .

(٢) اسناده ضعيف ولا يغتر بتصحيح صاحب التاج اياه .

(٣) في الاصل : نقص .

(٤)ضعيف موقوفاً ومرفوعا ، اما الموقوف فرواه اللالكائي في « شرح السنة »
(١/١٤٢/١ ، ٢/٢٦٢/٦) وفيه من لم يسم ، واما المرفوع ، فرواه الطبراني في
الاوسط وفيه هانيء بن المتوكل وهو ضعيف .

ينكر علمه القديم . الثاني : ان التقدير يتضمن مقادير المخلوقات ، ومقاديرها هي صفاتها المعينة المختصة بها ، فإن الله قد جعل لكل شيء قدراً ، قال تعالى : (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) الفرقان : ٢ . فالخلق يتضمن التقدير ، تقدير الشيء في نفسه ، بأن يجعل له قدراً ، وتقديره قبل وجوده . فإذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذي يخصه في كميته وكيفيته ، كان ذلك ابلغ في العلم بالأمور الجزئية المعينة ، خلافاً لمن انكر ذلك وقال : إنه يعلم الكليات دون الجزئيات ! فالقدر يتضمن العلم القديم والعلم بالجزئيات . الثالث : انه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخباراً مفصلا ، فيقضي أنه يمكن أن يعلم العباد الأمور قبل وجودها علماً مفصلا ، فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق اولى بهذا العلم ، فإنه إذا كان يعلم عباده بذلك فكيف لايعلمه هو ؟! الرابع : انه يتضمن انه مختار لما يفعله ، محدث له بمشيئته وإرادته ، ليس لازماً لذاته . الخامس : انه يدل على حدوث هذا المقدور ، وانه كان بعد ان لم يكن ، فإنه يقدره ثم يخلقه .

قوله : (فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيما ، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيما ، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيما ، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيما) .

ش : / اعلم ان / القلب له حياة وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك اعظم مما للبدن . قال تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) الانعام : ١٢٢ . أي كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان . فالقلب الصحيح الحي إذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت اليها ، بخلاف القلب الميت ، فإنه لايفرق بين الحسن والقبيح ، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر(١) . وكذلك القلب المريض بالشهوة ، فإنه لضعفه يميل الى مايعرض له من

(١) لااعرفه .

ذلك بحسب قوة المرض وضعفه .

ومرض القلب نوعان ، كما تقدم : مرض شهوة ، ومرض شبهة ، واردؤها مرض الشبهة ، واردأ الشبه ما كان من أمر القدر . وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولايشعر(١) به صاحبه ، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابهـا ، بل قد يموت وصاحبه لايشعر بموته ، وعلامة ذلك أنه لاتؤلمه جراحات القبائح ، ولايوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة . فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه ، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته . * ما لجرح بميت إيلام * وقد يشعر بمرضه ، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها ، فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء فإن دواءه في مخالفة الهوى ، وذلك أصعب شـيء على النفس ، وليس له انفع منه ، وتارة يوطن نفسه على الصبر ، ثم ينفسـخ عزمه ولايستمر معه ، لضعف علمه وبصيرته وصبره ، كمن دخل في طريق مخوف مفض الى غاية الأمن ، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف واعقبه الامن ، فهو محتاج الى قوة صبر وقوة يقين بما يصير اليه ، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها ، ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحـدة وجعل يقول : أين ذهب الناس فلي أسوة بهم ! وهذه حال اكثر الخلق ، وهي التي اهلكتهم . فالصابر(٢) الصادق لايستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده ، إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الاول ، (الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا) النساء : ٦٩ .

وما أحسن ماقال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة - في كتاب « الحوادث والبدع » - : حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة ، فالمراد لزوم الحق واتباعه ، وإن كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيراً ، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، ولا

(١) في الأصل : يعرف .

(٢) في الاصل : فالبصير :

ننظر الى كثرة اهل الباطل بعدهم . وعن الحسن البصري رحمه الله أنه قال : السنة - والذي لا اله الا هو - بين الغالي والجافي ، فاصبروا عليها رحمكم الله ، فإن اهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى ؛ وهم اقل الناس فيما بقي ، الذين / لم / يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ، ولا مع اهل البـدع في بدعتهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك فكونوا .

وعلامة مرض القلب عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة ، إلى الأغذية الضارة وعدوله عن دوائه النافع ، إلى دوائه الضار . فههنا أربعة أشياء : غـذاء نافع ، ودواء شاف ، وغذاء ضار ، ودواء مهلك . فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي، على الضار المؤذي ، والقلب المريض بضد ذلك . وأنفع الأغذية غـذاء الإيمان ، وأنفع الأدوية دواء القرآن ، وكل منهما فيه الغذاء والدواء ، فمن طلب الشفاء في غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين وأضل الضالين ، فإن الله تعالى يقول : (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد) فصلت : ٤٤ . وقال تعالى : (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلا خساراً) الاسراء : ٨٢ . و«من» في قوله : «من القرآن» لبيان الجنس ، لا للتبعيض . وقال تعالى : (ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهـدى ورحمة للمؤمنين) يونس : ٥٧ . فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبيـة والبدنيـة ، وأدواء الدنيا والآخرة ، وماكل أحد يؤهل للاستشفاء به . وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبـول تامّ واعتقاد جازم واستيفاء شروطه : لم يقاوم الداءُ أبداً . وكيف تقاوم الأدواءُ كلامَ ربّ الأرض والسماء ، الذي لو نزل على الجبال لصدّعها ، أو على الأرض لقطّعها ؟! فما من مرض /من أمراض/ القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحِمية منه ، لمن رزقه الله فهماً في كتابه .

وقوله : لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرّاً كتيما ، أي طلب بوهمه

في البحث عن الغيب سراً مكتوماً ، إذ القدر سر الله في خلقه ، فهو يروم ببحثه الأطلاع على الغيب ، وقد قال تعالى : (عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول) الجن : ٢٦ ، ٢٧ ، الى آخر السورة . وقوله : وعاد بما قال فيه ، أي في القدر : أفاكاً أثيما ، أي مأثوماً .

وقوله : (والعرش والكرسي حق) .

ش : كما بين تعالى في كتابه ، قال تعـالى : (ذو العرش المجيد . فعال لما يريد) البروج : ١٥-١٦ . (رفيع الدرجات ذو العرش) غافر : ١٥ . (ثم استوى على العرش) الاعراف : ٥٣ ، في غير ما آية من القرآن(١) : (الرحمن على العرش استوى) طه : ٥ . (لا إله إلا هو رب العرش الكريم) المؤمنون : ١١٧. (الله لا إله إلاهو رب العرش العظيم) النمل : ٢٦ . (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين امنوا) غافر : ٧ . (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) الحاقة : ١٧ . (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) الزمر : ٧٥ . وفي دعاء الكرب المروي في « الصحيح » : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم(٢) .

وفي « صحيح » البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وفوقه عرش الرحمن »(٣) . يروى « وفوقه » بالنصب على الظرفية ، وبالرفع على الابتداء ، أي : وسقفه :

(١) الاعراف :٥٣ ، ويونس : ٣ ، والرعد :٢ ، والفرقان :٥٩ ، والم السجدة: ٤ ، والحديد ٤ .

(٢) متفق عليه .

(٣) صحيح .

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ، وربما سموه : الفلكَ الأطلس ، والفلكَ التاسع ! وهذا ليس بصحيح ، لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري افاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور »(١).

والعرش في اللغة : عبارة عن السرير الذي للمَلِك ، كما قال تعالى عن بلقيس : (ولها عرش عظيم) النمل : ٢٣ . وليس هو فلكاً ، ولا تفهم منه العرب ذلك ، والقرآن إنما نزل بلغة العرب ، فهو : سرير ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العالم ، وهو سقفُ المخلوقات . فمن شعر أمية بن أبي الصلت :

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربنا فى السماء أمسى كبيرَا

بالبناء العالي الذي بهر النا ... س وسوى فوق السماء سريرَا

شرجعاً لا يناله بصر العين ... ترى حوله الملائك صُورَا

الصور هنا : جمع : اصور ، وهو المائل العنق لنظره الى العلو . والشرجع : هو العالي المنيف . والسرير : هو العرش فى اللغة . ومن شعر عبدالله بن رواحة رضي الله عنه ، الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته :

شهدتُ بأن وعد الله حق ... /وأن/ النار مثوى الكافرينَا

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوقَ العرش رب العالمينَا

وتحمله ملائكةٌ شداد ... ملائكة الإله مسوَّمينا

ذكره ابن عبد البر وغيره من الأئمة ، وروى أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش ، إن ما بين /شحمة/ أذنه إلى عاتقه مسيرةُ سبعمائة عام »(٢) . ورواه

---

(١) صحيح متفق عليه .

(٢) صحيح ، رواه أبو داود وغيره .

ابن أبي حاتم ولفظه : « تخفق الطير سبعمائة عام » .

وأما من حرف كلام الله ، وجعل العرش عبـارة عن الملك ، كيف يصنع بقوله تعالى : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) الحاقـة : ١٧ . وقوله : (وكان عرشه على المـاء) هود : ٧ . أيقول : ويحمل ملكه يومئذ ثمانية ؟! وكان ملكه على الماء ! ويكون موسى عليه السلام آخـذاً بقائمة من قوائم الملك ؟! هـل يقول هذا عاقل يدري ما يقول ؟!

وأما الكرسي فقال تعالى : (وسع كرسيه السموات والأرض) البقرة: ٢٥٥. وقد قيل : هو العرش . والصحيح أنه غيره ، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره . روى ابن أبي شيبة في كتاب «صفة العرش» ، والحاكم في «مستدركه» وقال : إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، في قوله تعالى : (وسع كرسيه السموات والأرض) البقرة : ٢٥٥ ، أنه قال : الكرسي موضع القدمين ، والعرش لايقدّر قدره إلا الله تعـالى(١) . وقد روي مرفوعا ، والصواب أنـه موقوف على ابن عباس . وقال السـدي : السموات والأرض فى جوف الكرسـي بين يدي العرش . وقال ابن جرير : قال أبو ذر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الارض »(٢) . وقيل : كرسـيه علمه ، وينسب الى ابن عباس . والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة ، كما تقدم . ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن . والظاهر أنه من جراب الكلام المذموم ، كما قيل في العرش . وإنما هو ـ كما قال غير واحد من السلف ـ: بين يدي العرش كالمرقاة إليه .

---

(١) صحيح موقوفا ، وأما المرفوع فضعيف ، كما بينته في تخريج كتاب « ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان » للآلوسي ، وقد طبعه المكتب الاسلامى قريبا .

(٢) صحيح .

قوله : (وهو مستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شيء وفوقه ، وقد أعجز عن الاحاطة خلقه) .

ش : أما قوله : وهو مستغن عن العرش وما دونه . فقال تعالى : (إن الله لغني عن العالمين) العنكبوت : ٦ . وقال تعالى : (والله هو الغني الحميد) فاطر : ١٥ . وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا ، لأنه لما ذكر العرش والكرسي ، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش ، ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه ، ليس لحاجته إليه ، بل له في ذلك حكمة اقتضته ، وكون العالي فوق السافل ، لا يلزم أن يكون السافل حاوياً للعالي ، محيطاً به ، حاملا له ، /ولا/ أن يكون الأعلى(١) مفتقراً إليه . فانظر الى السماء ، كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة اليها ؟ فالرب تعالى أعظم شأناً وأجلّ من أن يلزم من علوّه ذلك ، بل لوازم علوه من خصائصه ، وهي حمله بقدرته للسافل ، وفقرُ السافل ، وغناه هو سبحانه عن السافل ، وإحاطتهُ عز وجل به ، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته ، وغناه عن العرش ، وفقر العرش اليه ، وإحاطته بالعرش ، وعدم إحاطة العرش به ، وحصره للعرش ، وعدم حصر العرش له وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق .

ونفاةُ العلوّ ، /أهلُ التعطيل/ ، لو فصّلوا بهذا التفصيل ، لهُدوا الى سواء السبيل ، وعلموا مطابقة العقل للتنزيل ، ولسلكوا خلف الدليل ، ولكن فارقوا الدليل فضلّوا عن سواء السبيل . والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رحمه الله ، لما سئل عن قوله تعالى : (ثم استوى على العرش) الاعراف : ٥٣ وغيرها : كيف استوى ؟ فقال الاستواء معلوم والكيف مجهول .

وأما قوله : محيط بكل شيء وفوقه ، وفي بعض النسخ : محيط بكل شيء فوقه ، /بحذف الواو/ من قوله : فوقه ، والنسخة الأولى هي الصحيحة ، ومعناها :

---

(١) في الأصل : للاعلاء .

أنه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شيء . ومعنى الثانية : أنه محيط بكل شيء فوق العرش . وهـذه - والله أعلم - إما أن يكون أسقطها بعض النساخ سهواً ، ثم استنسخ بعض الناس من تلك النسخة ، أو أن بعض المحرفين الضالين أسقطها قصداً للفساد ، وإنكاراً لصفة الفوقية ! وإلا فقد قام الدليل على أن العرشَ فوقَ المخلوقات وليس فوقه شيء من المخلوقات ، فلا يبقى لقوله : محيط - بمعنى : محيط بكل شيء فوق العرش - ، والحالة هذه : معنى ! إذ ليس فوق العرش من المخلوقات ما يحيط به ، فتعين ثبوت الواو . ويكون المعنى : أنه سبحانه محيط بكل شيء ، وفوق كل شيء .

أما كونه محيطا بكل شيء ، فقال تعالى : (والله من ورائهم محيط) البروج . ٢٠ . (ألا إنه بكل شيء محيط) حم السجدة : ٥٤ . (ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً) النساء : ١٢٥ . وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك ، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وإنما المراد : إحاطة عظمته ، وسَعَةُ علمه وقدرته(١) ، وأنها بالنسبة الى عظمته كخردلة . كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم . ومن المعلوم - ولله المثل الأعلى - أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة ، إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها ، وان شاء جعلها تحته ، وهو في الحالين مباين لها ، عال عليها فوقها من جميع الوجوه ، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف . فلو شاء لقبض السموات والأرض اليوم ، وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة ، فإنه لا يتجدد به إذ ذاك قدرة ليس عليها الآن ، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوق

---

(١) في الاصل : احاطة عظمة وسعة وعلم وقدرة . وكلا العبارتين حسن ، وهو من التأويل الذي ينقمه الشارح ، مع أنه لابد منه احيانا .

سمواته ؟ أو يدني إليه من يشاء من خلقه ؟ فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره . وفي حديث أبي رَزين المشهور الذي رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم في رؤية الرب تعالى : فقال له أبو رزين : كيف يسعنا - يارسول الله - وهو واحد ونحن جميع ؟ فقال : سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله : هذا القمر ، آية من آيات الله ، كلكم يراه مخليا به ، والله اكبر من ذلك ، وإذا أفل تبين أنه أعظم واكبر من كل شيء(١) . فهذا يزيل كل إشكال ، ويبطل كل خيال .

وأما كونه فوق المخلوقات ، فقال تعالى : (وهو القاهر فوق عباده) الانعام : ١٨ و ٦١ . (يخافون ربهم من فوقهم) النحل : ٥٠ . وقال صلى الله عليه وسلم في حديث الأوعال : « والعرش فوق ذلك ، والله فوق ذلك كله »(٢) . وقد أنشد عبدالله بن رواحة شعره المذكور بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقره على ماقال ، وضحك منه(٣) . وكذا أنشده حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه قوله :

شهدت بإذن الله أن محمداً ... رسول الذي فوق السموات من علُ
وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما ... له عمل من ربه متقبل
وأن الذي عادى اليهود ابن مريم ... رسول أتى من عند ذي العرش مرسل
وأنا أخا الأحقاف إذ قام فيهم ... يجاهد في ذات الإله ويعدل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وأنا أشهد »(٤) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لما قضى الله الخلق كتب في

---

(١) ضعيف الاسناد .

(٢) ضعيف .

(٣) ضعيف ، وقول ابن عبد البر « رويناه من وجوه صحاح » فيه نظر ، فقد قال الذهبي في « العلو » (ص١٠٦) معقبا عليه : « روي من وجوه مرسلة ثم ذكرها » .

(٤) ضعيف ، رواه ابن سعد في « الطبقات » بسند ضعيف ومنقطع .

كتاب فهو عنده فوق العرش : أن رحمتي سبقت غضبي »(١) وفي رواية : «تغلب غضبي» رواه البخاري وغيره . وروى ابن ماجه عن جابر يرفعه ، قال« بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا إليه رؤوسهم ، فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم ، وقال : ياأهل الجنة ، سلام عليكم ، ثم قرأ قوله تعالى : (سلام قولا من رب رحيم) يس : ٥٨ . فينظر إليهم ، وينظرون إليه ، فلا يلتفتون الى شيء من النعيم ماداموا ينظرون اليه »(٢) . وروي مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في تفسير قوله تعالى : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) الحديد : ٣ بقوله : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء »(٣) . والمراد بالظهور هنا : العلو . ومنه قوله تعالى : (فما اسطاعوا أن يظهروه) الكهف : ٩٧ ، أي يعلوه . فهذه الأسماء الأربعة متقابلة : اسمان منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبديته ، واسمان لعلوه وقربه . وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن مطعم ، عن أبيه ، عن جده ، قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي ، فقال يارسول الله ، جهدت الأنفس/وضاعت العيال/ونهكت الأموال ،/وهلكت الأنعام/، فاستسق الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك ! أتدري ماتقول ؟ وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : ويحك ! إنه لايستشفع بالله على أحد من خلقه ، شأن الله اعظم من ذلك ، ويحك ! أتدري ما الله ؟ إن الله فوق عرشه ، وعرشه فوق سمواته ، وقال بأصابعه ! مثل

---

(١) متفق عليه .

(٢) ضعيف ، وتقدم ، وقول الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : « واسناده جيد » غير جيد ، لما ذكرته هنالك .

(٣) صحيح .

القبة / عليه / ، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب »(١) . وفي قصة سعد بن معاذ يوم بني قريظة ، لما حكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات »(٢) . وهو حديث صحيح ، أخرجه الاموي في مغازيه ، وأصله في « الصحيحين ».وروى البخاري عن زينب رضي الله عنها : أنها كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات(٣). وعن عمر رضي الله عنه : أنه مر بعجوز ، فاستوقفته ، فوقف معها يحدثها ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، حبست الناس بسبب هذه العجوز ؟ فقال : ويلك ! أتدري من هذه ؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة التي أنزل الله فيها : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله)(٤) المجادلة : ١ أخرجه الدارمي . وروى عكرمة عن ابن عباس ، في قوله : (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) الاعراف : ١٧ قال : ولم يستطع ان يقول من فوقهم ، لأنه قد علم ان الله سبحانه من فوقهم .

---

(١) ضعيف .

(٢) صحيح بدون قوله : « فوق سبع سموات » كذلك هو في « الصحيحين » و « المسند » . وأما هذه الزيادة فتفرد بها محمد بن صالح التمار ، كما في « العلو »(١٠٢) وقال : « وهو صدوق » وفي « التقريب » « صدوق يخطىء »، قلت : فمثله لا يقبل تفرده ، وان صححه المؤلف وكذا الذهبي ، وفي اثبات الفوقية أحاديث صحيحة تغني عن هذا ، وسيذكر المؤلف بعضها .

(٣) صحيح .

(٤) ضعيف . أخرجه ابو سعيد الدارمي في « الرد على الجهمية » (ص ٢٦ ، طبع المكتب الإسلامي) من طريق ابي يزيد المدني عن عمر به . قال الذهبي : (١١٣) « وهذا إسناد صالح فيه انقطاع ، ابو يزيد لم يلحق عمر » .

ومن سمع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام السلف ، وجد منه في إثبات الفوقية مالاينحصر . ولاريب ان الله سبحـانه لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك ، فإنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، فتعين أنه خلقهم خارجاً عن ذاته ، ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات ، مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم ، لكان متصفاً بضد ذلك ، لأن القابل للشيء لايخلو منه او من ضده ، وضد الفوقية : السفول ، وهو مذموم على الإطلاق ، لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده .

فإن قيل : لانسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها . قيل : لو لم يكن قابلا للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها، فمتى أقررتم بأنه ذات قائم بنفسه ، غير مخالط للعالم ، وأنه موجود في الخارج ، ليس وجوده ذهنياً فقط بل وجوده خارج الأذهان قطعاً ، وقـد علم العقلاء كلهم بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو : إما داخل العالم وإما خارج عنه ، وانكار ذلك انكار ماهو أجلى واظهر من الامور البديهيات الضرورية بلاريب ،فلا يستدل على ذلك بدليل إلا كان العلم بالمباينة اظهر منه ، واوضح وأبين . وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال ، لانقص فيه ، ولايستلزم نقصاً ، ولايوجب محذوراً ، ولايخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً ، فنفي حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لاتأتي به شريعة أصلا . فكيف إذا كان لايمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله ،والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله ـ : إلا بذلك ؟فكيف إذا انضم الى ذلك شهادة العقول السليمة ، والفطر/ المستقيمة / ، والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه ، وكونه فوق عباده ،التي تقرب من عشرين نوعاً : أحدها : التصريح بالفوقية مقروناً بأداة من ،المعينة للفوقية بالذات، كقوله تعالى : (يخافون ربهم من فوقهم) النحل: ٥٠ الثاني : ذكرها مجردة عن الأداة ، كقوله تعـالى : (وهو القاهر فوق عباده) الانعام : ١٨ و ٦١ . الثالث : التصريح بالعروج اليه نحو : (تعرج الملائكة)

والروح اليه) المعارج : ٤ . وقوله صلى الله عليه وسلم : « يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم »(١) . الرابع : التصريح بالصعود اليه . كقوله تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب) فاطر : ١٠ . الخامس : التصريح برفعه بعض المخلوقات اليه ، كقوله تعالى : (بل رفعه الله اليه) النساء : ١٥٨ . وقوله : (إني متوفيك ورافعك إليّ) آل عمران : ٥٥ . السادس : التصريح بالعلو المطلق ، الدال على جميع مراتب العلو ، ذاتاً وقدراً وشرفاً ، كقوله تعالى : (وهو العلي العظيم) البقرة : ٢٥٥ . (وهو العلي الكبير) سبأ : ٢٣ . (إنه عليم حكيم) الشورى : ٥١ . السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه ، كقوله تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) غافر : ٢ . (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) الزمر : ١ . (تنزيل من الرحمن الرحيم) فصلت : ٢ . (تنزيل من حكيم حميد) فصلت : ٤٢ . (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) النحل : ١٠٢ . (حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يُفرَق كل امر حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين) الدخان : ١ ـ ٥ . الثامن : التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده ، وأن بعضها أقرب اليه من بعض ، كقوله : (إن الذين عند ربك) الاعراف : ٢٠٦ . (وله من في السموات والأرض ومن عنده) الانبياء : ١٩ . ففرق بين « من له » عموماً وبين « من عنده » من ملائكته وعبيده خصوصاً . وقول النبي صلى الله عليه وسلم فى الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه : « أنه عنده فوق العرش »(٢). التاسع : التصريح بأنه تعالى في السماء ، وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين: إما أن تكون « في » بمعنى « على » ، وإما أن يراد بالسماء العلو ، لايختلفون في ذلك ، ولايجوز الحمل على غيره . العاشر : التصريح بالاستواء مقروناً بأداة

---

(١) متفق عليه ، وهو قطعة من حديث اوله : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » .

(٢) متفق عليه .

« على » مختصاً بالعرش ، الذي هو أعلى المخلوقات ، مصاحباً في الأكثر لأداة : «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة. الحادي عشر : التصريح برفع الأيدي الى الله تعالى ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يستحي من عبده إذا رفع اليه يديه أن يردهما صفراً »(١). والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط - باطل بالضرورة والفطرة ، وهذا يجده من نفسه كل داع ، كما يأتي إن شاء الله تعالى . الثاني عشر : التصريح بنزوله كل ليلة الى سماء الدنيا ، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو الى سفل . الثالث عشر : الإشارة اليه حساً الى العلو ، كما اشار اليه من اهو اعلم بربه(٢) وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر ، لما كان بالمجمع الأعظم / الذى لم يجتمع لأحد مثله ، في اليوم الأعظم ، في المكان الأعظم ، قال لهم : « انتم مسؤولون عني ، فماذا انتم قائلون ؟ قالوا : نشهد انك قد بلغت واديت ونصحت »(٣) ، فرفع اصبعه الكريمة الى السماء ، رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء ، قائلا : «اللهم اشهد» . فكأنا نشاهد تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة الى الله ، وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع اصبعه اليه : « اللهم اشهد » ، ونشهد انه بلغ البلاغ المبين ، وادى رسالة ربه كما امر ، ونصح امته غاية النصيحة ، فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وإيضاحه الى تنطع المتنطعين ، وحذلقة المتحذلقين ! والحمد لله رب العالمين . الرابع عشر : التصريح بلفظ : « الأين » كقول اعلم الخلق به ، وانصحهم لأمته ، وافصحهم بيانا عن المعنى الصحيح ، فلفظ لا يوهم باطلا بوجه : « اين الله »(٤) ، في غير موضع . الخامس عشر : شهادته صلى الله عليه وسلم لمن قال

---

(١) صحيح ، أخرجه الحاكم وغيره .

(٢) في الاصل : به .

(٣) صحيح ، وهو قطعة من حديث جابر الطويل في حجة النبي صلى الله عليه وسلم . رواه مسلم وابو داود والدارمي وابن ماجه وغيرهم .

(٤) صحيح ، رواو مسلم (٢/٧١) وغيره عن معاوية بن الحكم السلمي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للجارية : اين الله ؟ قالت : في السماء ، قال : من انا ؟ قالت : انت رسول الله ، قال : اعتقها فإنها مؤمنة .

إنَّ ربه في السماء - بالإيمان(١) . السادس عشر : إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود الى السماء ليطلع الى إله موسى فيكذبه فيما اخبره من انه سبحانه فوق السموات ، فقال : (ياهامان ابن لي صرحاً لعلي ابلغ الأسباب اسباب السموات فأطلع الى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً) المؤمن : ٣٦. فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني ، ومن أثبته فهو موسوي محمدي . السابع عشر : إخباره صلى الله عليه وسلم انه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة ، فيصعد الى ربه ثم يعود الى موسى عدة مرار(٢) . الثامن عشر : النصوص الدالة على رؤية اهل الجنة له تعالى ، من الكتاب والسنة ، واخبار النبي صلى الله عليه وسلم انهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ، فلا يرونه الا من فوقهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « بينا اهل الجنة في نعيمهم ، اذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الجبار جل جلاله قد اشرف عليهم من فوقهم ، وقال : يااهل الجنة ، سلام عليكم ، ثم قرأ قوله تعالى : (سلام قولا من رب رحيم) يس : ٥٨ . ثم يتوارى عنهم ، وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم »(٣) رواه الإمام احمد في « المسند » ، وغيره ، من حديث جابر رضي الله عنه . ولايتم انكار الفوقية الا بإنكار الرؤية . ولهذا طرد الجهمية الشقين(٤)، وصدق اهل السنة بالأمرين معاً ، واقروا بهما ، وصار من اثبت الرؤية ونفى العلو مذبذباً بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ! وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو الف دليل ، فعلى المتأول ان يجيب عن ذلك كله ! وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك !

---

(١) صحيح وهو الحديث الذي قبله .

(٢) متفق عليه .

(٣) ضعيف .

(٤) في الاصل : النفيين .

وكلام السلف في اثبات صفة العلو كثير جداً : فمنه : ماروى شيخ الإسلام ابو اسماعيل الأنصاري في كتابه الفاروق ، بسنده الى مطيع البلخي : انه سأل ابا حنيفة عمن قال : لاعرف ربي في السماء ام في الأرض؟ فقال : قد كفر ، لأن الله يقول : (الرحمن على العرش استوى) طه: ٥ وعرشه فوق سبع سمواته ، قلت : فإن قال : انه على العرش ، ولكن يقول : لا أدري العرش في السماء أم في الأرض ؟ قال : هو كافر ، لأنه أنكر أنه في السماء ، فمن أنكر انه في السماء فقد كفر . وزاد غيره : لأن الله في أعلى عليين ، وهو يُدعى من أعلى ، لا من أسفل . انتهى . ولا يلتفت الى من أنكر ذلك ممن ينتسب الى مذهب أبي حنيفة ، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم ، مخالفون له في كثير من اعتقاداته . وقد ينتسب الى مالك والشافعي وأحمد من يخالفهم في /بعض/ اعتقاداتهم . وقصة أبي يوسف في استتابة بشر المريسي ، لما أنكر أن يكون الله عز وجل فوق العرش -: مشهورة . رواها عبدالرحمن بن أبي حاتم وغيره .

ومن تأول « فوق » ، بأنه خير من عباده وأفضل منهم ، وأنه خير من العرش وأفضل منه ، كما يقال : الأمير فوق الوزير ، والدينار فوق الدرهم -: فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة ، وتشمئز منه القلوب الصحيحة ! فإن قول القائل /ابتداء/ : الله خير من عباده ، وخير من عرشه : من جنس قوله : الثلج بارد ، والنار حارة ، والشمس أضوأ من السراج ، والسماء أعلى من سقف الدار ، والجبل أثقل من الحصى ، ورسول الله أفضل من فلان اليهود/ي/ ، والسماء فوق الأرض !! وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح ، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه ! فكيف يليق بكلام الله ، الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ؟! بل في ذلك تنقّص ، كما قيل في المثل السائر :

ألم تر ان السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف امضى من العصا

ولو قال قائل : الجوهر فوق قشر البصل وقشـر السمك ! لضحك منه العقـلاء ، للتفاوت الذي بينهما ، فإن التفاوت الذي بين الخالق والمخلوق اعظم واعظم . بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك ، بأن كان احتجاجا على مبطل ، كما في قول يوسف الصديق عليه السلام : (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحـد القهار) يوسف : ٣٩ . وقوله تعالى : (آلله خـير اما يشركون) النمل : ٥٩ . (والله خير وابقى) طه : ٧٣ .

وإنما يثبت هـذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه ، فله سبحانه وتعالى فوقية القهر ، وفوقية القـدر(١) ، وفوقية الذات ، ومن اثبت البعض ونفى البعض فقد تنـقص ، وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه .

وعلوه سبحانه وتعالى كما هـو ثابت بالسمع ، ثابت بالعقل والفطرة ، اما ثبوته بالعقل فمن وجوه : احدها : العلم البديهي القاطع بأن كل موجودَين ، إما ان يكون احدهما سارياً في الآخر قائماً به كالصفات ، وإما ان يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر . الثاني : انه لما خلق العالم ، فإما ان يكون خلقه في ذاته او خارجاً عن ذاته ، والأول باطل : اما اولا : فبالاتفاق ، واما ثانيا : فلأنه يلزم ان يكون محلا للخسائس(٢) والقاذورات تعـالى الله عن ذلك علواً كبيراً . والثاني يقتضي كونَ العالم واقعاً خارج ذاته ، فيكون منفصلا ، فتعينت المباينة ، لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغـير منفصل عنه - غـيرُ معقول . الثالث : ان كونه تعالى لا داخل العـالم ولا خارجه -: يقتضي /نفي/ وجوده بالكلية ، لأنه غـير معقول : فيكون موجودا إما داخـله وإما خارجه . والأول باطـل ، فتعين الثاني ، فلزمت المباينة .

واما ثبوته بالفطرة ، فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون

---

(١) في الاصل : الفضل .

(٢) في الأصل : للحشائش .

أيديهم عند الدعاء ، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع الى الله تعالى .
وذكر محمد بن طاهر المقدسي ان الشيخ ابا جعفر الهمداني حضر مجلس الأستاذ ابي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين ، وهو يتكلم في نفي صفة العلو ، ويقول : كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان ! فقال الشيخ ابو جعفر : اخبرنا يا استاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ؟ فإنه ما قال عارف قط : يا الله ، إلا وجد في قلبه ضرورة طلب(١) العلو ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، فكيف ندفع بهذه الضرورة عن انفسنا ؟ قال : فلطم ابو المعالي على راسه ونزل ! واظنه قال : وبكى ! وقال : حيرني الهمداني حيرني ! اراد الشيخ : ان هذا امر فطر الله عليه عباده ، من غير ان يتلقوه من المرسلين ، يجدون في قلوبهم طلباً ضرورياً يتوجه الى الله ويطلبه في العلو .

وقوله : وقد أعجز عن الإحاطة خلقه - أي لا يحيطون به علما ولا رؤية ، ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة ، بل هو سبحانه محيط بكل شيء ، ولا يحيط به شيء .

قوله : (ونقول : ان الله اتخذ ابراهيم خليلا ، وكلم الله موسى تكليما ، ايمانا وتصديقاً وتسليما) .

ش : قال / الله / تعالى : (واتخذ الله ابراهيم خليلا) النساء : ١٢٤ ، وقال تعالى : (وكلم الله موسى تكليما) النساء : ٢٦٤ . الخلة : كمال المحبة . وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين ، زعماً منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، وانه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ! وكذلك انكروا حقيقة التكليم ، كما تقدم ، وكان اول من ابتدع هذا في الإسلام هو الجعد بن درهم في أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسط ، خطب الناس يوم الأضحى فقال : أيها الناس ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ،

---

(١) في الأصل : بطلب .

فإني(١) مضحٍ بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، ثم نزل فذبحه . وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين رضي الله عنهم ، فجزاه الله عن الدين وأهله خيراً . وأخذ هـذا المذهب/عن الجعد/ـ الجهم بن صفوان ، فأظهره وناظر عليه ، وإليه أضيف قول : « الجهمية » . فقتله مسلم بن أحوز أمير خراسان بها ، ثم انتقل ذلك الى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد ، وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون ، حتى امـتُحن أئمة الإسلام، ودعوهم الى الموافقة لهم على ذلك . وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة ، وهم ينكرون أن يكون ابراهيم خليلا وموسى كليما ، لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب ، كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح مني ... ولـذا سمي الخليل خليـلا

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى ، كسائر صفاته . ويشهد لما دلت عليه الآية الكريمة ماثبت في « الصحيـح » عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله »(٢) ، يعني نفسه . وفي رواية : « إني أبرأ إلى كل خليل من خلته ، ولو كنت /متخذاً/ من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » . وفي رواية : « إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا » . فبين صلى الله عليه وسلم أنه لايصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلا ، وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس به أبو بكر الصديق . مع أنه صلى الله عليه وسلم قد وصف نفسه بأنه يحبّ أشخاصاً ، كقوله لمعاذ : « والله إني لأحبك » (٣) . وكذلك قوله للأنصار . وكان زيد بن حارثة حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابنه أسامة حبه . وأمثال ذلك . وقال له عمرو بن العاص : أي الناس أحب إليك ؟ قال « عائشة » ، قال : فمن

---

(١) في الاصل : فانه .

(٢) صحيـح .

(٣) صحيـح ، رواه أحمد وغيره .

الرجال ؟ قال : « أبوها »(١) . فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة ، والمحبوب بها لكمالها يكون محباً لذاته ، لا لشيء آخر ، إذ المحبوب لغيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير ، ومن كمالها لاتقبل الشركة /ولا/ المزاحمة ، لتخللها المحبة ، ففيها كمال التوحيد وكمال الحب . ولذلك لما اتخذ الله ابراهيم خليلا ، وكان ابراهيم قد سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً ، فوهب له اسماعيل ، فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه ، فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره ، فامتحنه به بذبحه ، ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده ، فلما استسلم لأمر ربه ، وعزم على فعله ، فظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد إيثاراً لمحبة خليله على محبته ، نسخ الله ذلك عنه ، وفداه بالذبح العظيم ، لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر ، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مفسدة ، فنسخ في حقه ، وصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة في أتباعه الى يوم القيامة . وكما أن منزلة الخلة الثابتة لإبراهيم صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، كذلك منزلة التكليم الثابتة لموسى صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت ذلك في حديث الإسراء .

وهنا سؤال مشهور ، وهو : أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فكيف طلب له من الصلاة مثل ما لإبراهيم ، مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق المشبه ؟ وكيف الجمع بين هذين الأمرين المتنافيين ؟ وقد أجاب عنه العلماء بأجوبة عديدة ، يضيق هذا المكان عن بسطها ، وأحسنها : أن آل ابراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمد مثلهم ، فإذا طلب للنبي صلى الله عليه وسلم ولآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء ، حصل لآل محمد ما يليق بهم لانهم لايبلغون مراتب الأنبياء ، وتبقى الزيادة التي للأنبياء وفيهم ابراهيم لمحمد صلى الله عليهما وسلم ، فيحصل له من المزية ما لم يحصل لغيره ،

(١) متفق عليه .

وأحسن من هذا : أن النبي صلى الله عليه وسلم من آل ابراهيم ، بل هو أفضل آل إبراهيم ، فيكون قولنا : « كما صليت على /آل/ ابراهيم » ـ متناولا الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية ابراهيم وهو متناول لإبراهيم أيضا ، كما في قوله تعالى : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) آل عمران ٣٣ فإبراهيم وعمران دخلا في آل ابراهيم وآل عمران ، وكما في قوله تعالى : (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) القمر : ٣٤ . فإن لوطاً داخل في آل لوط ، وكما في قوله تعالى : (إذ نجيناكم من آل فرعون) البقرة : ٤٩ وقوله : (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) المؤمن : ٤٦ فإن فرعون داخل في آل فرعون . ولهذا والله أعلم ، أكثر روايات حديث الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إنما فيها كما صليت على آل ابراهيم . وفي كثير منها كما صليت على ابراهيم ولم :يرد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إلا في قليل من الروايات وما ذلك إلا لأن في قوله : كما صليت على ابراهيم يدخل آله تبعا . وفي قوله : كما صليت على آل ابراهيم ، هو داخل في آل ابراهيم . وكذلك لما جاء أبو أوفى رضي الله عنه بصدقة الى النبي صلى الله عليه وسلم دعا له النبي صلى الله عليه وسلم وقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » .

ولما كان بيت ابراهيم عليه السلام أشرف بيوت العالم على الإطلاق ، خصهم الله بخصائص : منها : أنه جعل فيه النبوة والكتاب ، فلم يأت بعد ابراهيم نبي إلا من أهل بيته . ومنها : أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره الى يوم القيامة ، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم . ومنها : أنه سبحانه اتخذ من الخليلين ، كما تقدم ذكره . ومنها : أنه جعل صاحب هذا البيت إماماً للناس . قال تعالى : (إني جاعلك للناس اماماً ، قال : ومن ذريتي ، قال : لاينال عهدي الظالمين) البقرة : ١٢٤ . ومنها : أنه أجرى على يديه بناء بيته الذي جعله قياماً للناس ومثابة وأمناً ، وجعله قبلة لهم وحجاً ، فكان ظهور هذا البيت في الأكرمين . ومنها : أنه أمر عباده أن يصلوا على أهل البيت . الى غير ذلك من الخصائص :

قوله : (ونؤمن بالملائكة والنبيين ، والكتب المنزلة على المرسلين ، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين) .

ش : هذه الامور من أركان الإيمان . قال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) البقرة : ٢٨٥ - الآيات . وقال تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) البقرة : ١٧٧ - الآية. فجعل الله سبحانه وتعالى الإيمانَ هو الإيمانُ بهذه الجملة ، وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين ، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة ، بقوله : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً) النساء : ١٣٦ . وقال صلى الله عليه وسلم ، في الحديث المتفق على صحته ، حديث جبرائيل وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان ، فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »(١) . فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه ، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل :

وأصول أهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول . وأصل الدين : الإيمان بما جاء به الرسول ، كما تقدم بيان ذلك ، ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة - لما تضمنتا هذا الأصل - : لهما شأن عظيم ليس لغيرهما ، ففي « الصحيحين » عن أبي مسعود عقبة بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من قرا الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه »(٢) . وفي « صحيح مسلم » عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : « بينا جبرائيل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع راسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ، لم يفتح قط إلا اليوم ،

---

(١) متفق عليه .

(٢) صحيح .

فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل الى الأرض ، لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم ، وقال : ابشر بنورين اوتيتهما ، لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا اوتيته »(١) . وقال ابو طالب المكي : اركان الإيمان سبعة ، يعني هذه الخمسة ، والإيمان بالقدر ، والايمان بالجنة والنار . وهذا حق ، والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية . وقد تقدمت الاشارة إلى دليل التوحيد والرسالة .

واما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض ، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة ، كما قال تعالى : (فالمدبرات امراً) النازعات : ٥ . (فالمقسمات امراً) الذاريات : ٤ . وهم الملائكة عند اهل الإيمان واتباع الرسل ، واما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون : هي النجوم . وقد دل الكتاب والسنة على اصناف الملائكة ، وانها موكلة بأصناف المخلوقات ، وانه سبحانه وكل بالجبال ملائكة ، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة ، ووكل بالرحم ملائكة تدبر امر النطفة حتى يتم خلقها ، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ(٢) مايعمله وإحصائه وكتابته ، ووكل بالموت ملائكة ، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة ، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها ، ووكل بالشمس والقمر ملائكة ، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب اهلها وعمارتها ملائكة ، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة . فالملائكة اعظم جنود الله ومنهم : (المرسلات عرفاً) المرسلات : ١ و (الناشرات نشراً) المرسلات : ٢ و (الفارقات فرقاً) المرسلات : ٣ و (الملقيات ذكراً) المرسلات : ٤ ومنهم : (النازعات غرقاً) النازعات : ١ و (الناشطات نشطاً) النازعات : ٢ و (السابحات سبحاً) النازعات : ٣ (فالسابقات سبقاً) النازعات ٤ ومنهم : (الصافات صفاً . فالزاجرات زجراً . فالتاليات ذكراً) الصافات :

---

(١) صحيح .

(٢) في الاصل : تحفظ .

١ ـ ٣ . ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله : الفرق والطوائف والجماعات ، التي مفردها : « فرقة » و « طائفة » و « جماعة » ، ومنهم ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب ، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش ، وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس ، الى غير ذلك من اصناف الملائكة التي لايحصيها الا الله . ولفظ « الملك » يشعر بأنه رسول منفّذ لأمر مرسله ، فليس لهم من الأمر شيء بل الأمر كله للواحد القهار ، وهم ينفذون امره : (لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) الانبياء : ٢٧ . / (يعلم مابين ايديهم وماخلفهم) / البقرة : ٢٥٥ . (ولايشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) الانبياء : ٢٨ . (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون) النحل : ٥٠ . فهم عباد مكرمون ، منهم الصافون ، ومنهم المسبحون ، ليس منهم إلا له مقام معلوم ، ولايتخطاه ، وهو على عمل قد امر به ، لايقصر عنه ولا يتعداه ، واعلاهم الذين عنده (لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون . يسبحون الليل والنهار لايفترون) الانبياء : ١٩ ـ ٢٠ ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة : جبرائيل وميكائيل واسرافيل ، الموكلون بالحياة ، فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح ، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الارض والنبات والحيوان ، واسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم . فهم رسل الله في خلقه وامره ، وسفراؤه بينه وبين عباده ينزلون الامر من عنده في أقطار العالم ، ويصعدون اليه بالأمر ، قد اطت السموات بهم ، وحق لها ان تئط ، مافيها موضع اربع اصابع الا وملك قائم او راكع او ساجد لله ، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون الفاً لايعودون اليه آخر ما عليهم . والقرآن مملوء بذكر الملائكة واصنافهم ومراتبهم ، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم ، وصلاته بصلاتهم ، ويضيفهم اليه في مواضع التشريف ، وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له ، ومراتبهم من الدنو(١) ، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم ، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص . قال تعالى :

(١) في الاصل : وبراءتهم من الذنوب .

(كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) البقرة : ٢٨٥ . (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم) آل عمران : ١٨ . (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور) الاحزاب : ٤٣ . (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) غافر : ٧. (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) الزمر : ٧٥ . (بل عباد مكرمون) الانبياء : ٢٦ . (ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) الاعراف : ٢٠٦ . (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) فصلت : ٣٨ . (كراماً كاتبين) الانفطار : ١١. (كرام بررة) عبس : ١٦ . (يشهده المقربون) المطففين : ٢١ . (لا يسمّعون الى الملإ الأعلى) الصافات : ٨ . وكذلك الأحاديث النبويــة طافحة بذكرهم . فلهذا كان الإيمان بالملائكة احد الأصول الخمسة التي هي اركان الايمان .

واما الأنبياء والمرسلون ، فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله ، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلا سواهم وأنبياء ، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم . فعلينا الإيمان بهم جملة ، لأنه لم يأت في عددهم نص . وقد قال تعالى : (ورسلا قــد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) النساء : ١٦٤ . وقال تعالى : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) غافر : ٧٨ . وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به ، وأنهم بينوه(١) بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا اليه جهله ، ولا يحل خلافه . قال تعالى : (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) النحل: ٣٥. (وإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين) النحل : ٨٢ . / (وإن تطيعوه تهتدوا) / (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) النور : ٥٤ . (وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين) المائدة : ٩٥ .

---

(١) في الاصل : بينوا .

وأما أولو العزم من الرسل . فقد قيل فيهم أقوال أحسنها : مانقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة : انهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم . قال : وهم المذكورون في قوله تعالى : (وإذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) الاحزاب : ٧ . وفي قوله تعالى : (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذي اوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه . / كبر على المشركين ماتدعوهم إليه /) الشورى : ١٣ .

واما الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فتصديقه واتباع ماجاء به من الشرائع إجمالا وتفصيلا .

واما الايمان بالكتب المنزلة على المرسلين ، فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه ، من التوراة والانجيل والزبور ، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتباً انزلها على انبيائه ، لايعرف اسماءها وعددها إلا الله / تعالى / .

واما الايمان بالقرآن ، فالاقرار به ، /و/ اتباع مافيه ، وذلك امر زائد على الايمان بغيره من الكتب . فعلينا الايمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله اتتهم(١) من عند الله ، وانها حق وهدى ونور وبيان وشفاء . قال تعالى : (قولو آمنا بالله وما انزل إلينا) البقرة : ١٣٦ . إلى قوله : (وما اوتي النبيون من ربهم) البقرة : ١٣٦ . (آلم . الله لا إله الا هو الحي القيوم) آل عمران : ١ ، ٢ . الى قوله : (وانزل الفرقان) آل عمران : ٢ . (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه) البقرة : ٢٨٥ . (افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) النساء : ٨٢ . الى غير ذلك من الآيات الدالة على ان الله تكلم بها ، وانها نزلت من عنده . وفي ذلك اثبات صفة الكلام والعلو . وقال تعالى : (كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق) البقرة : ٢١٣ .

---

(١) في الاصل : آيتهم .

(وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) حم السجدة : ٤٢ ، (ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق) سبأ : ٦ . (ياايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) يونس : ٥٧ . (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) حم السجدة : ٤٤ . (فآمنوا بالله ورسـوله والنور الذي انزلنا) التغابن : ٨ . وامثال ذلك في القرآن كثيرة :

قوله : (ونسمي اهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ، ماداموا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم معترفين ، وله بكل ماقاله واخبر مصدقين) :

ش : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فهو المسلم ، له مالنا وعليه ماعلينا » (١) . ويشير الشيـخ رحمه الله بهذا الكلام الى أن الإسلام والإيمان واحد ، وأن المسلم لايخرج من الإسلام بارتكاب الذنب مالم يستحله . والمراد بقوله : أهل قبلتنا ، من يدعي الإسـلام ويستقبل الكعبة وإن كان من أهل الأهواء ، أو من أهل المعاصي ، مالم يكذب بشيء مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وسيأتي الكلام على هذين المعنيين عند قول الشيـخ : ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب مالم يستحله . وعند قوله : والإسلام والإيمان واحد ، وأهله في أصله سواء .

قوله : (ولانخوض في الله ، ولانماري في دين الله) .

ش : يشير الشيخ رحمـه الله الى الكف عن كلام المتكلمين الباطل ، وذم علمهم ، فإنهم يتكلمون في الإله بغير علم وغير سلطان أتاهم . (إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) النجم : ٢٣ . وعن أبي حنيفة رحمه الله ، أنـه قال : لاينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء ، بل يصفه بما

(١) متفق عليه .

وصف به نفسه . وقال بعضهم : الحق سبحانه يقول : من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الأدب ، ومن كشفت له حقيقة ذاتي ألزمته العطب ، فاختر الأدب أو العطب . ويشهد لهذا : أنه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتدكدك ولم يثبت على عظمة الذات . قال الشبلي : الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب.
وقوله : ولانماري في دين الله . معناه : لانخاصم أهل الحق بإلقاء شبـهات أهل الأهواء عليهم ، التماساً لامترائهم وميلهم ، لأنه في معنى الدعاء الى الباطل ، وتلبيس الحق ، وإفساد دين الإسلام .

قوله : (ولانجادل في القرآن ، ونشهد انه كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، فعلمه سيد المرسلين محمدا صلى الله عليه وآله وسلم . وهو كلام الله تعالى ، لايساويه شيء من كلام المخلوقين ، ولا نقول بخلقـه ، ولانخالف جماعة المسلمين) .

ش : فقوله ولانجادل في القرآن ، يحتمل أنه أراد : أنّـا لانقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، بل نقول : إنه كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، الى آخر كلامه . ويحتمل أنه أراد : أنا لانجادل في القراءة الثابتة ، بل نقرؤه بكل ماثبت وصح . وكل من المعنيين حق . /و/ يشهد بصحة المعنى الثاني ، ماروي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، أنه قال : سمعت رجلا قرأ آية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافها ، فأخذت بيده ، فانطلقت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت ذلك له ، فعرفت في وجهه الكراهـة ، وقال : « كلاكما محسـن ، لاتختلفوا ، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا »(١) رواه مسلم . نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف الذي

(١) صحيـح ،ولم يروه مسلم ، بل تفرد به البخاري دونه ، اخرجه في «الخصومات» و «الأنبياء» ومن الغريب تصدير الشارح اياه بقوله : «روي» المشعر بضعفه في اصطلاح المحدثين ! وهذا أمر تساهل فيه أكثر المتأخرين كما نبه عليه النووي وغيره.

فيه جحد كل واحد من المختلفَين ما مع صاحبه من الحق ، لأن كلا القارئين كان محسناً فيما قرأه ، وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا . ولهذا قال حذيفة رضي الله عنه ، لعثمان رضي الله عنه : أدرك هذه الأمة لاتختلف كما اختلفت الأمم قبلهم . فجمع الناس على حرف واحد اجتماعاً سائغاً . وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة ، ولم يكن في ذلك تركٌ لواجب(١) ، ولافعل لمحظور ، إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة ، رخصة من الله تعالى، وقد جعل الإختيار اليهم في أي حرف اختاروه . كما أن ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً . ولهـذا كان ترتيب مصحف عبدالله على غير ترتيب المصحف العثماني ؛ وكذلك مصحف غيره . وأما ترتيب آيات السور فهو ترتيب منصوص عليه ، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية ، بخلاف السور . فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد ـ جمعهم الصحابة عليه . هذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء . قاله ابن جرير وغيره : منهم من يقول : إن الترخص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام لما في المحافظة ،على حرف واحد من المشقة عليهم أولا ، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة ، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم ، وهو أوفق لهم ـ : أجمعوا على الحرف الذي كان في العَرضة الأخيرة ؛ وذهب طوائف من الفقهـاء وأهل الكلام الى أن المصحف يشتمل على الأحرف السبعة لأنه لايجوزأن يهمل شيءمن الأحرف السبعة . وقد اتفقوا على نقل المصحف العثماني . وترك ماسواه . وقد تقدمت الاشارة إلى الجواب ، وهو : أن ذلك كان جائزاً لا واجباً ، أو أنه صار منسوخاً . واما من قال عن ابن مسعود إنه كان يجوّز القراءة بالمعنى ! فقد كذب عليه ، وإنما قال : قد نظرت الى القرَأةِ(٢) فرايت قراءتهم متقاربة ،وانما هو كقول احدكم : هلم ، واقبل ، وتعال ، فاقرؤوا كما علمتم.

(١) في الاصل : واجب .

(٢) في الأصلِ : القراءة .

او كما قال . والله تعالى قد امرنا ان لانجادل اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم ، فكيف بمناظرة اهل القبلة ؟ فإن اهل القبلة من حيث الجملة خير من اهل الكتاب ، فلا يجوز ان يناظر من لم يظلم منهم الا بالتي هي احسن ، وليس اذا اخطأ يقال : انه كافر ، قبل ان تقام عليه الحجة التي حكم الرسول بكفر من تركها . والله تعالى قد عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان . ولهذا ذم السلف اهل الأهواء ، وذكر /وا/ ان آخر امرهم السيف . وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان ، ان شاء الله تعالى ، عند قول الشيخ : ونرى الجماعة حقاً وصواباً ، والفرقة زيغاً وعذاباً.

وقوله : ونشهد أنه كلام رب العالمين ، قد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله : وإن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولا .

وقوله : (نزل به الروح الأمين) الشعراء : ١٩٣ ، هو جبرائيل عليه السلام سمي روحاً لانه حامل الوحي الذي به حياة القلوب الى الرسل من البشر صلوات الله عليهم أجمعين ، وهو أمين حق امين ، صلوات الله عليه . قال تعالى : (نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥ . وقال تعالى : (إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم امين) التكوير : ١٩ - ٢١ . وهذا وصف جبرائيل . بخلاف قوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم وماهو بقول شاعر) الحاقة : ٤٠ ، الآيات . فإن الرسول هنا هو محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : فعلمه سيد المرسلين ، تصريح بتعليم جبرائيل إياه ، إبطالا لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره في نفسه إلهاماً .

وقوله : ولانقول بخلقه ، ولانخالف جماعة المسلمين ، تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين ، فإن سلف الأمة كلهم متفقون على أنه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق ، بل قوله : ولا نخالف جماعة المسلمين ، مجرى على

إطلاقه : أنا لا أخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه فإن خلافهم زيغ وضلال وبدعة .

قوله : (ولا نكفر احداً من اهل القبلة بذنب ، ما لم يستحله ، ولا نقول لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله) .

ش : أراد بأهل القبلة الذين تقدم ذكرهم في قوله : ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ،/ ماداموا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم معترفين ، وله بكل ما قال وأخبر مصدقين/ ، يشير الشيخ رحمه الله/ بهذا الكلام/ الى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب .

واعلم - رحمك الله وإيانا - أن باب التكفير وعدم التكفير ، باب عظمت الفتنة والمحنة فيه ، وكثر فيه الافتراق ، وتشتتت فيه الأهواء والآراء ، وتعارضت فيه دلائلهم . فالناس فيه ، في جنس تكفير اهل المقالات والعقائد الفاسدة ، المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الامر ، او المخالفة لذلك في اعتقادهم على طرفين ووسط ، من جنس الاختلاف في تكفير اهل الكبائر العملية .

فطائفة تقول : لا نكفر من اهل القبلة احداً ، فتنفي التكفير نفياً عاماً ، مع العلم بأن في اهل القبلة المنافقين ، الذين فيهم من هو اكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع ، وفيهم من قد يُظهر بعض ذلك حيث يمكنهم ، وهم يتظاهرون بالشهادتين . وايضاً : فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو اظهر انكار الواجبات الظاهرة المتواترة ، والمحرمات الظاهرة المتواترة ، ونحو ذلك ، فإنه يستتاب فإن تاب ، وإلا قتل كافراً مرتداً . والنفاق والردة مظنتها البدع والفجور ، كما ذكره الخلاّل في كتاب السنة ، بسنده الى محمد بن سيرين ، أنه قال : إنّ اسرع الناس ردة اهل الاهواء ، وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم : (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) الانعام : ٦٨ . ولهذا امتنع

كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنا لانكفر أحداً بذنب ، بل يقال : لانكفرهم بكل ذنب ، كما تفعله(١) الخوارج . وفرقٌ بين النفي العام ونفي العموم . والواجب انما هو نفي العموم ، مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب . ولهذا - والله اعلم - قيده الشيخ رحمه الله / بقوله / : مالم يستحله . وفي قوله : مالم يستحله اشارة الى ان مراده من هذا النفي العام لكل ذنب / من / الذنوب العملية لاالعلمية وفيه اشكال فإن الشارع لم يكتف من المكلف في العمليات بمجرد العمل دون العلم ولافي العلميات بمجرد العلم دون العمل ، وليس العمل مقصوراً على عمل الجوارح بل اعمال القلوب اصلٌ لعمل الجوارح ، واعمال الجوارح تبع .الا ان يضمن قوله : يستحله بمعنى : يعتقده ، او نحو ذلك .

وقوله : ولانقول لايضر مع الإيمان ذنب لمن عمله ... الى آخر كلامه ، رد على المرجئة ، فإنهم يقولون : لايضر مع الإيمان ذنب ، كما لاينفع مع الكفر طاعة فهؤلاء في طرف ، والخوارج في طرف ، فإنهم يقولون نكفر المسلم بكل ذنب ، او بكل ذنب كبير ، وكذلك المعتزلة الذين يقولون يحبط ايمانه كله بالكبيرة ، فلا يبقى معه شيء من الإيمان . لكن الخوارج يقولون : يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر ! والمعتزلة يقولون : يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر ، وهذه المنزلة بين المنزلتين !! وبقولهم بخروجه من الإيمان اوجبوا له الخلود في النار ! وطوائف من اهل الكلام والفقه والحديث لايقولون ذلك في الأعمال ، لكن في الاعتقادات البدعية ، وان كان صاحبها متأولا ، فيقولون : يكفر كل من قال هذا القول ، لايفرقون بين المجتهد المخطىء وغيره ، او يقولون : يكفر كل مبتدع . وهؤلاء يدخل عليهم في هذا الإثبات العام امور عظيمة ، فإن النصوص المتواترة قد دلت على انه يخرج من النار من في قلبه / مثقال / ذرة من ايمان ، ونصوص الوعد التي يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التي يحتج بها اولئك . والكلام في الوعيد

---

(١) في الاصل : يفعله .

مبسوط في موضعه . وسيأتي بعضه عند الكلام على قول الشيخ : واهل الكبائر في النار لايخلدون ، اذا ماتوا وهم موحدون . والمقصود هنا : أن البدع هي من هذا الجنس ، فإن الرجل يكون مؤمناً باطناً وظاهراً ، لكن تأول تأويلا اخطأ فيه ، اما مجتهداً واما مفرطاً مذنباً ، فلا يقال : ان ايمانه حبط لمجرد ذلك ، الا ان يدل على ذلك دليل شرعي ؛ بل هذا من جنس قول الخوارج والمعتزلة ، ولانقول : لايكفر بل العدل هو الوسط ، وهو : ان الاقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما أثبته الرسول ، او إثبات مانفاه ، او الأمر بما نهى عنه ، او النهي عما أمر به – : يقال فيها الحق ، ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص ، ويبين انها كفر ، ويقال : من قالها فهو كافر ، ونحو ذلك ، كما يذكر من الوعيد في الظلم في النفس والاموال ، وكما قد قال كثير من اهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن / وان الله لايرى في الآخرة ولايعلم الاشياء قبل وقوعها . وعن ابي يوسف رحمه الله أنه قال : ناظرت ابا حنيفة رحمه الله مدة ، حتى اتفق رأيي ورأيه : أن من قال بخلق القرآن فهو كافر /. واما الشخص المعين ، اذا قيل : هل تشهدون انه من اهل الوعيد وانه كافر ؟ فهذا لانشهد عليه الا بأمر تجوز معه الشهادة ، فإنه من اعظم البغي ان يُشهد على معين ان الله لايغفر له ولايرحمه بل يخلده في النار ، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت . ولهذا ذكر أبو داود في سننه في كتاب الأدب : « باب النهي عن البغي » ، وذكر فيه عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كان رجلان في بني اسرائيل متواخيين ، فكان أحدهما يذنب ، والآخر مجتهد في العبادة ، فكان لايزال المجتهد يرى الآخر على الذنب ، فيقول : أقصر ، فوجده يوماً على ذنب ، فقال له : أقصر . فقال : خلني وربي ، أبعثت علي رقيباً ؟ فقال : والله لايغفر الله لك ، اولا يدخلك / الله / الجنة فقبض ارواحهما ، فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال لهذا المجتهد : اكنت بي عالماً ؟ او كنت على مافي يدي قادراً ؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : اذهبوا به الى النار . قال ابو هريرة : والذي نفسي بيده ، لتكلم بكلمة او بقت دنياه

وأخرته »(١) . وهو حديث حسن . ولأن الشخص المعين يمكن ان يكون مجتهداً مخطئاً مغفوراً له ، / ويمكن ان يكون ممن لم يبلغه ماوراء ذلك من النصوص / ، ويمكن ان يكون له ايمان عظيم وحسنات اوجبت له رحمة الله ، كما غفر للذي قال: « إذا مت فاسحقوني ثم اذروني ، ثم غفر الله له لخشيته »(٢) وكان يظن ان الله لايقدر على جمعه واعادته ، او شك في ذلك . لكن هذا التوقف في امر الآخرة لايمنعنا ان نعاقبه في الدنيا ، لمنع بدعته ، وان نستتيبه ، فإن تاب والا قتلناه . ثم اذا كان القول في نفسه كفراً قيل : انه كفر والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع ولايكون ذلك الا / اذا / صار منافقاً زنديقاً . فلا يتصور ان يكفر احد من اهل القبلة المظهرين الإسلام الا من يكون منافقاً زنديقاً . وكتاب الله يبين ذلك ، فإن الله صنف الخلق فيه ثلاثة اصناف : صنف : كفار من المشركين ومن اهل الكتاب وهم الذين لايقرون بالشهادتين . وصنف : المؤمنون باطناً وظاهراً . وصنف اقروا به ظاهراً لا باطناً . وهذه الاقسام الثلاثة مذكورة في اول سورة البقرة . وكل من ثبت انه كافر في نفس الامر وكان مقراً بالشهادتين . فإنه لايكون الا زنديقاً ، والزنديق هو المنافق .

وهنا يظهر غلط الطرفين ، فإنه من كفَّر كل من قال القول المبتدع في الباطن ، يلزمه أن يكفر أقواماً ليسوا في الباطن منافقين ، بل هم في الباطن يحبون(٣) الله ورسوله ويؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين ، ثبت في « صحيح » البخاري ، عن أسلم مولى عمر /رضي الله عنه/ ، عن عمر : أن رجلا كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه : عبدالله ، وكان يلقب : حماراً ، وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله علية وسلم قد جلده في

---

(١) حسن ، وفيه عكرمة بن عمار احتج به مسلم ، وفيه ضعف .

(٢) صحيح أخرجه البخاري وغيره .

(٣) في الاصل : محبون .

الشراب ، فأتي به يوماً ، فأمر به فجلده ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ! ما أكثر ما يؤتى به ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تلعنه ،/فوالله ما علمتُ/ ، إنه يحب الله ورسوله »(١) وهذا أمر متيقن به في طوائف كثيرة وائمة في العلم والدين ، وفيهم بعض مقالات الجهمية او المرجئة او القدرية او الشيعة أو الخوارج . ولكن الأئمة في العلم والدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة ، بل بفرع منها . ولهذا انتحل أهلُ هذه الأهواء لطوائف(٢) من السلف المشاهير .
فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً ، ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفّرون .

ولكن بقي هنا إشكال يَرِد على كلام الشيخ رحمه الله ، وهو : أن الشارع قد سمى بعض الذنوب كفراً ، قال الله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) المائدة : ٤٤ . وقال صلى الله عليه وسلم : « سباب المسلم(٣) فسوق ، وقتاله كفر »(٤) . متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض »(٥) . و : « إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر - فقد باء بها أحدهما »(٦) . متفق عليهما من حديث ابن عمرو رضي الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : « اربعٌ من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه /خصلة منهن كان فيه/ خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد اخلف ، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم

---

(١) صحيح .

(٢) في الاصل : الطوائف .

(٣) في الاصل : المؤمن .

(٤) صحيح .

(٥) صحيح .

(٦) صحيح .

فجر »(١) . متفق عليه من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، والتوبة معروضة بعد »(٢) . وقال صلى الله عليه وسلم : « بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة »(٣). رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من اتى كاهناً فصدقه ، او اتى امرأة في دبرها ، فقد كفر بما أنزل على محمد »(٤) . وقال صلى الله عليه وسلم : « من حلف بغير الله فقد كفر »(٥) . رواه الحاكم بهذا اللفظ . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثنتان في أمتي /بهم/ كفر : الطعن في الأنساب ، والنياحة على الميت »(٦) . ونظائر ذلك كثيرة .

والجواب : أن اهل السنة متفقون كلهم على ان مرتكب الكبيرة لايكفر كفراً ينقل عن الملة بالكلية ، كما قالت الخوارج ، إذ لو كفر كفراً ينقل عن الملة لكان مرتداً يقتل على كل حال ، ولا يقبل عفو ولي القصاص ، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر ! وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام. ومتفقون على انه لايخرج من الإيمان والإسلام ، ولا يدخل في الكفر ، ولا يستحق الخلود مع الكافرين ، كما قالت المعتزلة ، فإن قولهم باطل ايضاً ، إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين ، قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) البقرة : ١٧٨ ، الى ان قال : (فمن عفي له من اخيه شيء فاتباع بالمعروف) البقرة ١٧٨ . فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا ، وجعله اخاً لولي القصاص ، والمراد اخوة الدين بلا ريب . وقال تعالى : (وإن طائفتان من

---

(١) صحيح . (٢) صحيح .

(٣) صحيح . (٤) صحيح .

(٥) صحيح .

(٦) صحيح . رواه مسلم (٥٨/١) بلفظ « اثنتان في الناس ... » والباقي مثله .

المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) الحجرات : ٩ ، الى ان قال : (إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين اخويكم) الحجرات : ١٠ . ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على ان الزاني والسارق والقاذف لايقتل ، بل يقام عليه الحد ، فدل على انه ليس بمرتد . وقد ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من كانت عنده لأخيه اليوم مظلمة من عرض او شيء فليتحلله منه اليوم ، قبل ان لايكون درهم ولا دينار ، إن كان له عمل صالح اخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات اخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ، ثم التي في النار »(١) . اخرجاه في « الصحيحين » . فثبت ان الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه . وكذلك ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما تعدون المفلس فيكم ؟ قالوا : المفلس فينا من لا له درهم ولا دينار ، قال : المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات امثال الجبال ، /فيأتي/ وقد شتم هذا واخذ مال هذا ، وسفك دم هذا ، وقذف هذا ، وضرب هذا ، فيقتص هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته قبل ان يقضي ماعليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار »(٢) . رواه مسلم . وقد قال تعالى : (ان الحسنات يذهبن السيئات) هود : ١١٥ . فدل ذلك على انه في حال اساءته يعمل(٣) حسنات تمحو سيئاته . وهذا مبسوط في موضعه .

والمعتزلة موافقون للخوارج هنا في حكم الآخرة ، فإنهم وافقوهم على ان مرتكب الكبيرة مخلد في النار ، لكن قالت الخوارج : نسميه كافراً ، وقالت المعتزلة : نسميه فاسقاً ، فالخلاف بينهم لفظي فقط . واهل السنة ايضاً متفقون على انه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب ، كما وردت به النصوص . لا كما يقوله

---

(١) صحيح .

(٢) رواه مسلم .

(٣) في الاصل : يفعل .

المرجئة من انه لايضر مع الإيمان ذنب ، ولاينفع مع الكفر طاعة ! واذا اجتمعت نصوص الوعد التي استدلت بها المرجئة ، ونصـوص الوعيد التي استدلت بها الخوارج والمعتزلة - : تبين لك فساد القولين ! ولافائدة في كلام هؤلاء سوى انك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى .

ثم بعد هذا الاتفاق تبين ان اهل السنة اختلفوا خلافاً لفظياً ، لايترتب عليه فساد ، وهو : انه هل يكون الكفر على مراتب ، كفراً دون كفر ؟ كما اختلفوا : هل يكون الايمان على مراتب ، ايماناً دون ايمان؟ وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم في مسمى « الإيمان » : هل هو قول وعمل يزيد وينقص ، ام لا ؟ بعد اتفاقهم على ان من سماه الله تعالى ورسوله كافراً نسميه كافراً ، اذ من الممتنـع ان يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما انزل الله كافراً ، ويسمي رسوله من تقـدم ذكره كافراً - ولانطلق عليهما اسم الكفر . ولكن من قال : إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، قال : هو كفر عملي لااعتقادي ، والكفر عنده على مراتب ، كفر دونَ كفر ، كالايمان عنده . ومن قال : ان الإيمان هو التصديق ، ولايدخل العمل في مسمى الإيمان ، والكفر هو الجحود ، ولايزيدان ولاينقصان ، قال : هو كفر مجازي غير حقيقي ، إذ الكفـر الحقيقي هو الذي ينقل عن الملة . وكذلك يقول في تسمية بعض الأعمال بالإيمان ، كقوله تعالى : (وما كان الله ليضيع ايمانكم) البقرة:١٤٣ أي صلاتـكم الى بيت المقدس ، انها سميت ايماناً مجازاً ، لتوقف صحتها عن الإيمان او لدلالتها على الإيمان ، إذ هي دالة على كون مؤديها مؤمناً . ولهذا يحكم بإسلام الكافر إذا صلى صلاتنا . فليس بين فقهاء الأمة نزاع في أصحـاب الذنوب ، إذا كانوا مقرين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسول وماتواتر عنهم انهم من اهل الوعيد : ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم في النار ، كالخوارج والمعتزلة . ولكن اردأ مافي ذلك التعصب على من يُضادهم ، وإلزامه لمن يخالف قوله بمـا لايلزمه ، والتشنيـع عليه ! واذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين ، وأن

يجادلوا بالتي هي احسن ، فكيف لا يعدل بعضنا على بعض في مثل هذا الخلاف؟!
قال تعالى : (ياايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لاتعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى) المائدة : ٨ ، الآية .

وهنا امر يجب ان يتفطن له ، وهو : ان الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً ينقل عن الملة ، وقد يكون معصية : كبيرة او صغيرة ، ويكون كفراً : إما مجازياً ، وإما كفراً أصغر ، على القولين المذكورين . وذلك بحسب حال الحاكم : فإنه ان اعتقد ان الحكم بما انزل الله غير واجب ، وانه مخير فيه ، او استهان به مع تيقنه انه حكم الله - : فهذا كفر اكبر(١) . وإن اعتقد وجوب الحكم بما انزل الله، وعلمه فى هذه الواقعة ، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة ، فهذا عاص ، ويسمى كافراً كفراً مجازياً ، او كفراً اصغر . وإن جهل حكم الله فيها ، مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم واخطأه ، فهـذا مخطىء ، له اجر(٢) على اجتهاده ، وخطؤه مغفور .

وأراد الشيخ رحمه الله بقوله : ولانقول لايضر مع الإيمان ذنب لمن عمله - مخالفة المرجئة . وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الأولين ، فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك . فإن قدامة بن عبدالله شرب الخمر بعد تحريمها هو وطائفة ، وتأولوا قوله تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا /وعملوا الصالحات/) المائدة : ٩٣ ، الآية . فلما ذكروا

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر : وهذا مثل ما ابتلي به الذين درسوا القوانين الاوربية من رجال الامم الاسلامية، ونسائها ايضاً ! الذين أشربوا في قلوبهم حبها ،والشغف بها ، والذب عنها ، وحكموا بها ، واذاعوها . بما ربوا من تربية أساسها صنع المبشرين الهدامين اعداء الإسلام . ومنهم من يصرح ، ومنهـم من يتوارى . ويكادون يكونون سواء . فانا لله وانا اليه راجعون .

(٢) في الاصل : حكم.

ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، اتفق هووعلي بن ابي طالب وسائر الصحابة على انهم ان اعترفوا بالتحريم جلدوا ، وإن اصروا على استحلالها قتلوا . وقال عمر لقدامة :اخطأت استك الحفرة ، اما انك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر . وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب ان الله سبحانه لما حرم الخمر وكان تحريمها بعد وقعة أحد ، قال بعض الصحابة : فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ فأنزل الله هذه الآية . بين فيها ان من طعم الشيء في الحال التي لم يحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين ، كما كان من امر استقبـــال بيت المقدس . ثم ان اولئك الذين فعلوا/ذلك يذمون/ على انهم اخطأوا وأيسوا من التوبة . فكتب عمر الى قدامة يقول له : (حم . تنزيل الكتاب من العزيز العليم .غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) غافر : ١ ـ ٣ .ماادري أي ذنبيك اعظم ؟ استحلالك المحرم اولا ؟ ام يأسك من رحمة الله ثانياً ؟ وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين ائمة الإسلام .

قوله : (ونرجو للمحسنين من المؤمنين ان يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ، ولا نأمن عليهم ، ولا نشهد لهم بالجنة ، ونستغفر لمسيئهم ، ونخاف عليهم ، ولا نقنطهم) .

ش : وعلى المؤمن أن يعتقد هذا الذي قاله الشيخ رحمه الله في حق نفسه وفي حق غيره . قال تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً) الاسراء :٥٧ وقال تعالى : (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) آل عمران : ١٧٥ . وقال تعالى : (وإياي فاتقون) البقرة : ٤١ . (وإياي فارهبون) البقرة : ٤٠ . (فلا تخشوهم واخشوني) البقرة : ١٥٠ . ومدح أهل الخوف ، فقال تعالى : (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) المؤمنون : ٥٧-٥٨

الى قوله : ﴿أُولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ المؤمنون : ٦١ . وفي «المسند» والترمذي عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قلت : يارسول الله ، ﴿الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ المؤمنون : ٦١ ، هو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق ؟ قال : « لا ، ياابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه »(١) . قال الحسن رضي الله عنه : عملوا - والله - بالطاعات ، واجتهدوا فيها ، وخافوا أن تردّ عليهم ، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمناً . انتهى . وقد قال تعالى : ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ البقرة : ٢١٨ . فتأمل كيف جعل رجاءهم مع إيمانهم بهذه الطاعات ؟ فالرجاء إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله تعالى ، شرعه وقدرته(٢) وثوابه وكرامته. ولو أن رجلا له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ماينفعه ، فأهملها ولم يحرثها ولم يبذرها ، ورجا أنه يأتي من مغلها مثل ما يأتي من حرث وزرع وتعاهد الأرض - : لعدّه الناس من أسفه السفهاء ! وكذا لو رجا وحسن ظنه أن يجيئه ولد من غير جماع ! أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام ! وأمثال ذلك . فكذلك من حسن ظنه وقوي رجاؤه فى الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، من غير طاعة ولا تقرب الى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه . ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه أموراً : أحدها : محبة مايرجوه . الثاني : خوفه من فواته . الثالث : سعيه في تحصيله بحسب الإمكان . وأما رجاء لايقارنه شيء من ذلك ، فهو من باب الأماني ، والرجاء شيء والأماني شيء آخر . فكل راج خائف ، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير ، مخافة الفوات . وقال تعالى : ﴿إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾ النساء : ٤٨ ، ١١٦ . فالمشرك لاترجى له

---

(١) حديث حسن ، وقد خرجته في « الاحاديث الصحيحة » .

(٢) في الاصل : وقدره .

المغفرة ، لأن الله نفى عنه المغفرة ، وما سواه من الذنوب في مشيئة الله ، إن شاء الله غفر له ، وإن شاء عذبه . وفي « معجم الطبراني » : الدواوين عند الله يوم القيامة ثلاثه دواوين : ديوان لايغفر الله منه شيئاً ، وهو الشرك بالله ، ثم قرأ : (إن الله لايغفر أن يشرك به) النساء : ٤٨ ، ١١٦ . وديوان لايترك الله منه شيئاً ، وهو مظالم العباد بعضهم بعضاً . وديوان لايعبأ الله به ، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه(١).

وقد اختلفت عبارات العلماء في الفرق بين الكبائر والصغائر ، وستأتي الإشارة الى ذلك عند قول الشيخ رحمه الله : وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لايخلدون . ولكن ثم أمر ينبغي التفطن له ، وهو : أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها مايلحقها بالصغائر ، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحاء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها مايلحقها بالكبائر . وهذا أمر مرجعه الى مايقوم بالقلب ، وهو قدر زائد على مجرد الفعل ، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره .

/وأيضا/ : فإنه قد يعفى لصاحب الإحسان(٢) العظيم ما لا يعفى لغيره ، فإن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب ، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة : السبب الأول : التوبة ، قال تعالى : (إلا من تاب) مريم : ٦٠ ، الفرقان : ٧٠ . (إلا الذين تابوا) البقرة : ١٦٠ وغيرها . والتوبة النصوح ، وهي الخالصة ، لايختص بها ذنب دون ذنب ، لكن هل تتوقف صحتها على أن تكون عامة ؟ حتى لو تاب من ذنب وأصر على آخر لاتقبل ؟ والصحيح أنها تقبل . وهل يجب الإسلام ما قبله من الشرك وغيره من الذنوب وإن لم يتب منها ؟ أم لابد مع الإسلام من التوبة من غير الشرك ؟ حتى لو أسلم وهو مصر على الزنا وشرب الخمر

---

(١) ضعيف ، ولم يروه الطبراني بل احمد (٢٤٠/٦) والحاكم (٥٧٥/٤ ـ ٢٧٦) وقال : « صحيح الاسناد » ! ورده الذهبي بقوله : « قلت : صدقة ، ضعفوه ، وابن بابنوس فيه جهالة » .

(٢) في الاصل : السيئات .

مثلا ، هل يؤاخذ بما كان منه في كفره من الزنا وشرب الخمر ؟ أم لابد أن يتوب من ذلك الذنب مع إسلامه ؟ أو يتوب توبة عامة من كل ذنب ؟ وهذا هو الأصح : أنه لابد من التوبة مع الإسلام ، وكون التوبة سبباً لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها - مما لاخلاف فيه بين الأمة . وليس شيء يكون سبباً لغفران جميع الذنوب إلا التوبة ، قال تعالى : (قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) الزمر : ٥٣ ، وهذا لمن تاب ، ولهذا قال : (لاتقنطوا) ، وقال بعدها : (وأنيبوا إلى ربكم) الزمر : ٥٤ ، الآية . السبب الثاني : الاستغفار ، قال تعالى : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) الانفال : ٣٣ . لكن الاستغفار تارة يذكر وحده ، وتارة يقرن بالتوبة ، فإن ذكره وحده دخلت معه التوبة ، كما إذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار . فالتوبة تتضمن الاستغفار ، والاستغفار يتضمن التوبة ، وكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق ، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى ، فالاستغفار : طلب وقاية شر مامضى ، والتوبة : الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله . ونظير هذا : الفقير والمسكين ، إذا ذكر أحد اللفظين شمل الآخر ، وإذا ذكرا معاً كان لكل منهما معنى . قال تعالى : (فإطعام عشرة مساكين) المائدة : ٨٩ . (فإطعام ستين مسكيناً) المجادلة : ٤ . (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) البقرة : ٢٧١ . لاخلاف أن كل واحد من الاسمين في هذه الآيات لما أفرد شمل المقل والمعدم ، ولما قرن أحدهما بالآخر في قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) التوبة : ٦٠ ، الآية - : كان المراد بأحدهما المقل ، والآخر المعدم ، على خلاف فيه . وكذلك الإثم والعدوان ، والبر والتقوى ، والفسوق والعصيان . ويقرب من هذا /المعنى/ : الكفر والنفاق ، فإن الكفر أعم ، فإذا ذكر الكفر شمل النفاق ، وإن ذكرا معاً كان لكل منهما معنى . وكذلك الإيمان والاسلام على مايأتي الكلام فيه ، إن شاء الله تعالى . السبب الثالث : الحسنات : فإن الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، فالويل لمن /غلبت/ آحاده عشراته . وقال تعالى :

(إن الحسنات يذهبن السيئات) هود : ١١٥ . وقال صلى الله عليه وسلم : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها »(١) . السبب الرابع : المصائب الدنيوية ، قال صلى الله عليه وسلم : « مايصيب المؤمن من وصب ولانصب ، ولاغم ولا هم ولا حزن ، حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر بها من خطاياه »(٢) . وفي «المسند» : أنه لما نزل قوله تعالى : (من يعمل سوءاً يجز به) النساء : ١٢٣ - قال أبو بكر : يارسـول الله ، نزلت قاصمة الظهر(٣) ، وأينا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : « ياأبا بكر ، ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست يصيبك اللأواء ؟ فذلك ماتجزون به »(٤) . فالمصائب نفسها مكفرة ، وبالصبر عليها يثاب العبد ، وبالسـخط يأثم . والصبر والسخط أمر آخر غير المصيبة ، فالمصيبة من فعل الله لا من فعل العبد ، وهي جزاءٌ من الله للعبد على

---

(١) حديث حسن .

(٢) متفق عليه .

(٣) في الاصل : للظهر .

(٤) ضعيف الاسناد ، صحيح المعنى ، قال احمد شاكر في تعليقه هنا : حديث أبي بكر هذا في «المسند» ، برقم : ٦٨ بشرحنا . ولكن اوله هناك أن أبا بكر قال : يارسول الله ، كيف الصلاح بعد هذه الآية ؟ .. فكل سـوء عملناه جزينا به ؟ » . ليس فيه قوله هنا « نزلت قاصمة الظهر .. » وهو حديث ضعيف ، اسناده منقطع . وكان الأجدر بالشارح أن يذكر حديث أبي هريرة في «المسـند» : ٧٣٨٠ أنه لما نزلت هذه الآية « شقت على المسلمين وبلغت منهم ماشاء الله أن تبلغ ، فشـكوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : قاربوا وسددوا ، فكل مايصاب به المسلم كفارة ، حتى النكبة ينكبها » وهو حديث صحيح ، رواه مسلم في صحيحه (٢/٢٨٢) ، وزاد في آخره : « والشوكة يشاكها » . ولو رجع الشارح رحمه الله الى تفسير شيخه ابن كثير في هذه الآية (٢/٨٥٦ - ٥٩٠) لوجد حديث ابي هريرة وأحاديث أخر في معناه ، بعضها اصح اسنادا من حديث ابي بكر .

ذنبه، ويكفر ذنبه بها، وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله، والصبر والسخط من فعله، وإن كان(١) الأجر قد يحصل بغير عمل من العبد، بل هدية من الغير، او فضلا من الله من غير سبب، قال تعالى: (ويؤت من لدنه اجراً عظيما) النساء: ٤٠. فنفس المرض جزاء وكفارة لما تقدم. وكثيراً مايفهم من الاجر غفران الذنوب، وليس ذلك مدلوله، وإنما يكون من لازمه. السبب الخامس: عذاب القبر. وسيأتي الكلام عليه، إن شاء الله تعالى. السبب السادس: دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات. السبب السابع: ما يُهدى اليه بعد الموت، من ثواب صدقة او قراءة او حج، ونحو ذلك، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى. السبب الثامن: أهوال يوم القيامة وشدائده. السبب التاسع: ماثبت في «الصحيحين»: «أن المؤمنين اذا عبروا الصراط وُقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة»(٢). السبب العاشر: شفاعة الشافعين، كما تقدم عند ذكر الشفاعة واقسامها. السبب الحادي عشر: عفو ارحم الراحمين من غير شفاعة، كما قال تعالى: (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) النساء: ٤٨، ١١٦. فإن كان ممن لم يشأ الله ان(٣) يغفر له لعظم جرمه، فلا بد من دخوله الى الكير، ليخلص طيب ايمانه من خبث معاصيه، فلا يبقى في النار من في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، بل من قال: لااله إلا الله، كما تقدم من حديث أنس رضي الله عنه(٤). وإذا كان الامر كذلك، امتنع القطع لأحد معين من الامة، غير من شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) في الاصل: كان الثواب.

(٢) متفق عليه.

(٣) في الاصل: لم.

(٤) متفق عليه.

بالجنة ، ولكن نرجو للمحسنين ، ونخاف عليهم .

قوله : (والأمن والاياس ينقلان عن ملة الاسـلام ، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة) .

ش : يجب ان يكون العبد خائفاً راجياً ، فإن الخوف المحمود الصادق : ماحال بين صاحبه وبين محارم الله ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط . والرجاء المحمود : رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله ، فهو راج لثوابه ، او رجل اذنب ذنباً ثم تاب منه الى الله ، فهو راج لمغفرته . قال الله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله ، والله غفور رحيم) البقرة : ٢١٨ . اما اذا كان الرجل متمادياً في التفريط والخطايا ،يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهـذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب . قال : ابو علي الروذباري رحمه الله : الخوف والرجاء كجناحي الطائر ، اذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، واذا نقص احدهما وقـع فيه النقص ، واذا ذهبا صار الطائر في حد الموت . وقـد مدح الله اهل الخوف والرجاء بقوله : (أمّن هوقانت آناءالليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه)الزمر : ٩ ، الآية. وقال : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) السجـدة : ١٦ ، الآية . فالرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان أمناً ، والخوف يستلزم الرجاء ، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً . وكل احد اذا خفته هربت منه ، إلا الله تعالى ، فإنك اذا خفتــه هربت اليه ، فالخائف هارب من ربه الى ربـه . وقال صاحب « منازل السائرين » رحمه الله : الرجاء أضعف منازل المريد . وفي كلامه نظر ، بل الرجاء والخوف على الوجه المذكور من اشرف منازل المريد . وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل : انا عند ظن عبدي بي . فليظن / بي/ ماشاء »(١) وفي « صحيح مسلم » عن جابر رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله

(١) متفق عليه .

صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته بثلاث : « لايموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بربه »(١) ، ولهذا قيل : إن العبد ينبغي ان يكون رجاؤه في مرضه ارجح من خوفه ، بخلاف زمن الصحة ، فإنه يكون خوفه ارجح من رجائه . وقال بعضهم من عبد الله بالحب/وحده/فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، /وروي/ : ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد . ولقد احسن محمود الوراق في قوله :

لو قد رأيت الصغير من عمل الخـ ... ـير ثواباً عجبت من كبره

او قد رأيت الحقير من عمل الشـ ... ـر جزاء اشفقت من حذره

قوله : (ولايخرج العبد من الإيمان الا بجحود ما ادخله فيه) .

ش : يشير الشيخ الى الرد على الخوارج والمعتزلة في قولهم بخروجه من الإيمان بارتكاب الكبيرة . وفيه تقرير لما قال أولا : لانكفر احداً من اهل القبلة بذنب ، مالم يستحله . وتقدم الكلام على هذا المعنى .

قوله : (والايمان : هو الإقرار باللسان ،والتصديق بالجنان . وجميع ماصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرع والبيان كله حق . والإيمان واحد ، واهله في اصله سواء ، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ، ومخالفة الهوى ، وملازمة الأولى .

ش : اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان ، اختلافاً كثيراً : فذهب مالك والشافعي واحمد والأوزاعي وإسحق بن راهويه وسائر اهل الحديث واهل المدينة رحمهم الله واهل الظاهر وجماعة من المتكلمين : الى انه تصديق بالجنان ،

---

(١) رواه مسلم .

وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان . وذهب كثير من أصحابنا الى ماذكره الطحاوي رحمه الله : أنه الإقرار باللسان ، والتصديق بالجنان . ومنهم من يقول : إن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي ، والى هذا ذهب ابو منصور الماتريدي رحمه الله ، ويروى عن ابي حنيفة رضي الله عنه . وذهب الكرَّامية الى ان الإيمان هو الإقرار باللسان فقط ! فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الإيمان ، ولكنهم يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي اوعدهم الله به ! وقولهم ظاهر الفساد . وذهب الجهم بن صفوان وابو الحسن الصالحي احد رؤساء القدَرية - الى ان الإيمان هو المعرفة بالقلب وهذا القول اظهر فساداً مما قبله ! فإن لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين ، / فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ، ولم يؤمنوا بهما ، ولهذا قال موسى لفرعون : (لقد علمت ماانزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والارض بصائر) الاسراء : ١٠٢ . وقال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) النمل : ١٤ . واهل الكتاب كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون ابناءهم ، ولم يكونوا مؤمنين به ، بل كافرين به ، معادين له ، وكذلك ابو طالب عنده يكون مؤمناً ، فإنه قال :

ولقد علمتُ بأن دين محمد	من خير اديان البرية دينا
اولا الملامة او حذار مسبة	لوجدتني سمحاً بذاك مُبينَا

بل ابليس يكون عند الجهم مؤمناً كامل الإيمان ! فإنه لم يجهل ربه ، بل هو عارف به ، (قال : رب فانظرني الى يوم يبعثون) الحجر : ٣٦ . (قال : رب بما اغويتني) الحجر : ٣٩ . (قال : فبعزتك لأغوينهم اجمعين) ص : ٨٢ . والكفر عند الجهم هو الجهل بالرب تعالى ، ولا احد اجهل منه بربه ! فإنه جعله الوجود المطلق ، وسلب عنه جميع صفاته ، ولاجهل اكبر من هذا ، فيكون كافراً بشهادته على نفسه ! وبين هذه المذاهب مذاهب اخر ، بتفاصيل وقيود ، اعرضتُ عن ذكرها اختصاراً ، ذكر هذه المذاهب ابو المعين

النسفي (١) في «تبصرة الأدلة» وغيره :

وحاصل الكل/يرجع/ الى ان الإيمان : اما ان يكون مايقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، كما ذهب اليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم رحمهم الله ، كما تقدم او بالقلب واللسان دون الجوارح ، كما ذكره الطحاوي عن ابي حنيفة واصحابه رحمهم الله . او باللسان وحده ، كما تقدم ذكره عن الكرامية . او بالقلب وحده ، وهو اما المعرفة ، كما قاله الجهم ، او التصديق كما قاله ابو منصور الماتريدي رحمه الله . وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر .

والاختلاف الذي بين ابي حنيفة والائمة الباقين من اهل السنة ـ اختلاف صوري . فإن كون اعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب ، او جزءاً من الإيمان ، مع الاتفاق على ان مرتكب الكبيرة لايخرج من الايمان ، بل هو في مشئية الله ، ان شاء عذبه ، وان شاء عفا عنه ـ : نزاع لفظي ، لايترتب عليه فساد اعتقاد . والقائلون بتكفير تارك الصلاة ، ضموا الى هذا الأصل ادلة اخرى . وإلا فقد نفى النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر والمنتهب ،ولم يوجب ذلك زوال اسم الإيمان عنهم بالكلية ، اتفاقاً . ولاخلاف بين اهل السنةان الله تعالى أراد من العباد القول والعمل ،وأعني بالقول : التصديق بالقلب والإقرار باللسان ، وهذا الذي يُعنى به عند إطلاق قولهم : الإيمان قول وعمل . لكن هذا المطلوب من العباد : هل يشمله اسم الإيمان ؟ ام الإيمان أحدهما ، وهو القول وحده ، والعمل مغاير له لايشمله اسم الإيمان عند افراده بالذكر ، وإن اطلق عليهما كان مجازاً ؟ هذا محل النزاع .

وقد أجمعوا على أنه لوصدق بقلبه وأقر بلسانه ، وامتنع عن العمل بجوارحه :ـ

---

(١) هو ميمون بن محمد بن محمد ابو المعين النسفي الحنفي عالم بالاصول والكلام كان بسمرقند وسكن بخارى . له كتب عدة (٤١٨ ـ ٥٠٨) .

/أنه/ عاص لله ورسوله، مستحق للوعيد، لكن فيمن يقول : إن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان من قال : لما كان الإيمان شيئا واحـداً فإيماني كإيمان أبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما! بل قال : كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبرائيل وميكائيل عليهم السلام!! وهذا غلوّ منه. فإن الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر، ولاشك أن البصراء يختلفون في قوة البصر وضعفه، فمنهم الأخفش والأعشى، و /من/ يرى الخط الثخين، دون الدقيق(١) إلا بزجاجة ونحوها، ومن يرى عن قرب زائد على العادة، وآخر بضده.

ولهذا - والله أعلم - قال الشيخ رحمه الله : وأهله في أصله سواء، يشير الى أن التساوي إنما هو في أصله(٢)، ولايلزم منه التساوي من كل وجه، بل تفاوت /درجات/ نور « لاإله إلا الله » في قلوب أهلها لا يحيطها إلا الله تعالى : فمن الناس من نور/«لاأله إلا الله»/ في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف. ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار، بحسب مافي قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علماً وعملا، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته، بحيث إنه ربما وصل الى حال لايصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنباً إلا أحرقه، وهذه حال الصادق في توحيده، فسماء إيمانه قد حرس بالرجوم من كل سارق. ومن عرف هذا عرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله حرم على النار من قال : لاإله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله »(٣)، وقوله : « لايدخل النار من قال : لاإله إلا الله »(٤)، وما

---

(١) في الاصل : الرفيع.

(٢) في الاصل : العلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

جاء من هذا النوع من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهي، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأول بعضهم الدخول بالخلود، ونحو ذلك. والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين فى الدرك الأسفل من النار، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل مافي القلوب. وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلا، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة، وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها(١). ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار. وتأمل ماقام بقلب قاتل المائة من حقائق الايمان، التي لم تشغله عند السياق عن السير الى القرية، وحملته وهو في تلك الحال أن جعل ينوء بصدره وهو يعالج سكرات الموت وتأمل ماقام بقلب البغي من الإيمان، حيث نزعت موقها وسقت الكلب من الركية، فغفر لها. وهكذا العقل أيضا، فإنه يقبل التفاضل، وأهله في أصله سواء، مستوون في أنهم عقلاء غير مجانين، وبعضهم أعقل من بعض. وكذلك الإيجاب والتحريم، فيكون إيجاب دون إيجاب، وتحريم دون تحريم. هذا هو الصحيح، وإن كان بعضهم قد طرد ذلك فى العقل والوجوب.

وأما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل -: فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ماوجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول مايجب على من بلغه خبره، كما في حق النجاشي وأمثاله. وأما الزيادة بالعمل والتصديق، المستلزم لعمل القلب والجوارح -: /فهو/ أكمل من التصديق الذي لا يستلزمه، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(١) صحيح.

« ليس المخبَر كالمعاين » (١) وموسى عليه السلام لما أخبر أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح ، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها ، وليس ذلك لشك موسى فى خبر الله ، لكن المخبَر ، وإن جزم بصدق المخبِر ، فقد لايتصور /المخبَر به نفسه ، كما يتصوره/ إذا عاينه ، كما قال إبراهيم الخليل صلوات الله على نبينا محمد وعليه : (رب أرني كيف تحيي الموتى . قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبي) البقرة : ٢٦٠ . وأيضاً : فمن وجب عليه الحج والزكاة مثلا ، يجب عليه /من/ الإيمان أن يعلم ماأمر به ، ويؤمن بأن الله أوجب عليه مالا يجب على غيره / الايمان به / إلا مجملا ، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل . وكذلك الرجل أول مايسلم ، إنما يجب عليه الإقرار المجمل ، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها ، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان . ولاشك أن من قام بقلبه التصديق الجازم ، الذي لايقوى على معارضته شهوه ولا شبهة - : لاتقع معه معصية ، ولولا ماحصل له من الشهوة والشبهة أو إحداهما لما عصى ، بل يشتغل قلبه ذلك الوقت بما يواقعه من المعصية ، فيغيب عنه التصديق والوعيد فيعصي . ولهذا - والله اعلم - قال صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (٢) ، الحديث . فهو حين يزني يغيب عنه تصديقه بحرمة الزنا ، وإن بقي اصل التصديق في قلبه ، ثم يعاوده . فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله : (إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) الاعراف : ٢٠١ . قال ليث عن مجاهد : هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه . والشهوة والغضب مبدأ السيئات ، /فإذا أبصر رجع . ثم قال تعالى : (واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لايقصرون) الاعراف : ٢٠٢ ، أي واخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي ثم لايقصرون . قال ابن عباس : لا

---

(١) صحيح ، أخرجه أحمد (٢١٥/١ ، ٢٧١) والطبراني والخطيب وغيرهم بسند صحيح بلفظ : « ليس الخبر كالمعاينة » .

(٢) متفق عليه وقد مضى .

الإنس تقصر عن السيئات / ، ولا الشياطين تمسك عنهم . فإذا لم يبصر بقي قلبه في عمى ، والشيطان يمده في غيه ، وان كان التصديق في قلبه لم يكذب ، فذلك النور والإبصار ، وتلك الخشية والخوف تخرج من قلبه . وهذا كما أن الإنسان يغمض عينه فلا يرى ، وان لم يكن أعمى ، فكذلك القلب ، بما يغشاه من رين الذنوب ، لا يبصر الحق وان لم يكن أعمى كعمى الكافر . وجاء هذا المعنى مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « اذا زنا العبد نزع منه الإيمان ، فإذا تاب أعيد اليه » (١) .

إذا كان النزاع في هذه المسألة بين أهل السنة نزاعاً لفظياً ، فلا محذور فيه ، سوى مايحصل من عدوان إحدى الطائفتين على الأخرى والافتراق بسبب ذلك ، وأن يصير ذلك ذريعة الى بدع أهل الكلام المذموم من اهل الإرجاء ونحوهم ، والى ظهور الفسق والمعاصي ، بأن يقول : أنا مؤمن مسلم حقاً كامل الإيمان والاسلام ولي من اولياء الله ! فلا يبالي بما يكون منه من المعاصي. وبهذا المعنى قالت المرجئة لايضر مع الايمان ذنب لمن عمله ! وهذا باطل قطعاً . فالامام أبو حنيفة رضي الله عنه نظر الى حقيقة الايمان لغة مع أدلة من كلام الشارع . وبقية الأئمة رحمهم الله نظروا الى حقيقته في عرف الشارع ، فإن الشارع ضم الى التصديق اوصافاً وشرائط كما في الصلاة والصوم والحج ونحو ذلك .

وقد اعترض على استدلالهم بأن الايمان في اللغة عبارة عن التصديق - بمنع الترادف بين التصديق والايمان ، وهب ان الامر يصح في موضع ، فلمَ قلتم إنه يوجب الترادف مطلقاً ؟ وكذلك اعترض على دعوى الترادف بين الاسلام والايمان. ومما يدل على عدم الترادف : أنه يقال للمخبَر إذا صدّق : صدّقه، ولا يقال: آمنه، ولا آمن به، بل يقال: آمن له، كما قال تعالى: (فآمن له لوط) العنكبوت: ٢٦. (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف) يونس : ٨٣. وقال تعالى: (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) التوبة: ٦١، ففرق بين المعدى بالباء والمعدى باللام، فالأول يقال للمخبر به، والثاني للمخبِر

---

(١) صحيح ، اخرجه ابو داود والحاكم وصححه هو والذهبي .

ولا يرد كونه يجوز أن يقال : ما أنت بمصدّق لنا ، لأن دخول اللام لتقوية العامل /كما إذا تقدم المعمول ، او كان العامل/ اسم فاعل ، او مصدراً ، على ما عرف في موضعه . فالحاصل انه لايقال : قد آمنته ، ولاصدقتُ له ، إنما يقال : آمنت له ، كما يقال : أقررت له . فكان تفسيره بأقررت - أقربَ من تفسيره بصدّقت ، مع الفرق بينهما ، لأن الفرق بينهما ثابت في المعنى ، فإن كل مخبر عن مشاهَد او غيب يقال له في اللغة : صدقت ، كما يقال له : كذبتَ . فمن قال : السماء فوقنا ، قيل له : صدقت . وأما لفظ الايمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن الغائب ، فيقال لمن قال : طلعت الشمس - : صدقناه ، ولايقال : آمنا له ، فإن فيه أصل معنى الأمن والائتمان إنما يكون في الخبر عن الغائب ، فالأمر الغائب هو الذي يؤتمن عليه المخبِر ، ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له - إلا في هذا النوع . ولأنه لم يقابل لفظ الايمان قط بالتكذيب كما يقابل لفظ التصديق ، وإنما يقابل بالكفر ، والكفر لايختص بالتكذيب ، بل لوقال : أنا اعلم انك صادق ولكن لا أتبعك ، بل اعاديك وابغضك وأخالفك - : لكان كفراً اعظم ، فعلم ان الايمان ليس التصديق فقط ، ولا الكفر التكذيب فقط ، بل اذا كان الكفر يكون تكذيباً ، ويكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب . فكذلك الايمان ، يكون تصديقاً وموافقة وموالاة وانقياداً ، ولايكفي مجرد التصديق ، فيكون الاسلام جزء مسمى الايمان . ولو سلم الترادف ، فالتصديق يكون بالأفعال ايضاً . كما ثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العينان تزنيان ، وزناهما النظر ، والأذن تزني ، وزناها السمع » الى ان قال : « والفرج يصدق ذلك ويكذبه »(١) . وقال الحسن البصري رحمه الله : ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكنه ماوقر في الصدور وصدقته الأعمال . ولو كان تصديقاً فهو تصديق مخصوص ، كما في الصلاة ونحوها كما قد تقدم ، وليس هذا نقلا للفظ ولاتغييراً له ، فإن الله لم يأمرنا بإيمان مطلق ، بل بإيمان خاص

---

(١) متفق عليه وتقدم .

وصفه وبينه فالتصديق الذي هو الايمان ، ادنى أحواله ان يكون نوعاً من التصديق العام ، فلا يكون مطابقاً له في العموم والخصوص ، من غير تغير اللسان ولا قلبه ، بل يكون الايمان في كلام الشارع مؤلفاً من العام والخاص ، كالانسان الموصوف بأنه حيوان ناطق . ولأن التصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح ، فإن هذه من لوازم الإيمان التام ، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم . ونقول : إن هذه لوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة ، وتخرج عنه اخرى ، او إن اللفظ باق على معناه في اللغة ، ولكن الشارع زاد فيه أحكاماً ، او أن يكون الشارع استعمله في معناه المجازي ، فهو حقيقة شرعية ، مجاز لغوي ، او ان يكون قد نقله الشارع . وهذه الأقوال لمن سلك هذا الطريق .

والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً : منها : قوله تعالى : (واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً) الانفال : ٢ . (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) مريم : ٧٧ . (ويزداد الذين آمنوا ايماناً) المدثر : ٣١ . (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم) الفتح : ٠٤ (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) آل عمران : ١٧٣ . وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها إن الزيادة باعتبار زيادة المؤمن به ؟ فهل في قول الناس : « قد جمعوا لكم فاخشوهم » آل عمران : ١٧٣ زيادة مشروع ؟ وهل في إنزال السكينة على قلوب المؤمنين زيادة مشروع ؟ وإنما أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة ويقيناً ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) آل عمران : ١٦٧ . وقال تعالى : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون) التوبة : ١٢٥ وأما ماروا ه الفقيه ابو الليث السمرقندي رحمه الله ، في تفسيره عند هذه الآية ، فقال :

حدثنا محمد بن الفضل وأبو القاسم السابادي ، قالا : حدثنا فارس بن مردويه ، قال : حدثنا محمد بن الفضل بن العابد ، قال حدثنا يحي بن عيسى ، قال : حدثنا ابو مطيع عن حماد بن سلمة ، عن أبي المهزّم ، عن ابي هريرة ، قال : جاء وفد ثقيف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يارسول الله ، الإيمان يزيد وينقص ؟ فقال : « لا ، الإيمان مكمل في القلب ، زيادته كفر ونقصانه شرك »(١) . فقدسئل شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير رحمه الله عن هذا الحديث ؟ فأجاب : بأن الإسناد من ابي الليث الى ابي مطيع مجهولون لايعرفون في شيء من كتب التواريخ المشهورة وأما ابو مطيع ، فهو : الحكم بن عبدالله بن مسلمة البلخي ، ضعفه أحمد ابن حنبل ، ويحي بن معين ، وعمرو بن علي الفلاّس ، والبخاري ، وابو داود ، والنسائي ، وابو حاتم الرازي ، وابو حاتم محمد بن حبان البستي ، والعقيلي ، وابن عدي ، والدارقطني ، وغيرهم . واما ابو المهزّم ، الراوي عن ابي هريرة ، وقد تصحف على الكتّاب ، واسمه : يزيد بن سفيان ، فقد ضعفه ايضاً ، غير واحد ، وتركه شعبة بن الحجاج ، وقال النسائي : متروك ، وقد اتهمه شعبة بالوضع ، حيث قال : لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً !!

وقال صلى الله عليه وسلم : « لايؤمن أحدكم حتى اكون أحبَّ اليه من ولده ووالده والناس أجمعين »(٢) . والمراد نفي الكمال ، ونظائره كثيرة ، وحديث شُعب الإيمان ، وحديث الشفاعة ، وانه يخرج من النار من في قلبه ادنى ادنى ادنى مثقال ذرة من إيمان ، فكيف يقال بعد هذا : ان إيمان اهل السموات والأرض سواء ؟! وإنما التفاضل بينهم بمعان أخر غير الإيمان ؟! وكلام الصحابة رضي الله عنهم في

---

(١) موضوع .

(٢) متفق عليه .

السلام للعالم(١) ذكره البخاري رحمه الله في « صحيحه » . وفي هذا المقدار كفاية وبالله التوفيق .

هذا المعنى كثير أيضاً. منه: قول أبي الدرداء رضي الله عنه: فقه العبد أن يتعاهد إيمانه ومانقص منه، ومن فقه العبد ان يعلم أيزداد هو أم ينتقص، وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه: هلموا نزدد إيماناً، فيذكرون الله تعالى عز وجل: وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه: اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقها. وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل: اجلس بنا نؤمن ساعة. ومثله عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه. وصح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه قال: ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: إنصاف من نفسه، والإنفاق من إقتار، وبذل السلام للعالم(١) ذكره البخاري رحمه الله في «صحيحه». وفي هذا المقدار كفاية وبالله التوفيق.

وأما كون عطف العمل على الإيمان يقتضي المغايرة، فلا يكون العمل داخلا في مسمى الإيمان: فلاشك أن الايمان تارة يذكر مطلقاً عن العمل وعن الإسلام، وتارة يقرن بالعمل الصالح، وتارة يقرن بالإسلام. فالمطلق مستلزم للأعمال، قال تعالى: (إنما المؤمنون إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم) الانفال: ٢، الآية. (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الحجرات: ١٥، الآية. (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) المائدة: ٨١. وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(٢)، الحديث. «لا تؤمنوا حتى تحابوا»(٣). «من غشنا فليس منا»(٤). «من حمل علينا السلاح فليس

---

(١) البخاري في «الايمان» معلقاً مجزوماً موقوفاً، ورواه بعضهم مرفوعاً وهو خطأ كما قال ابو زرعة وغيره ذكره الحافظ في «الفتح» (١/٩٠ - طبع مصطفى الحلبي) وقال: «إلا أن مثله لايقال بالرأي فهو في حكم المرفوع».

(٢) متفق عليه.

(٣) مسلم.

(٤) مسلم.

منا »(١) . وما أبعد قول من قال : إن معنى قوله : « فليس منّا » - أي فليس مثلنا ! فليت شعري ، فمن لم يغشّ يكون مثل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

أما إذا عطف عليه العمل الصالح ، فاعلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما ، والمغايرة على مراتب : أعلاها : ان يكونا متباينين ، ليس أحدهما هو الآخر ، ولا جزءاً منه ، ولا بينهما تلازم ، كقوله تعالى : (خالق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) الانعام : ١ . (وأنزل التوراة والإنجيل) آل عمران : ٣ . وهذا هو الغالب ، ويليه : أن يكون بينهما تلازم ، كقوله تعالى : (ولا تَلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) البقرة : ٤٢ . (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) المائدة : ٩٢ . الثالث : عطف بعض الشيء عليه، كقوله تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) البقرة : ٢٣٨ . (من كان عدوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) البقرة : ٩٨ (/وإذا أخذنا/من النبيين ميثاقهم ومنك) الاحزاب : ٧ . وفي مثل هذا وجهان : أحدهما : أن يكون داخلا في الأول ، فيكون مذكوراً مرتين . والثاني : أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلا فيه هنا ، وإن كان داخلا فيه منفرداً ، كما قيل مثل ذلك في لفظ « الفقراء والمساكين » ونحوهما ، تتنوع دلالته بالإفراد والإقتران . الرابع : عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين ، كقوله تعالى : (غافر الذّنب وقابل التوب) غافر : ٣ . وقد جاء في الشعر العطف لاختلاف اللفظ فقط ، كقوله :

* فألفى قولها كذباً ومينا *

ومن الناس من زعم أن في القرآن من ذلك قوله تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) المائدة : ٤٨ . والكلام على ذلك معروف في موضعه .

فإذا كان العطف في الكلام يكون على هذه الوجوه ، نظرنا في كلام الشارع :

---

(١) مسلم .

كيف ورد فيه الإيمـان فوجدناه إذا اطلق يراد به مايراد بلفظ البر ، والتقوى ، والدّين ، ودين الإسلام . ذكر في أسباب النزول أنهم سألوا عن الإيمان ؟ فأنزل الله هذه الآية : (ليس البر أن تولواوجوهكم قِبَـل المشرق والمغرب) البقرة : ١٧٧ ، الآيات . قال محمد بن نصر : حدثنا إسحق بن إبراهيم ، حدثنا عبدالله بن يزيد المقرىء ، والملائي ، قالا : حدثنا المسعودي ، عن القاسم ، قال : جاء رجل الى ابي ذر رضي الله عنه ، فسأله عن الإيمـان ؟ فقرأ : (ليس البر أن تولوا وجوهكم) البقرة : ١٧٧ ، إلى آخر الآية ، فقال الرجل : ليس عن هذا سألتك ، فقال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذي سألتني عنه ، فقرأ / عليه/ الذي قرأتُ عليك ، فقـال له الذي قال لي ، فلما أبى أن يرضى ، قال : « إن المؤمن الذي إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها »(١) وكذلك أجاب جماعة من السلف بهذا الجواب . وفي « الصحيح » قوله لوفد عبد القيس : « آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله الا الله وحده لاشريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخُمس من المغنم »(٢) . ومعلوم أنه لم يُرد أن هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب لما قد أخبر في مواضع أنه لابد من إيمان القلب ، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان . وأي دليل على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان فوق هـذا الدليل ؟

---

(١) ضعيف بهذا السياق والاسناد ، وعلته الانقطـاع ، واختلاط المسعودي ، لكن صح الحديث من رواية أبي أمامة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله رجل فقال : يارسول الله ما الايمـان ؟ قال : « اذا سرتك حسنتك ، وساءتك سيئتك فأنت مؤمن ، » قال : يارســول الله ما الاثم ؟ قال : « إذا حاك في صدرك شيء فدعه » ، رواه الحاكم (١٤/١) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وإنما هو على شرط مسلم وحده ، فإن ممطوراً لم يخرج له البخاري في صحيحه .

(٢) مسلم .

فإنه فسر الإيمان بالأعمال ولم يذكر التصديق ، للعلم بأن هذه الأعمال لاتفيد /مغ/ الجحود . وفي « المسند » عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الاسلام علانية ، والايمان في القلب »(١) . وفي هذا الحديث دليل على المغايرة بين الاسلام والايمان . ويؤيده قوله/ في حديث سؤالات جبريل، في معنى الاسلام والايمان . ،/ وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا جبرائيل أتاكم يعلمكم دينكم »(٢) . فجعل الدين هو الاسلام والايمان والاحسان ، فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة . لكن هو درجات ثلاثة : مسلم ، ثم مؤمن ، ثم محسن . والمراد بالايمان ماذكر مع الاسلام قطعاً ، كما أنه أريد بالاحسان ماذكر مع الايمان والاسلام ، لا ان الاحسان يكون مجرداً عن الايمان ، هذا محال . وهذا كما قال تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينامن عبادنا . فمنهم ظالم لنفسه . ومنهم مقتصد .ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) فاطر : ٣٢ . والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة ، بخلاف الظالم لنفسه ،فإنه معرض للوعيد .وهكذا من أتى بالاسلام الظاهر مع التصديق بالقلب ، لكن لم يقم بما يجب عليه من الايمان الباطن فإنه معرض للوعيد . فأما الاحسان فهو أعم من جهة نفسه وأخص من جهة اهله ،والايمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله من الاسلام . فالاحسان يدخل فيه الايمان ، والايمان يدخل فيه الاسلام ، والمحسنون أخص من المؤمنين ، والمؤمنون أخص من المسلمين . وهذا كالرسالة والنبوة ، فالنبوة داخلة في الرسالة ، والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها ، فكل رسول نبي ، ولاينعكس .

وقد صار الناس في مسمى الاسلام على ثلاثة أقوال : فطائفة جعلت

---

(١) أسناده ضعيف، فيه علي بن مسعدة،قال العقيلي في « الضعفاء » قال البخاري « فيه نظر » ، وقال عبدالحق الأزدي في « الأحكام الكبرى » (ق ٢/٣) : « حديث غير محفوظ » .

(٢) مسلم .

الإسلام هو الكلمة، وطائفة أجابوا بما أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم حين سُئل عن الإسلام والإيمان، حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والايمان /بالإيمان/ بالأصول الخمسة(١). وطائفة جعلوا الإسلام مرادفاً للإيمان، وجعلوا معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة»(٢)، الحديث ـ: شعائر الإسلام، والأصل عدم التقدير، مع أنهم قالوا: إن الإيمان هو التصديق بالقلب، ثم قالوا الإسلام والإيمان شيء واحد، فيكون الإسلام هو التصديق! وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة، وإنما هو الإنقياد والطاعة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم لك أسلمت وبك آمنت»(٣). وفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة. فليس لنا إذا جمعنا بينهما أن نجيب بغير ما أجاب النبي صلى الله عليه وسلم. وأما إذا أُفرد اسم الإيمان فانه يتضمن الإسلام، وإذا أفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمناً بلا نزاع، وهذا هو الواجب، وهل يكون مسلماً ولا يقال له مؤمن؟ وقد تقدم الكلام فيه.

وكذلك هل يستلزم الإسلام الإيمان؟ فيه النزاع المذكور. وإنما وعد الله بالجنة في القرآن وبالنجاة من النار باسم الإيمان، كما قال تعالى: (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون) يونس: ٦٢ ـ ٦٣. وقال تعالى: (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) الحديد: ٢١ وأما اسم الإسلام مجرداً فما علق به في القرآن دخول الجنة، لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لايقبل من أحد سواه، وبه بعث النبيين، (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) آل عمران: ٨٥.

فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر،

(١) مسلم، وهو حديث جبريل المتقدم آنفا.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

فمثل الاسلام من الايمان ، كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى ، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية ، فهما شيئان في الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم ، كشيء واحد . كذلك الاسلام والايمان ، لاإيمان لمن لا اسلام له ، ولا إسلام لمن لاإيمان / له / إذ لايخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانه ، ولايخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه . ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله وفي كلام الناس كثيرة، أعني في الإفراد والاقتران ، منها : لفظ الكفر والنفاق ، فالكفر إذا ذكر مفرداً في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون ، كقوله تعالى : (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين) المائدة : ٥ . ونظائره كثيرة . وإذا قرن بينهما كان الكافر من أظهر كفره ، والمنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه . وكذلك لفظ البر والتقوى ، ولفظ الإثم والعدوان ، ولفظ التوبة والاستغفار ، ولفظ الفقير والمسكين ، وأمثال ذلك .

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان ، قوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) الحجرات : ١٤ ، الى آخر السورة . وقد اعترض على هذا بأن معنى الآية : (قولوا أسلمنا) الحجرات : ١٤ - : انقدنا بظواهرنا ، فهم منافقون في الحقيقة ، وهذا أحد قولي المفسرين في هذه الآية الكريمة . وأجيب بالقول الآخر ، ورجح وهو أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان ، لاأنهم منافقون، كما نفى الإيمان عن القاتل ، والزاني ، والسارق ، ومن لاأمانة له . ويؤيد هذا سياق الآية ، فإن السورة من أولها الى هنا في النهي عن المعاصي ، وأحكام بعض العصاة ، ونحو ذلك ، وليس فيها ذكر المنافقين . ثم قال بعد ذلك : (وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئاً) الحجرات : ١٤ ، ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطاعة ، ثم قال : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الحجرات : ١٥ ، الآية ، يعني - والله أعلم - أن المؤمنين الكاملي الايمان ، هم هؤلاء ، لا أنتم ، بل أنتم منتف عنكم الايمان الكامل . يؤيد هذا : أنه أمرهم ، او اذن لهم ، ان يقولوا :

أسلمنا ، والمنافق لايقال له ذلك ، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الأسلام ، كما نفى عنهم الايمان ، ونهاهم ان يمنّوا بإسلامهم ، فأثبت لهم اسلاماً ، ونهاهم ان يمنوا به على رسوله ، ولو لم يكن اسلاماً صحيحاً لقال لم تسلموا ، بل انتم كاذبون ، كما كذبهم في قولهم : (نشهد انك لرسول الله) المنافقون : ١ . والله اعلم بالصواب .

وينتفي بعد هذا التقدير والتفصيل دعوى الترادف ، وتشنيع من الزم بأن الاسلام لو كان /هو/ الأمور الظاهرة لكان ينبغي ان لايقابل بذلك ، ولا يقبل ايمان المخلص ! وهذا ظاهر الفساد ، فإنه قد تقدم تنظير الايمان والاسلام بالشهادتين وغيرهما ، وأن حالة الاقتران غير حالة الانفراد . فانظر الى كلمة الشهادة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله »(١) ، الحديث ، فلو قالوا : لاإله الا الله وأنكروا الرسالة ـ : / ما/ كانوا يستحقون العصمة ، بل لابد أن يقولوا : لاإله الاالله قائمين بحقها ، ولايكون قائماً بـ « لاإله إلا الله » حق القيام ، إلا من صدق بالرسالة ، وكذا من شهد أن محمداً رسول الله ،/ لايكون قائماً بهذه الشهادة حق القيام ، إلا من صدق هذا الرسول في كل ماجاء به . فتضمنت التوحيد وإذا ضممت شهادة أن لااله إلا الله الى شهادة أن محمداً رسول الله /ـ كان المراد من شهادة أن لااله الا الله إثبات التوحيد ومن شهادة أن محمداً رسول الله إثبات الرسالة . كذلك الاسلام والايمان : إذا قرن أحدهما بالآخر ، كما في قوله تعالى : (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) الاحزاب : ٣٥ . وقوله صلى الله عليه وسلم : «اللهم لك أسلمت وبك آمنت»(٢) كان المراد من أحدهما غير المراد من الآخر . وكما قال صلى الله عليه وسلم : « الاسلام علانية ، والايمان في القلب »(٣) . واذا أنفرد أحدهما شمل معنى الآخر

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) ضعيف كما سبق آنفاً .

وحكمه ، وكما في الفقير والمسكين ونظائره ، فإن لفظي الفقير والمسكين اذا أجتمعا افترقا ، واذا أفترقا اجتمعا ، فهل يقال في قوله تعالى : (فإطعام عشرة مساكين) المائدة : ٨٩ - أنه يعطى المقل دون المعدم ، أو بالعكس ؟ وكذا في قوله تعالى : (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) البقرة : ٢٧١ .

ويندفع أيضاً تشنيع من قال : ماحكم من آمن ولم يسلم ؟ أو أسلم ولم يؤمن ؟ في الدنيا والآخرة ؟ فمن أثبت لأحدهما حكماً ليس بثابت للآخر ظهر بطلان قوله ويقال له في مقابلة تشنيعه : أنت تقول : المسلم هو المؤمن ،والله تعالى يقول : (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) الاحزاب : ٣٥ ، فجعلهما غيرين ،وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك عن فلان والله اني لأراه مؤمناً ؟ قال : « او مسلماً »(١) ، قالها ثلاثاً ، فأثبت له الاسلام وتوقف في اسم الايمان ، فمن قال : هما سواء - كان مخالفاً ، والواجب رد موارد النزاع الى الله ورسوله . وقد يتراءى في بعض النصوص معارضة ، ولامعارضة بحمد الله تعالى ، ولكن الشأن في التوفيق ، وبالله التوفيق .

وأما الاحتجاج بقوله تعالى : (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) الذاريات : ٣٥-٣٦- على ترادف الإسلام والإيمان ، فلا حجة فيه ، لأن البيتَ المخرج كانوا متصفين بالإسلام والايمان ، ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما .

والظاهر أن هذه المعارضات لم تثبت عن أبي حنيفة رضي الله عنه ، وإنما هي من الأصحاب ، فإن غالبها ساقط لايرتضيه أبو حنيفة ! وقد حكى الطحاوي حكاية أبي حنيفة مع حماد بن زيد / وأن حماد بن زيد/ لما روي له حديث : أي الإسلام أفضل (٢) الى آخره ، قال له: ألا تراه يقول : أي الإسلام أفضل ، قال: الايمان،

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

ثم جعـــل الهجرة والجهاد من الايـمان ؟ فسكت أبو حنيفة ، فقال بعض أصحابه : ألا تجيبه يا أبا حنيفة ؟ قال : بـما أجيبه ؟ وهو يحدثني بهذا عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم .

ومن ثمرات هـذا الاختلاف : مسألة الاستثناء في الايـمان ، وهو أن يقول /أي/ الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله . والناس فيه على ثلاثة أقوال : طرفان ووسط، منهم من يوجبه ، ومنهم من يحرمـــه ، ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار ، وهذا أصح الأقوال .

أما من يوجبه فلهم مأخـــذان : أحدهما : أن الإيـمان هو ما مات الانسان عليه ، والانسان إنـما يكون عند الله مؤمناً أو كافراً باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله انه يكون عليه ، وما قبل ذلك لا عبرة به ، قالوا : والإيـمان الذي يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافراً -: ليس بإيـمان ، كالصلاة التي افسدها صاحبها قبل الكمال، والصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب ، وهذا مأخذ كثير من الكلابية وغيرهم، وعند هؤلاء ان الله يحب في الأزل من كان كافراً إذا عـلم منه انه يموت مؤمناً ، فالصحابة ما زالوا محبوبين قبل إسلامهم ، وإبليس ومن ارتد عن دينه ما زال الله يبغضه وإن كان لم يكفر بعده ! وليس هذا قول السلف ، ولا كان يقول بهذا من يستثنى من السلف في إيـمانه ، وهو فاسد ، فإن الله تعالى قال : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) آل عمران : ٣١ ، فأخبر انهم يحبهم إن اتبعوا الرسول ، فاتباع الرسول شرط المحبة ، والمشروط يتأخر عن الشرط ، وغير ذلك من الأدلة . ثم صار الى هذا القول طائفة غلوا فيه ، حتى صار الرجل منهم يستثنى في الأعمال الصالحة ، يقول : صليت إن شـــاء الله ! ونحو ذلك ، يعني القبول . ثم صار كثير منهم يستثنون فى كل شيء ، فيقول احدهم : هذا ثوب إن شاء الله ! هذا حبل إن شاء الله ! فإذا قيل لهم : هذا لاشك فيه ؟ يقولون : نعم ، لكن إذا شـــاء الله ان يغيره غيره ! ! المأخذ الثاني : ان الإيـمان المطلق يتضمن فعل ما امر الله به عبـــده

كله ، وترك ما نهاه عنه كله ، فإذا قال الرجل : انا مؤمن ، بهذا الاعتبار ـ: فقد شهد لنفسه انه من الأبرار المتقين ، القائمين بجميع ما امروا به ، وترك كل ما نهوا عنه ، فيكون من اولياء الله المقربين ! وهذا مع تزكية الإنسان لنفسه ، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة ، لكان ينبغي ان يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال .

وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون ، وإن جوّزوا ترك الاستثناء ، بمعنى آخر ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى . ويحتجون ايضا بجواز الاستثناء فيما لا شك فيه ، كما قال تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) الفتح : ٢٧ . وقال صلى الله عليه وسلم حين وقف على المقابر : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون »(١) . وقال ايضا : « إني لأرجو ان اكون اخشاكم لله »(٢) ونظائر هذا .

وأما من يحرمه ، فكل من جعل الإيمان شيئا واحداً ، فيقول : أنا أعلم أني مؤمن ، كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين ، فقولي : أنا مؤمن . كقولي : أنا مسلم . فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه ، وسموا الذين يستثنون في إيمانهم الشكّاكة . وأجابوا عن الاستثناء الذي في قوله تعالى : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) الفتح : ٢٧ ـ بأنه يعود الى الأمن والخوف ، فأما الدخول فلا شك فيه ! وقيل : لتدخلن جميعكم أو بعضكم ،لأنه علم أن بعضهم يموت ! وفي كلا الجوابين نظر : فإنهم وقعوا فيما فروا منه ، فأما الأمن والخوف فقد أخبر أنهم يدخلون آمنين ، مع علمه بذلك ، فلا شك في الدخول ، ولا في الأمن ، ولا في دخول الجميع أو البعض ، فإن الله قد علم من يدخل فلا شك فيه أيضا ، فكان قول : إن شاء الله هنا تحقيقاً للدخول ، كما يقول الرجل فيما عزم على شيء أن يفعله لامحالة : والله لأفعلنّ كذا إن شاء الله ، لايقولها لشك في إرادته وعزمه ، ولكن إنما لايحنث

(١) مسلم .

(٢) مسلم ، والبخاري نحوه .

الحالف في مثل هذه اليمين لأنه لايجزم بحصول مراده . وأجيب بجواب آخر لا بأس به ، وهو : أنه قال /ذلك/ تعليما لنا كيف نستثني اذا أخبرنا عن مستقبل . وفي كون هذا المعنى مراداً من النص - نظر فإنه ما سيق الكلام الا أن يكون مراداً من اشارة النص . وأجاب الزمخشري بجوابين آخرين باطلين ، وهما : أن يكون الملك قد قاله ، فأثبت قرآناً ! أو أن الرسول قاله !!/ فعند هذا المسكين يكون من القرآن ماهو غير كلام الله ! فيدخل في وعيد من قال : (ان هذا الا قول البشر) المدثر : ٢٥ . نسأل الله العافية .

وأما من يجوز الاستثناء وتركه ، فهم أسعد بالدليل من الفريقين ، وخير الأمور أوسطها : فإن أراد المستثني الشك في أصل ايمانه منع من الاستثناء ، وهذا مما /لا/ خلاف فيه . وان أراد أنه مؤمن من المؤمنين الذين وصفهم الله في قوله : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) الانفال : ٢-٤ ، وفي قوله تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون) الحجرات : ١٥ . فالاستثناء حينئذ جائز . وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة ، وكذلك من استثنى تعليقاً للأمر بمشيئة الله ، لاشكاً في ايمانه . وهذا القول في القوة كما ترى .

قوله : وجميع ماصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرح والبيان كله حق . يشير الشيخ رحمه الله بذلك الى الرد على الجهمية ومن وافقتهم القائلين بأن الأخبار قسمان : متواتر وآحاد ، فالمتواترة - وان كان قطعي السند - لكنه غير قطعي الدلالة ، فإن الأدلة اللفظية لاتفيد اليقين !! ولهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات ! قالوا : والآحاد لاتفيد العلم ، ولايحتج بها من جهة طريقها ، ولا من جهة متنها ! فسدوا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة

الرسول ، وأحالوا الناس على قضايا وهمية ، ومقدمات خيالية(١) ، سموها قواطع عقلية ، وبراهين يقينية !! وهي في التحقيق (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) النور : ٣٩ ـ ٤٠ . ومن العجب أنهم قدموها على نصوص الوحي ، وعزلوا لأجلها النصوص ، فأقفرت قلوبهم من الاهتداء بالنصوص ، ولم يظفروا(١) بالعقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة والنصوص النبوية . ولو حكموا نصوص الوحي لفازوا بالمعقول الصحيح ، الموافق للفطرة السليمة .

بل كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته ، وما ظنه معقولا ـ : فما وافقهقال : انه محكم ، وقبله واحتج به !! وما خالفه قال : انهمتشابه، ثم رده ، وسمى رده تفويضاً ! أو حرفه ، وسمى تحريفه تأويلا !! فلذلك اشتد انكار أهل السنة عليهم :

وطريق أهل السنة : أن لأيعدلوا عن النص الصحيح ، ولايعارضوه بمعقول، ولاقول فلان ، كما أشار اليه الشيخ رحمه الله . وكما قال البخاري رحمه الله سمعت الحميدي يقول ، كنا عند الشافعي رحمه الله ، فأتاه رجل فسأله عن مسأله ، فقال قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا ، فقال رجل للشافعي : ماتقول أنت ؟! فقال : سبحان الله ! تراني في كنيسة ! تراني في بيعة ! تراني عل وسطي زنار ؟! أقول لك : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانت تقول : ما تقول أنت ؟! ونظائر ذلك في كلام السلف كثير . وقال تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) الاحزاب : ٣٦.

---

(١) في الاصل : ولم يظفروا بقضايا .

وخبر الواحد اذا تلقته الأمة بالقبول ، عملا به وتصديقاً له ـ : يفيد العلم اليقيني/ عند جماهير الأمة ، وهو أحد قسمي المتواتر . ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع ، كخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انما الأعمال بالنيات(١) ، وخبر ابن عمر رضي الله عنهما : « نهى عن بيع الولاء وهبته »(٢) ، وخبر أبي هريرة : « لاتنكح المرأة على عمتها ولاعلى خالتها »(٣) ، وكقوله : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »(٤) ، وأمثال ذلك . وهو نظير خبر الذي أتى مسجد قباء وأخبر أن القبلة تحولت الى الكعبة ، فاستداروا اليها(٥) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل رسله آحاداً ، ويرسل كتبه مع الآحاد ، ولم يكن المرسَل اليهم يقولون لانقبله لأنه خبر واحد ! وقد قال تعالى : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) التوبة : ٣٣ . فلا بد أن يحفظ الله حججه وبيناته على خلقه ، لئلا تبطل حججه وبيناته .

ولهذا فضح الله من كذَب على رسوله في حياته وبعد وفاته ، وبين حاله للناس . قال سفيان بن عيينة : ما ستر الله احداً يكذب في الحديث . وقال عبدالله بن المبارك : لو هم رجل في البحر(٦) ان يكذب في الحديث ، لأصبح والناس يقولون : فلان كذاب . وخبر الواحد وإن كان يحتمل الصدق والكذب ـ ولكن التفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها لاينا له احد إلا بعد ان يكون معظم اوقاته

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) متفق عليه .

(٥) متفق عليه .

(٦) في الاصل : السجن .

مشتغلا بالحديث، والبحث عن سير الرواة، ليقف على احوالهم وأقوالهم، وشدة حذرهم من الطغيان والزلل، وكانوا بحيث لو قتلوا لم يسامحوا احداً في كلمة يتقولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا فعلوا هم بأنفسهم ذلك. وقد نقلوا هذا الدين الينا كما نقل اليهم، فهم تُرُكُ الإسلام(١) وعصابة الايمان، وهم نقاد الأخبار، وصيارفة الأحاديث. فإذا وقف المرء على هذا من شأنهم، وعرف حالهم، وخبر صدقهم وورعهم وامانتهم -: ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه. ومن له عقل ومعرفة يعلم ان اهل الحديث لهم /من/ العلم بأحوال نبيهم وسيرته واخباره، ما ليس لغيرهم به شعور، فضلا ان يكون معلوماً لهم او مظنوناً. كما ان النحاة عندهم من اخبار سيبويه والخليل واقوالهما ما ليس عند غيرهم، وعند الأطباء من كلام بقراط وجالينوس ما ليس عند غيرهم، وكل ذي صنعة هو اخبر بها من غيره، فلو سألت البقال عن امر العطر، او العطار عن البز، ونحو ذلك!! لعد ذلك جهلا كبيراً.

ولكن النفاة قد جعلوا قوله تعالى: (ليس كمثله شيء) الشورى: ١١-: مستنداً لهم في رد الأحاديث الصحيحة، فكلما جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم، وما وضعته(٢) خواطرهم وأفكارهم - ردوه بـ (ليس كمثله شيء) الشورى: ١١، تلبيساً منهم وتدليساً على من هو اعمى قلبا منهم، وتحريفا لمعنى الآي عن مواضعه. ففهموا من اخبار الصفات ما لم يرده الله ولا رسوله، ولا فهمه احد من ائمة الاسلام، انه(٣) يقتضي أثباتها التمثيل بما(٤) للمخلوقين!

---

(١) «ترك» بضم التاء المثناة والراء: جمع «تريكة» بفتح التاء وكسر الراء، وهي بيضة الحديد للرأس، يريد انهم دروع الاسلام وحفظته.

(٢) في الاصل: وصفته.

(٣) في الاصل: انها.

(٤) في الاصل: بها.

ثم استدلوا على بطلان ذلك بـ (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١ تحريفاً للنصين!!
ويصنفون الكتب ، ويقولون : هذا اصول دين الاسلام الذي امر الله به وجاء من
عنده ، ويقرأون كثيراً من القرآن ويفوضون معناه الى الله تعـالى ، من غير تدبر
لمعناه الذي بيّنه الرسول ، وأخبر انه معناه الذي أراده الله . وقد ذم الله تعالى أهل
الكتاب الأول على هـذه الصفات الثلاث ، وقص ذلك علينا من خبرهم لنعتبر
وننزجر عن مثل طريقتهم . فقال تعالى : (أفتطمعون أن يؤمنوا لـكم وقـد كان
فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون) البقرة :
٧٥ ، الى أن قال : (ومنهم أميـون لايعلمون الكتاب إلا أماني ، وإن هم إلا
يظنون) البقرة : ٧٨ . والأماني : التلاوة المجردة ، ثم قال تعالى : (فويل للذين
يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، فويل
لهم مما كتبت أيديهم وويل لهـم مما يكسبون) البقرة : ٧٩ . فذمهم على نسبة ما
كتبوه الى الله ، وعلى اكتسابهم بذلك ، فكلا الوصفين ذميم : أن ينسب الى الله ما
ليس من عنده ، وأن يأخذ بذلك عوضاً من الدنيا مالا أو رياسة . نسأل الله تعـالى
أن يعصمنا من الزلل ، في القول والعمل ، بمنه وكرمه .

ويشير الشيـخ رحمه الله بقوله : من الشرع والبيان . الى أن ما صح عن النبي
صلى الله عليه وسلم نوعان : شرع ابتدائي ، وبيان لما شرعه الله في كتابه العزيز ،
وجميـع ذلك حق واجب الاتباع . وقوله: وأهله في أصله سواء ، والتفاضل بينهم
بالحقيقة ومخالفة الهـوى ، وملازمة الأولى . وفي بعض النسخ : بالخشية والتقى
بدل قوله : بالحقيقة . ففي العبارة الاولى يشير الى أن الكل مشتركون في أصـل
التصديق ، ولكن التصديق يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت ، كما تقـدم نظيره
بقوة البصر وضعفه . وفي العبارة الأخرى يشير الى أن التفاوت بين المؤمنين بأعمال
القلوب ، وأما التصديق فلا تفاوت فيه . والمعنى الأول أظهر قوة ، والله أعـلم
بالصواب .

قوله : (والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن) .

ش : قال تعالى : (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون) يونس : ٦٢ - ٦٣ الآية . الولي : من الوَلاية بفتح الواو ، التي هي ضد العداوة . وقد قرأ حمزة : (مالكم من وِلايتهم من شيء) الانفال : ٧٢ ، بكسر الواو ، والباقون بفتحها . وقيل : هما لغتان . وقيل : بالفتح النصرة، وبالكسر الإمارة . قال الزجّاج : وجاز الكسر ، لأن في تولي /بعض/القوم بعضاً جنساً من الصناعة والعمل ، وكل ما كان كذلك مكسور ، مثل : الخياطة ونحوها. فالمؤمنون أولياء الله ، والله تعالى وليهم ، قال الله تعالى : (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ./ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات/) البقرة : ٢٥٧ ، الآية . وقال تعالى : (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لامولى لهم) محمد : ١١ . (والمؤمنون / والمؤمنات / بعضهم أولياء بعض) التوبة : ١٧ ، الآية. وقال : تعالى (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) الانفال : ٧٢ ، الى آخر السورة . وقال تعالى : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) المائدة : ٥٥ - ٥٦ . فهذه النصوص / كلها / ثبت فيها موالاة المؤمنين بعضهم لبعض ، وأنهم اولياء الله ، وأن الله وليهم ومولاهم . فالله يتولى عباده المؤمنين ، فيحبهم ويحبونه ، ويرضى عنهم ويرضون عنه ، ومن عادى له ولياً فقد بارزه بالمحاربة . وهذه الولاية من رحمته وإحسانه ، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجة اليه ، قال تعالى: (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً) الاسراء : ١١١ . فالله تعالى ليس له ولي من الذل ، بل لله العزة جميعاً ، خلاف الملوك وغيرهم ممن يتولاه(١) لذله وحاجته الى ولي ينصره.

(١) في الاصل : يتوالى .

والولاية أيضاً نظير الإيمان ، فيكون مراد الشيخ : أن أهلها في أصلها سواء، وتكون كاملة وناقصة : فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين ، كما قال تعالى : (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ، فـ « الذين آمنوا وكانوا يتقون » - منصوب على أنه صفة أولياء الله ، أو بدل منه ، أو بإضمار أمدح ، او مرفوع بإضمار « هم » ، أو خبر ثان لـ « إن » ، وأجيز فيه الجر، بدلا من ضمير « عليهم » . وعلى هذه الوجوه كلها فالولاية لمن كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهم أهل الوعد المذكور في الآيات الثلاث . وهي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ، ولاتملق ولارياضة . وقيل : الذين آمنوا مبتدأ ، والخبر : لهم البشرى ، وهو بعيد ، لقطع الجملة عمّا قبلها ، وانتثار نظم الآية .

ويجتمع في المؤمن ولاية من وجه ، وعداوة من وجه ، كما قد يكون فيه كفر وإيمان ، وشرك وتوحيد ، وتقوى وفجور ، ونفاق وإيمان . وإن كان في هذا الأصل نزاع لفظي بين أهل السنة ، ونزاع معنوي بينهم وبين أهل البدع ، كما تقدم في الإيمان . ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى - أولى من موافقته في المعنى وحده ، قال تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) يوسف : ١٠٦ وقال تعالى : (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)الحجرات : ١٤ ، الآية . وقد تقدم الكلام على هذه الآية ، وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين . وقال صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر »(١) . وفي رواية « وإذا ائتمن خان » بدل : « وإذا وعد أخلف » . أخرجاه في « الصحيحين » . وحديث : « شُعب الإيمان » تقدم . وقوله صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من

---

(١) متفق عليه وسبق .

إيمان »(١) . فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار ، وإن كان معه كثير من النفاق ، فهو يعذب في النار على قدر / مامعه / من ذلك ، ثم يخرج من النار . فالطاعات من شعب الإيمان ، والمعاصي من شعب الكفر ، وإن كان رأس شعب الكفر الجحـود ، ورأس شعب الإيمان التصديق . وأما ما يروى مرفوعاً الى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مامن جماعة اجتمعت إلا وفيهم ولي لله ، لاهم يدرون به ، ولا هو يدري بنفسه »(٢) - : فلا أصل له ، وهو كلام باطل ، فإن الجماعة قد يكونون كفاراً ، وقد يكونون فساقاً يموتون على الفسق . وأما أولياء الله الكاملون فهم الموصوفون في قوله تعالى : (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) يونس : ٦٢ - ٦٤، الآية. والتقوى هي المذكورة في قوله تعالى : (ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) ، الى قوله :(اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) البقرة : ١٧٧ . وهم قسمان : مقتصـدون ، ومقربون . فالمقتصدون : الذين يتقربون الى الله بالفرائض من أعمـال القلوب والجوارح . والسابقون : الذين يتقربون الى الله بالنوافل بعـد الفرائض . كما في « صحيح البخاري » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وماتقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه ، ولايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل ،حتى أحبه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينّه ، ولئن استعاذني لأعيذنه وماترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت

---

(١) متفق عليه .

(٢) باطل لاأصل له كما قال المؤلف .

وأكره مساءته »(١) . والولي : خلاف(٢) العدو ، وهو مشتق من الولاء ، وهو الدنو والتقرب ، فولي الله : هو من والى الله بموافقته محبوباته، والتقرب اليه بمرضاته وهؤلاء كما قال الله تعالى فيهم : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لايحتسب) الطلاق : ٢ - ٣ . قال أبو ذر رضي الله عنه : لما نزلت الآية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أباذر ، لو عمل الناس بهذه الآية لكفتهم »(٣) . فالمتقون يجعل الله لهم مخرجاً مما ضاق على الناس ، ويرزقهم من حيث لايحتسبون ، فيدفع الله عنهم المضار ، ويجلب لهم المنافع ، ويعطيهم الله أشياء يطول شرحها ، من المكاشفات والتأثيرات .

قوله : (وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن) .

ش : أراد اكرم المؤمنين هو الاطوع لله والأتبع للقرآن ، وهو الأتقى ، والأتقى هو الأكرم ، قال تعالى : (إن اكرمكم عند الله أتقاكم) الحجرات : ١٣ . وفي « السنن » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لافضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض - : الا بالتقوى ، الناس من آدم ، وآدم من تراب »(٤) . وبهذا الدليل يظهر ضعف تنازعهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر ، وترجيح أحدهما على الآخر ، وأن التحقيق ان التفضيل لايرجع الى ذات الفقر والغنى ، وانما يرجع الى الأعمال والأحوال

---

(١) رواه البخاري دون مسلم . لفظ المبارزة لم يروه البخاري وانما هو من رواية غيره عن ابي امامة بسند فيه ضعيفان كما ذكر الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ص (٢٦١) .

(٢) في الاصل : من القرب .

(٣) ضعيف ، رواه احمد والحاكم بسند فيه انقطاع .

(٤) صحيح ، لكن عزوه للسنن وهم ، فإنه لم يروه أحد منهم وانما هو في مسند الامام أحمد .

والحقائق ، فالمسألة فاسدة في نفسها . فإن التفضيل عند الله بالتقوى وحقائق الإيمان ، لابفقر ولا غنى . ولهذا - والله اعلم - قال عمر رضي الله عنه : الغنى والفقر مطيتان ، لاأبالي أيهما ركبت . والفقر والغنى ابتلاء من الله تعالى لعبده ، كما قال تعالى : (فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربي أكرمن) الفجر : ١٥ ، الآية . فإن استويا ،الفقير الصابر والغني الشاكر - في التقوى، استويا في الدرجة ، وان فضل أحدهما فيها فهو الأفضل عند الله ، فإن الفقر والغنى لايوزنان ، وانما يوزن الصبر والشكر . ومنهم من أحال المسألة من وجه آخر : وهو ان الإيمان / نصف / صبر ونصف شكر ، فكل منهما لابد له من صبروشكر وانما أخذ الناس فرعاً من الصبر وفرعاً من الشكر، واخذوا في الترجيح ، فجردوا غنياً منفقاً متصدقاً باذلا ماله في وجوب القرب شاكراً لله عليه ، وفقيراً متفرغاً لطاعة الله ولأداء العبادات صابراً على فقره . وحينئذ يقال : ان اكملهما اطوعهما واتبعهما ، فإن تساويا تساوت درجتهما . والله اعلم : ولو صح التجريد ، لصح ان يقال : ايما افضل معافى شاكر ، او مريض صابر ، او مطاع شاكر ، او مهان صابر ، او آمن شاكر ، او خائف صابر ؟ ونحو ذلك :

قوله : (والايمان : هو الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وحلوه ومره ، من الله تعالى) .

ش : تقدم أن هذه الخصال هي أصول الدين ، وبها أجاب النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث جبرائيل المشهور المتفق على صحته ، حين جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم على صورة رجل أعرابي ، وسأله عن الإسلام ؟ فقال : « أن تشهد أن لاإله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا »(١) . وسأله عن الإيمان ؟ فقال :

(١) متفق عليه ، وقد تقدم :

« أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر ، خيره وشره » . وسأله عن الإحسان ؟ فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وقد ثبت كذلك في « الصحيح » عنه صلى الله عليه وسلم : أنه كان يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص : (قل ياأيها الكافرون) الكافرون : ١ ، و (قل هو الله أحد) الاخلاص : ١ . وتارة بآيتي الإيمان والاسلام : التي في سورة البقرة : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) البقرة : ١٣٦ ، الآية ، والتي في آل عمران : (قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)(١) آل عمران : ٦٤ ، الآية . /و/ فسر صلى الله عليه وسلم الايمان في حديث وفد عبد القيس ، المتفق على صحته ، حيث قال لهم : « آمركم بالايمان بالله وحده ، أتدرون ماالايمان بالله وحده ؟ شهادة أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا خمس ماغنمتم »(٢) . ومعلوم أنه لم يرد /أن/ هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب ، لما قد أخبر في غير موضع انه لابد من ايمان القلب . فعلم ان هذه مع ايمان القلب هو الإيمان ، وقد تقدم الكلام على هذا .

والكتاب والسنة مملوءان بما يدل على ان الرجل لايثبت له حكم الإيمان الا بالعمل مع التصديق ، وهذا اكثر من معنى الصلاة والزكاة ، فإن تلك انما فسرتها السنة ، والايمان بين معناه الكتاب والسنة . فمن الكتاب قوله تعالى : (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الانفال : ٢ ، الآية . وقوله تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الحجرات : ١٥ ، الآية . وقوله تعالى : (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) النساء : ٦٥ ، فنفي الإيمان حتى توجد هذه

(١) مسلم .

(٢) متفق عليه .

الغاية ـ : دل على أن هذه الغاية فرض على الناس ، فمن تركها كان من اهل الوعيد /و / لم يكن قد أتى بالإيمان الواجب ، الذي وُعد أُهله بدخول الجنة بلا عذاب :
ولا يقال ان بين تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الايمان في حديث جبرائيل وتفسيره اياه في حديث وفد عبد القيس معارضة ، لأنه فسر الإيمان في حديث جبرائيل بعد تفسير الإسلام ، فكان المعنى أنه الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مع الأعمال التي ذكرها في تفسير الاسلام ، كما ان الاحسان متضمن للإيمان الذي قدم تفسيره قبل ذكره . بخلاف حديث وفد عبد القيس ، لأنه فسره ابتداء ، لم يتقدم قبله تفسير الاسلام . ولكن هذا الجواب لا يتأتى على ماذكره الشيخ رحمه الله من تفسير الايمان ، فحديث وفد عبد القيس مشكل عليه :

ومما يسأل عنه : أنه اذا كان ما اوجبه الله من الأعمال الظاهرة اكثر من الخصال الخمس التي أجاب / بها / النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبرائيل المذكور ، فلم قال ان الاسلام هذه الخصال الخمس ؟ وقد أجاب بعض الناس بأن هذه اظهر شعائر الاسلام وأعظمها ، وبقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده . والتحقيق : ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً ، الذي يجب لله / على / عباده محضه على الأعيان ، فيجب على كل من كان قادراً عليه ، ليعبد الله مخلصاً له الدين ، وهذه هي الخمس ، وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب مصالح ، فلا يعم وجوبها جميع الناس ، بل اما ان يكون فرضاً على الكفاية ، كالجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وما يتبع ذلك من امارة ، وحكم ، وفتيا ، واقراء ، وتحديث ، وغير ذلك . وأما ما يجب(١) بسبب حق الآدميين ، فيختص به من وجب له وعليه ، وقد يسقط بإسقاطه ، من قضاء الديون ، ورد الأمانات والغصوب ، والإنصاف من المظالم ، من الدماء والأموال والاعراض ، وحقوق الزوجة والاولاد ، وصلة الارحام ،

(١) في الاصل : أن يجب .

ونحو ذلك ، فإن الواجب من ذلك على زيد غير الواجب على عمرو . بخلاف صوم رمضان وحج البيت والصلوات الخمس والزكاة ، فإن الزكاة وإن كانت حقاً مالياً فإنها واجبة لله ، والأصناف الثمانية مصارفها ، ولهذا وجبت فيها النية ، ولم يجز أن يفعلها الغير بلا إذنه . ولم تطلب من الكفار . وحقوق العباد لا يشترط لها النية ، ولو أداها غيره عنه بغير إذنه برئت ذمته ، ويطالب بها الكفار . وما يجب حقاً لله تعالى ، كالكفارات ، هو بسبب من العبد ، وفيها معنى العقوبة ، ولهذا كان التكليف شرطاً في الزكاة . فلا تجب على الصغير والمجنون عند أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى ، على ما عرف في موضعه .

وقوله : والقدر خيره وشره . وحلوه ومره ، من الله تعالى - تقدم قوله صلى الله عليه وسلم في حديث جبرائيل : « وتؤمن بالقدر خيره وشره »(١) وقال تعالى : (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) التوبة : ٥٢ . وقال تعالى : (إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله . فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) النساء : ٧٨ ، (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) النساء : ٧٩ ، الآية .

فإن قيل : فكيف الجمع بين قوله : « كل من عند الله » النساء : ٧٨ ، وبين قوله : « فمن نفسك » ؟ النساء : ٧٩ ، قيل : قوله : « كل من عند الله » : الخصب والجدب ، والنصر والهزيمة ، /كلها من عند الله/ ، وقوله : « فمن نفسك » : أي ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك ، كما قال تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) الشورى : ٣٠ . يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه : أنه قرأ : (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) النساء : ٧٩ ،

---

(١) متفق عليه على التفصيل المشار اليه قبل قليل .

(وأنا كتبتها عليك) . والمراد بالحسنة هنـا النعمه ، وبالسيئة البلية ، في أصح الأقوال . وقد قيل: الحسنة الطاعة ، والسيئة المعصية . /و/ قيل : الحسنة ما أصابه يوم بدر ، والسيئة ما أصابه يوم أحد . والقول الأول شامل لمعنى القول الثالث ؛ والمعنى الثاني ليس مراداً دون الأول قطعاً ، ولكن لا منافاة بين أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه ، مع أن الجميع مقدر ، فإن المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى ، فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل ، والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة . وليس للقدرية أن يحتجوا بقوله تعالى : « فمن نفسك » ، فإنهم يقولون : إن فعل العبد - حسنة كان أو سيئة - فهو منه لا من الله ! والقرآن قد فرق بينهما ، وهم لا يفرقون ، ولأنه قال تعالى : (كل من عند الله) ، فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل السيئات من عند الله ، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال ، بل في الجزاء . وقوله بعد هذا : « ما أصابك من حسنة » و « من سيئة » ، /مثل قوله : « وإن تصبهم حسنة» و « إن تصبهم سيئة »/ . وفرق سبحانه وتعالى بين الحسنات التي هي النعم ، وبين السيئات التي هي المصائب ، فجعل هذه من الله ، وهـذه من نفس الإنسان ، لأن الحسنة مضافة الى الله ، إذ هو احسن بها من كل وجه ، فما من وجه من أوجهها إلا وهو يقتضي الإضافة اليه ، وأما السيئة ، فهو إنما يخلقها لحكمة ، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه ، فإن الرب لا يفعل سيئة قط ، بل فعله كله حسن وخير .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في الاستفتاح : « والخـير كله بيديك ، والشر ليس إليك » . أي : فإنك لا تخلق شراً محضاً ، بل كل ما يخلقه ففيه حكمة ، هو باعتبارها خير ، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس ، فهذا شر جزئي إضافي ، فأما شـر كلي ، او شر مطلق - : فالرب سبحانه وتعالى منزه عنه . وهذا هو الشر الذي ليس اليه ، ولهذا لا يضاف الشر اليه مفرداً قط ، بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات ، كقوله تعالى : (الله خالق كل شيء) الرعد :١٨ ،

(كُلٌّ من عند الله) النساء : ٧٨ ، وإما أن يضاف الى السبب ، كقوله : (من شر ما خلق) الفلق : ٢ ، وإما ان يحذف فاعله ، كقول الجن : (وانَّا لا ندري أشر أُريدَ بمن فى الأرض ام اراد بهم ربهم رَشداً) الجن : ١٠ ، وليس إذا خلق ما يتأذَّى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة ، بل لله من الرحمة والحكمة لايقدر قدْرَه إلا الله تعالى ، وليس اذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة - يكون شراً كلياً /عاماً/ ، بل الأمور العامة الكلية لاتكون إلا خيراً او مصلحة للعباد ، كالمطر العام ، وكإرسال رسول عام . وهذا مما يقتضي انه لايجوز ان يؤيد كذاباً عليه بالمعجزات التي ايد بها الصادقين ، فإن هذا شر عام للناس ، يضلهم ، فيفسدُ عليهم دينهم ودنياهم واخراهم . وليس هذا كالملك الظالم /والعدو ، فإن الملك الظالم / لابد ان يدفع الله به من الشر اكثر من ظلمه ، وقد قيل : ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام ، وإذا قُدر كثرةُ ظلمه ، فذاك خير في الدين ، كالمصائب ، تكون كفارة لذنوبهم ، ويثابون على الصبر عليه ، ويرجعون فيه الى الله ، ويستغفرونه ويتوبون اليه ، وكذلك ما يسلط عليهم من العدو . ولهذا قد يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة ، واما المتنبئون الكذابون فلا يطيل تمكينهم ، بل لابد ان يهلكهم ، لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة ، قال تعالى : (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين) الحاقة : ٤٤-٤٦ .

وفي قوله : « فمن نفسك » - من الفوائد : أن العبد لايطمئن الى نفسه ولايسكن اليها ، فإن الشر كامن فيها ، لايجيء إلا منها ، ولايشتغل بملام الناس ولاذمهم إذا أساؤوا اليه ، فإن ذلك من السيئات التي أصابته ، وهي إنما أصابته بذنوبه ، فيرجع الى الذنوب ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله أن يعينه على طاعته . فبهذا : يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة : (اهدنا الصراط المستقيم .

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) الفاتحة : ٥ - ٧ ، فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة . لكن الذنوب هي لوازم نفس الإيمان ، وهو محتاج الى الهدى كل لحظة ، وهو الى الهدى أحوج منه الى الطعام والشراب . ليس كما يقوله بعض المفسرين : انه قد هداه ! فلماذا يسأل الهدى ؟ ! وان المراد التثبيت ، أو مزيد الهداية! بل العبد محتاج الى أن يعلمه الله مايفعله من تفاصيل أحواله ، والى مايتركه من تفاصيل الأمور ، في كل يوم ، والى أن يلهمه أن يعمل ذلك . فإنه لايكفي مجرد علمه إن لم يجعله مريداً للعمل بما يعلمه ، وإلا كان العلم حجة عليه ، ولم يكن مهتدياً. ومحتاج الى أن يجعله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة ، فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم ، ومالا نريد فعله تهاوناً وكسلا مثل مانريده أو أكثر منه أو دونه ، ومالا نقدر عليه مما نريده كذلك ، وما نعرف جملته ولانهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر . ونحن محتاجون الى الهداية التامة ، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤاله سؤال تثبيت ، وهي آخر الرتب . وبعد ذلك كله هداية أخرى ، وهي الهداية الى طريق الجنة في الآخرة . ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة ، لفرط حاجتهم اليه ، فليسوا الى شيء أحوج منهم الى هذا الدعاء . فيجب أن يعلم أن الله بفضل رحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانعة من الشر ، فقد بين القرآن أن السيئات من النفس ، وإن كانت بقدرة الله ، وان الحسنات كلها من الله تعالى . واذا كان الأمر كذلك وجب ان يُشكر سبحانه، وان يستغفره العبد من ذنوبه ، وألا يتوكل الا عليه وحده ، فلا يأتي بالحسنات الا هو فأوجب ذلك توحيده ، والتوكل عليه وحده ، والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

وهذه الأمور كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمعها في الصلاة ، كما ثبت عنه في « الصحيح » : انه كان اذا رفع راسه من الركوع يقول : « ربنا لك الحمد ،

حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيــه »(١) . « ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اهل الثناء والمجد ، احق ماقاله العبد ، وكلنا لك عبد »(٢) . فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى ، وبيان ان حمده احق ماقاله العبد ، ثم يقول بعــد ذلك : « لامانع لما اعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » . وهذا تحقيق لوحدانيته ، لتوحيد الربوبية ، خلقاً وقدراً ، وبداية ونهاية(٣) ، هو المعطي المانع ، لامانع لما اعطى ، ولامعطي لما منع ، ولتوحيد الإلهية ، شرعاً وامراً ونهياً ، وان العباد وان كانوا يعطونَ جَدّاً : ملكا وعظمة وبختا ورياسة، في الظاهر ، او فى الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة ، فلا ينفع ذا الجد منك الجد ، اي لاينجيه ولا يخلصه ، ولهذا قال : لاينفعه منك ، ولم يقل ولا ينفعــه عندك لأنه لو قيل ذلك اوهم انه لايتقرب به اليك ، لكن قد لايضره . فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد ، او تحقيق قوله : (اياك نعبد واياك نستعين) الفاتحة : ٤، فإنه لو قدر ان شيئا من الأسباب يكون مستقلا بالمطلوب ، وانما يكون بمشيئة الله وتيسيره ـ : لكان الواجب ان لايرجى الا الله ، ولا يتوكل الا عليه ، ولايسأل الا هو ، ولايستغاث الا به ، ولايستعان الا هو ، فله الحمد واليه المشتكى ، وهو المستعان ، وبه المستغاث ، ولا حول ولا قوة الا به . فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلا بمطلوب ، بل لابد من انضمام اسباب اخر اليه ، ولا بد ايضاً من صرف الموانــع والمعارضات عنه ، حتى يحصل المقصود ، فكل سبب فله شريك ، وله ضد ، فإن لم

---

(١) البخاري ، لكن ليس من فعله صلى الله عليه وسلم ، بل انه سمع رجلا يقول ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد رايت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها ايهم يكتبها اولا » .

(٢) صحيح متفق عليه ، وهو حديث آخر ، والمصنف دمجــه بالأول ، فأوهم انهما حديث واحد !

(٣) في الاصل : وهداية .

يعاونه شريكه، ولم ينصرف عنه ضده ـ : لم تحصل مشيئته . والمطر وحده لاينبت النبات الا بما ينضم اليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرع لايتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لايغذي الا بما جعل في البدن من الأعضاء والقوى، ومجموع ذلك لايفيد ان لم تصرف عنه المفسدات .

والمخلوق الذي يعطيك او ينصرك، فهو ـ مع ان الله يجعل فيه الإرادة والقوة والفعل ـ : فلا يتم مايفعله الا بأسباب كثيرة، خارجة عن قدرته، تعاونه على مطلوبه، ولو كان ملكاً مطاعاً، ولابد ان يصرف عن الأسباب المتعاونة مايعارضها ويمانعها، فلا يتم المطلوب الا بوجود المقتضي وعدم المانع .

وكل سبب معين فإنما هو جزء من المقتضي، فليس فى الوجود شيء واحد هو مقتض تام، وان سمي مقتضياً، وسمي سائر مايعينه شروطاً ـ فهذا نزاع لفظي . واما ان يكون في المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها فهذا باطل .

ومن عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله، وعلم انه لا يستحق ان يسأل غيره، فضلا عن ان يعبد غيره، ولايتوكل على غيره، ولا يرجى غيره .

قوله : (ونحن مؤمنون بذلك كله، لا نفرق بين احد من رسله، ونصدقهم كلهم على ماجاؤوا به) .

ش : الإشارة بذلك الى ماتقدم مما يجب الإيمان به تفصيلا، وقوله : لانفرق بين احد من رسله، الى آخر كلامه ـ اي : لانفرق بينهم بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، بل نؤمن بهم ونصدقهم كلهم، فإن من آمن ببعض وكفر ببعض، كافر بالكل . قال تعالى : (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا . اولئك هم الكافرون حقاً) النساء : ١٥٠ ـ ١٥١ . فإن

المعنى الذي لأجله(١) آمن بمن آمن /به/ منهم - موجود في الذي لم يؤمن به ، وذلك الرسول الذي آمن به قدجاء بتصديق /بقية/ المرسلين ، فإذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافراً بمن في زعمه انه مؤمن به ، لأن ذلك الرسول قد جاء بتصديق المرسلين كلهم ، فكان كافراً حقاً ، وهو يظن انه مؤمن ، فكان من الأخسرين أعمالا ،الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً .

قوله : (واهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النار لايخلدون ،اذا ماتوا وهم موحدون ،وان لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا الله عارفين .وهم في مشيئته وحكمه ، ان شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله ، كما ذكر عز وجل في كتابه : (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) النساء : ٤٨ و ١١٦ وإن شاءعذبهم في النار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ،ثم يبعثهم الى جنته . وذلك بأن الله تعـالى تولى أهل معرفته ، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته ، الذين خابوا من هدايته ، ولم ينالوا من ولايته .اللهم ياولي الاسلام واهله ، ثبتنا على الاسلام حتى نلقاك به) .

ش : فقوله : وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في النارلايخلدون إذا ماتوا وهم موحدون - رد لقول الخوارج والمعتزلة ، القائلين بتخليـد أهل الكبائر في النار . لكن الخوارج تقول بتكفيرهم ، والمعتزلة بخروجهم عن الإيمان ، لابدخولهم في الكفر ، بل لهم منزلة بين منزلتين ، كما تقـدم عند الـكلام على قول الشيخ رحمه الله : ولانكفر أحداً من أهل القبلة بذنب مالم يستحله :

وقوله : وأهل الكبائر من أمة محمد - تخصيصه أمـة محمد ، يفهم منه أن أهل الكبائر من أمة غير محمد صلى الله عليه وسلم قبل نسخ تلك الشرائع به ، / حكمهم / مخالف لأهل الكبائر من أمة محمد . وفي ذاك نظر ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) في الأصل : للرجاء :

أخبر أنه : « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان »(١) . ولم يخص أمته بذلك ، بل ذكر الإيمان مطلقاً ، فتأمله . وليس في بعض النسخ ذكر الأمة . وقوله : في النار - معمول لقوله : لايخلدون . وإنما قدمه لأجل السجعة ، لا أن يكون / في النار / خبر لقوله : وأهل الكبائر ، كما ظنه بعض الشارحين .

واختلاف العلماء في الكبائر على أقوال ، فقيل : سبعة ، وقيل : سبعة عشر : وقيل : ما اتفقت الشرائع على تحريمه . وقيل : مايسد باب المعرفة بالله . وقيل : ذهاب الأموال والأبدان . وقيل : سميت كبائر بالنسبة والإضافة الى مادونها : وقيل : لاتعلم أصلا . أو : انها أخفيت كليلة القدر . وقيل : إنها الى السبعين اقرب : وقيل : كل مانهى الله عنه فهو كبيرة . وقيل : إنها مايترتب عليها حدٌ أو تُوُعِّدَ عليها بالنار ، أو اللعنة ، أو الغضب . وهذا أمثل الأقوال . واختلفت عبارات السلف(٢) في تعريف الصغائر : منهم من قال : الصغيرة مادون الحدّين : حد الدنيا وحد الآخرة . ومنهم من قال : كل ذنب لم يُختم بلعنة او غضب او نار : ومنهم من قال : الصغيرة ماليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة ، والمراد بالوعيد : الوعيد الخاص بالنار او اللعنة او الغضب ، فإن الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا ، اعني المقدّرة ، فالتعزير في الدنيا نظير الوعيد بغير النار او اللعنة او الغضب . وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره ، فإنه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص انه كبيرة ، كالشرك ، والقتل ، والزنا ، والسحر ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، ونحو ذلك ، كالفرار من الزحف ، واكل مال اليتيم واكل الربا ، وعقوق الوالدين ، واليمين الغموس ، وشهادة الزور ، وامثال ذلك .

وترجيح هذا القول من وجوه : احدها : انه هو المأثور عن السلف ، كابن عباس ، وابن عيينه ، وابن حنبل رضي الله عنهم ، وغيرهم . الثاني : ان الله تعالى

---

(١) متفق عليه .

(٢) في الاصل : عبارة قائليه .

قال : (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) النساء : ٣١ . فلا يستحق هذا الوعد الكريم من اوعِد بغضب الله ولعنته وناره ، وكذلك من استحق ان يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر . الثالث : ان هذا الضابط مرجعه الى ماذكره الله ورسوله من الذنوب ، فهو حد متلقى من خطاب الشارع . الرابع : ان هــذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر ، بخلاف تلك الأقوال ، فإن من قال : سبعة ، او سبعة عشرة ، او الى السبعين اقرب ـ : مجرد دعوى . ومن قال : ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه ـ : يقتضي ان شرب الخمر ، والفرار من الزحف ، والتزوج ببعض المحارم ، والمحرم بالرضاعة والصهرية ، ونحو ذلك ـ ليس من الكبائر ! وان الحبة من مال اليتيم ، والسرقة لها ، والكذبة الواحدة الخفيفة ، ونحو ذلك ـ : من الكبائر ! وهذا فاسد . ومن قال : ماسد باب المعرفة بالله ، او ذهاب الأموال والأبدان ـ : يقتضي ان شرب الخمر ، واكل الخنزير والميتة والدم ،وقذف المحصنات ـ ليس من الكبائر ! وهذا فاسد . ومن قال : إنها سميت كبائر بالنسبة الى مادونها ، او كل مانهى الله عنه فهو كبيرة ـ : يقتضي ان الذنوب في نفسها لاتنقسم الى صغائر وكبائر ! وهذا فاسد ، لأنه خلاف النصوص الدالة على تقسيم الذنوب الى صغائر وكبائر . ومن قال : إنها لاتعلم اصلا ، او إنها مبهمة ـ : فإنما اخبر عن نفسه انه لايعلمها ، فلا يمنع ان يكون قد علمها غيره . والله اعلم .

وقوله : وإن لم يكونوا تائبين ـ لأن التوبة لاخلاف انهــا تمحو الذنوب ، وإنما الخلاف في غير التائب . وقوله : بعد ان لقوا الله تعــالى عارفين ـ لو قال : مؤمنين ، بدل قوله : عارفين ، كان اولى ، لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر وإنما اكتفى بالمعرفة وحدهــا الجهم ، وقوله مردود باطل ، كما تقدم . فإن إبليس عارف بربه ، (قال رب فأنظرني الى يوم يبعثون) الحجر : ٣٦ . (قال فبعزتك لأغوينهم اجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين)ص : ٨٢ ، ٨٣ . وكذلك فرعون

واكثر الكافرين . قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لقمان : ٢٥ . (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله) المؤمنون : ٨٤ - ٨٥ . الى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى . وكأن الشيخ رحمه الله اراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء ، التي يشير اليهـا اهل الطريقة ، وحاشا اولئك ان يكونوا من اهل الكبائر ، بل هم سادة الناس وخاصتهم .

وقوله : وهم في مشيئة الله وحكمـه ، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله ، الى آخر كلامه - فصلَ الله تعالى بين الشرك وغيره لأن الشرك(١) اكبر الكبائر ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، واخبر الله تعالى ان الشرك غير مغفور ، وعلق غفران مادونه بالمشيئة ، والجائز يعلق بالمشيئة دون الممتنع ، ولو كان الكل سواء لما كان للتفصيل معنى . ولأنه علق هذا الغفران بالمشيئة ، وغفران الكبائر والصغائر بعـد التوبة مقطوع به ، غير معلق بالمشيئة ، كما قال تعالى : (قل ياعبادي َ الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم) الزمر : ٥٣ . فوجب ان يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوى الشرك بالله / قبل التوبة / .

وقوله : ذلك ان الله مولى اهل معرفته - فيه مؤاخذة لطيفة ، كما تقدم . وقوله اللهم ياولي الإسلام واهله مسكنا(٢) بالاسلام، وفي نسخة : ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به(٣) - / روى شيخ الإسلام ابو اسماعيل الأنصاري في كتابه « الفاروق » بسنده عن انس رضي الله عنه ، قال : كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ياولي الإسلام واهله ، مسكني بالإسلام حتى القاك عليه »(٤) . ومناسبة

---

(١) في الاصل : الشرك من .

(٢) في الاصل : مكنا .

(٣) في الاصل : عليه .

(٤) لم اقف على اسناده ، وما اخاله يصح ، و « كتاب الفاروق » لم نقف عليه مع الاسف .

مختم الكلام المتقدم بهذا الدعاء ظاهرة . وبمثل هـذا الدعاء دعا يوسف الصديق صلوات الله عليه ، حيث قال : (رب قـد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، انت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلما والحقني بالصالحين) يوسف : ١٠١ . وبه دعا السحرة الذين كانوا اول من آمن بموسى صلوات الله على نبينا وعليه ، حيث قالوا : (ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) الاعراف : ١٢٥ . ومن استدل بهاتين الآيتين على جواز تمني الموت فلا دليل له فيه ، فإن الدعاء إنما هو بالموت على الإسلام ، لا بمطلق الموت ، ولا بالموت الآن ، والفرق ظاهر .

قوله : (ونرى الصـلاة خلف كل بر وفاجر من اهـل القبـلة ، وعلى من مات منهم) .

ش : قال صلى الله عليه وسلم : « صلوا خلف كل بر وفاجر »(١) . رواه مكحول عن ابي هريرة رضي الله عنه ، واخرجه الدارقطني ، وقال : مكحول لم يلق ابا هريرة . وفي إسناده معاوية بن صالح ، متكلم فيه ، وقـد احتج به مسلم في صحيحه . وخرج له الدارقطني ايضا وابو داود ، عن مكحول ، عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم ، براً كان او فاجراً ، وإن عمل بالكبائر ، والجهاد واجب عليكم مـع كل امير ، براً كان او فاجرا ، وإن عمل الكبائر »(٢) . وفي « صحيح البخاري » : ان عبدالله بن عمر رضي الله عنه كان يصلي خلف الحجاج /ابن يوسف/ الثقفي ، وكذا انس بن مالك ، وكان الحجاج فاسقاً ظالماً . وفي صحيحه « صحيحه » ايضا ، ال النبي صلى الله عليه وسلم قال « يصلون لكم ، فإن اصـابوا فلكم ولهم ، وإن

---

(١) ضعيف .

(٢) ضعيف ايضا .

أخطأوا فلكم وعليهم »(١) . وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلوا خلف من قال لاإله إلا الله ، وصلوا على من مات من اهل لاإله إلا الله »(٢) . اخرجه الدارقطني من طرق ، وضعفها .

اعلم ، رحمك الله وإيانا : انه يجوز للرجل ان يصلى خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقاً ، باتفاق الأئمة ، وليس من شرط الائتمام ان يعلم المأموم اعتقاد إمامه ، ولا ان يمتحنه ، فيقول : ماذا تعتقد ؟! بل يصلي خلف المستور الحال ، ولو صلى خلف مبتدع يدعو الى بدعته ، او فاسق ظاهر الفسق ، وهو الإمام الراتب الذي لايمكنه الصلاة إلا خلفه ، كإمام الجمعة والعيدين ، والإمام في صلاة الحج بعرفة ، ونحو ذلك - : فإن المأموم يصلي خلفه ، عند عامة السلف والخلف . ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر ، فهو مبتدع عند اكثر العلماء . والصحيح انه يصليها ولايعيدها ، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولايعيدون ، كما كان عبدالله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف ، وكذلك انس رضي الله عنه ، كما تقدم ، وكذلك عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن ابي معيط ، وكان يشرب الخمر ، حتى انه صلى بهم الصبح مرة اربعاً ، ثم قال : ازيدكم ؟! فقال له ابن مسعود : مازلنا معك منذ اليوم في زيادة !! وفي « الصحيح » : ان عثمان بن عفان رضي الله عنه لما حصر صلى بالناس شخص ، فسأل سائل عثمان : انك امام عامة ، وهذا الذي صلى بالناس امام فتنة ؟ فقال : ياابن اخي ، ان الصلاة من احسن مايعمل الناس ، فإذا احسنوا فأحسن معهم ، واذا اساؤوا فاجتنب اساءتهم(٣) .

والفاسق والمبتدع صلاته فى نفسها صحيحة ، فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل

---

(١) صحيح ، رواه احمد ايضا .

(٢) ضعيف .

(٣) صحيح .

صلاته ، لكن انما كره من كره الصلاة خلفه ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب .

ومن ذلك : ان من اظهر بدعة وفجوراً لايرتب إماماً للمسلمين ، فإنه يستحق التعزير حتى يتوب ، فإن امكن هجره حتى يتوب كان حسناً ، واذا كان بعض الناس اذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره اثر ذلك في انكار المنكر حتى يتوب او يعزل او ينتهي الناس عن مثل ذنبه ـ : فمثل هذا اذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة شرعية ، ولم تفت المأموم جمعة ولاجماعة . واما اذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة ، فهنا لايترك الصلاة خلفه الا مبتدع مخالف للصحابة رضي الله عنهم . وكذلك اذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور ، ليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية ، فهنا لايترك الصلاة خلفه ، بل الصلاة خلفه افضل ، فاذا امكن الإنسان ان لايقدم مظهراً للمنكر في الإمامة ، وجب عليه ذلك ، لكن اذا ولاه غيره ، ولم يمكنه صرفه عن الإمامة ، او كان لايتمكن من صرفه عن الامامة الا بشر اعظم ضرراً من ضرر ماأظهر من المنكر ـ : فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ، ولادفع اخف الضررين بحصول اعظمهما ، فان الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، بحسب الإمكان . فتفويت الجمع والجماعات اعظم فساداً من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر ، لاسيما اذا كان التخلف عنها لايدفع فجورا ، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة .

واما اذا امكن فعلُ الجمعة والجماعة خلف البر ، فهذا اولى من فعلها خلف الفاجر . وحينئذ ، فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر ، فهو موضع اجتهاد العلماء : / منهم من قال : يعيد / ، ومنهم من قال : لايعيد . وموضع بسط ذلك في كتب الفروع .

واما الإمام اذا نسي او اخطأ ، ولم يعلم المأموم بحاله ، فلا إعادة على المأموم

للحديث المتقدم . وقد صلى عمر رضي الله عنه وغيره وهو جنب ناسياً للجنـابة ، فأعاد الصلاة ، ولم يأمر المأمومين بالإعادة . ولو علم ان إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة ، اعاد عند ابي حنيفة ، خلافاً لمالك والشافعي واحمد في المشهور عنه . وكذلك لو فعل الإمام مالا يسوغ عند المأموم.وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع ولو علم ان إمامه يصلي على غير وضوء !! فليس له ان يصلي خلفه ، لأنه لاعب وليس بمصل .

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الامة ان ولي الأمر ،وامام الصلاة ، والحاكم ، وامير الحرب ، وعاملَ الصدقة - : يُطاع في مواضع الاجتهاد وليس عليه ان يطيع اتباعه في موارد الاجتهاد ، بل عليهم طاعته في ذلك ، وترك رأيهم لرأيه ، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف ، ومفسدة الفرقةوالاختلاف ،اعظم من امر المسائل الجزئية . ولهذا لم يَجزْ للحكـام ان ينقض بعضهم حكم بعض : والصواب المقطوع به صحةُ صلاة بعض هؤلاء خلف بعض .يروى عن أبي يوسف انه لما حجّ مع هرون الرشيد ، فاحتجم الخليفة ، وافتاه مالكبأنه لايتوضأ ،وصلى بالناس ، فقيل لأبي يوسف : أصليت خلفه ؟ قال : سبحان الله ! امير المؤمنين . يريد بذلك ان ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل اهل البدع . وحديث ابي هريرة ، الذي رواه البخاري ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُصلون لكم ، فإن اصابوا فلكم ولهم ، وان اخطأوا فلكم وعليهم »(١) - : نص صحيح صريح في ان الإمام إذا اخطأفخطؤه عليه ، لاعلى المأموم . والمجتهد غايتهأنه اخطأ بترك واجب اعتقـد انه ليس واجباً ، او فعل محظوراً اعتقـد أنـه ليس محظوراً . ولايحل لأحـد يؤمن بالله واليـوم الآخـر أن يخالف هـذا الحديث الصريح الصحيح بعـد ان يبلغه ، وهو حجة على من يُطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية أن الإمام إذا ترك مايعتقدُ المأموم وجوبه لم يصح اقتداؤه به !!

(١) صحيح ، وتقدم .

وقوله : وعلى من مات منهم - أي ونرى الصلاة على من مات من الأبرار والفجار ، وإن كان يستثنى من هذا العموم البغاة وقطاع الطريق ، وكذا قاتل نفسه، خلافاً لأبي يوسف ، لاالشهيد ، خلافاً لمالك والشافعي رحمهما الله ، على ماعرف في موضعه لكن الشيخ إنما ساق هذا لبيان أنا لانترك الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور ، لا للعموم الكلي ، ولكن المظهرون للإسلام قسمان : إما مؤمن، وإما منافق ، فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له ، ومن لم يعلم ذلك منه صلي عليه . فإذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليه ، وصلى عليه من لم يعلم نفاقه ، وكان عمر رضي الله عنه لايصلي على من لم يصل عليه حذيفة ، لأنه كان في غزوة تبوك قد عرف المنافقين ، وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين ، وأخبر أنه لايغفر لهم باستغفاره ، وعلل ذلك بكفرهم بالله ورسوله ، فمن كان مؤمناً بالله ورسوله لم ينه عن الصلاة عليه ، ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية أو العملية أو الفجورية ماله ، بل قد أمره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين ، فقال تعالى : (فاعلم أنه لاإله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) محمد : ١٩ . فأمره سبحانه بالتوحيد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات ، فالتوحيد أصل الدين ، والاستغفار له وللمؤمنين كماله . فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات ، إما واجب وإما مستحب ، وهو على نوعين : عام وخاص ، أما العام فظاهر ، كما في هذه الآية ، وأما الدعاء الخاص ، فالصلاةُ على الميت ، فما من مؤمن يموت إلا وقد أُمِر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة ، وهم مأمورون في صلاتهم عليه أن يدعوا له ، كما روى أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء »(١) .

---

(١) اسناده جيد .

قوله : (ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا نارا) .

ش : يريد : أنا لا نقول عن أحد معين من اهل القبلة إنه من اهل الجنة او من اهل النار ، إلا من أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أنه من أهل الجنة كالعشرة رضي الله عنهم . وإن كنا نقول : إنه لابد أن يدخل النار من أهل الكبائر من شاء الله إدخاله النار ، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين ، ولكنا نقف في الشخص المعيّن فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم ، لأن الحقيقة باطنة ، وما مات عليه لا نحيط به لكن نرجو للمحسنين ، ونخاف على المسيئين .

وللسلف في الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال : أحدها : أن لا يُشهد لأحد إلا للأنبياء ، وهذا ينقل عن محمد بن الحنفية ، والأوزاعي . والثاني : أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص ، وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث . والثالث: أنه يُشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون ، كما في « الصحيحين » : أنه مر بجنازة ،فأثنوا عليها بخير ،فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « وَجبتْ ، ومر بأخرى فأثني عليها بشر ، فقال : وجبت » . وفي رواية كرر : « وجبت » ثلاث مرات، فقال عمر : يارسول الله ، ماوجبت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا أثنيتم عليه خيراً وجبتْ له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض »(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : « توشكون ان تعلموا أهل الجنة من أهل النار » ، قالوا : بمَ يارسول الله ؟ قال : « بالثناء الحسن والثناء السيء »(٢) . فأخبر أن ذلك مما يُعلم به أهل الجنة وأهل النار .

---

(١) صحيح .

(٢) اسناده محتمل للتحسين ، فانه من رواية ابن ابي زهير الثقفي عن أبيه مرفوعاً أخرجه ابن ماجه (٤٢٢١) وأحمد (٣ / ٤١٦ ، ٦ / ٤٦٦) ، قال في « الزوائد » : « اسناده صحيح ، رجاله ثقات » ، قلت : ابو بكر هذا ، لم يرو عنه غير اثنين ،ولم يوثقه غير ابن حبان (١ / ٢٦٧) ، وقال في « التقريب » : « مقبول » ، يعني عند المتابعة ، والا فلين الحديث .

قوله : (ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ، مالم يظهر منهم شيء من ذلك ، ونذر سرائرهم الى الله تعالى) .

ش : لأنا قد أمرنا بالحكم بالظاهر ، ونهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم . قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم) الحجرات : ١١ ، الآية . وقال تعالى : (ياايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم) الحجرات : ١٢ . وقال تعالى : (ولا تقف ماليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا) الاسراء : ٣٦.

قوله : (ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا من وجب عليه السيف) .

ش : في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لايحل دم امرىء مسلم يشهد أن لاإله إلا الله وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »(١) .

قوله : (ولا نرى الخروج على ائمتنا وولاة امورنا ، وإن جاروا ، ولا ندعوا عليهم ، ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ، مالم يأمروا بمعصية ، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة) .

ش : قال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) النساء : ٥٩ . وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الامير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني »(٢) . وعن أبي ذر رضي الله عنه ، قال:

---

(١) متفق عليه .

(٢) مسلم .

« إنَّ خليلي أوصاني أن أسمع وأُطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف » (١) .
وعند البخاري : « ولو لحبشيّ كأن رأسه زبيبة » (٢) . وفي « الصحيحين » أيضاً
« على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، / فإن أمر
بمعصية / فلا سمع ولا طاعة » (٣) . وعن حذيفة بن اليمان قال : كان الناس يسألون
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت اسأله عن الشر ، مخافة أن يدركني
فقلت : يارسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد
هذا الخير من شر ؟ قال : « نعم » ، فقلت : هل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال :
« نعم ، وفيه دَخَنٌ » ، قال : قلت : وما دَخنه ؟ قال : « قوم يستنون بغير سنتي ،
ويهدون (٤) بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر » ، فقلت : هل بعد ذلك الخير من
شر ؟ قال : « نعم : دعاةٌ على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها »
فقلت : يارسول الله ، صِفهم لنا ؟ قال : « نعم ، قوم من جِلدتنا ، يتكلمون
بألسنتنا » ، قلت : يارسول الله ، فما ترى إذا أدركني ذلك ؟ قال : « تلزم جماعة
المسلمين ، وإمامهم » فقلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : « فاعتزل
تلك الفرق كلها ، ولو أن تعضّ على أصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على
ذلك » (٥) . وعن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات
فميتته جاهلية » (٦) . وفي رواية : « فقد خلع رِبقةَ الإسلام من

---

(١) مسلم .

(٢) البخاري

(٣) متفق عليه .

(٤) في الاصل : ويهتدون .

(٥) متفق عليه .

(٦) مسلم من حديث ابن عباس .

عنقه»(١). وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»(٢). وعن عوف بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»، فقلنا: يارسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك؟ قال: «لا، ما أقاموا فيكم الصلاة ألا من ولي عليه وال، فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، / فليكره مايأتي من معصية الله /، ولاينزعن يداً من طاعته»(٣).

فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر، ما لم يأمروا بمعصية فتأمل قوله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) النساء: ٥٩- كيف قال: «وأطيعوا الرسول»، ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم؟ لأن أولي الامر لا يُفردون بالطاعة، بل يُطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله. وأعاد الفعل مع الرسول لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله، فإن الرسول لايأمر بغير طاعة الله، بل هو معصوم في ذلك، وأما ولي الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله، فلا يُطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله. وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا، فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف مايحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الاجور، فإن الله تعالى ماسلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل. قال تعالى: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) الشورى ٣٠. وقال تعالى: (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا، قل هو

---

(١) صحيح، وهي من رواية الحارث الأشعري في حديث طويل، أخرجه احمد (٤ / ١٣٠) وغيره بسند صحيح، وليست من رواية ابن عباس كما أوهم الشارح.

(٢) مسلم وأحمد.

(٣) مسلم.

منْ عند أنفسكم) آل عمرانَ : ١٦٥ وقال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) النساء : ٧٩ .وقال تعالى : (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) الانعام : ١٢٩ . فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم ، فليتركوا الظلم . وعن مالك بن دينار : أنه جاء في بعض كتب الله : « أنا الله مالك الملك ، قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، لكن توبوا أعطفهم عليكم »(١) .

قوله : (ونتبع السنة والجماعة ، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة) .

ش : السنة : طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والجماعة : جماعة المسلمين وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان الى يوم الدين . فاتباعهم هدى ، وخلافهم ضلال . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم) آل عمران : ٣١ . وقال :(ومن يشاقق الرسول من بعدماتبين له الهدى ويتبع غيرَ سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) النساء : ١١٥ . وقال تعالى : (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فإنما عليه ماحمل وعليكم ماحملتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين) النور : ٥٤ وقال تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) الانعام : ١٥٣ . وقال تعالى : (ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم) آل عمران : ١٠٥ . وقال تعالى :

---

(١) هذا من الاسرائيليات ، وقد رفعه بعض الضعفاء الى النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه الطبراني في « الاوسط » عن أبي الدرداء ، قال الهيثمي (٥ / ٢٤٩): « وفيه ابراهيم بن راشد وهو متروك » .

(إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ، إنما أمرهم الى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) الانعام : ١٥٩ .

وثبت في « السنن » الحديث الذي صححه الترمذي ، عن العرباض بن سارية، قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ، ذَرَفتْ منها العيون ، ووَجِلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هـذه موعظةُ مودع ؟ فماذا تعهدُ إلينا ؟ فقال : « أوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنه من يعش منكم بعـدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعـدي ، تمسكوا بها ، /وعضوا عليها/ بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، يعني الأهواء ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة»(٢) . وفي رواية : قالوا : من هي يارسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » . فبين صلى الله عليه وسلم أن عامـة المختلفين هالكون من الجانبين ، إلا أهل السنة والجماعة .

وما أحسن قول عبـدالله بن مسعود رضي الله عنه ، حيث قال : من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لاتؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا أفضل هـذه الأمة ، أبرها قلوباً ، وأعمقها علما وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم . وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان إن شـاء الله تعـالى ، عند قول الشيـخ : ونرى الجماعة حقاً وصواباً . والفرقة زيغاً وعذاباً .

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح ، والرواية الاخرى فيها ضعف ،

قوله : (ونحب أهل العدل والامانة ، ونبغض أهل الجور والخيانة) .

ش : وهذا من كمال الإيمان وتمام العبودية ، فإن العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، وكمال الذل ونهايته . فمحبة رسل الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره ، فغير الله يُحَبّ فى الله ، لا مع الله ، فإن المحب يحب ما يحب محبوبُه ، ويبغض ما يبغض ، ويوالي من يواليه ، ويعادي من يعاديه ، ويرضى لرضائه ، ويغضب لغضبه ، ويأمر بما يأمر به ، وينهى عما ينهى عنه ، فهو موافق لمحبوبه في كل حال . والله تعالى يحب المحسنين ، ويحب المتقين . ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ونحن نحب من أحبه الله . والله لا يحب الخائنين ، ولا يحب المفسدين ، ولا يحب المستكبرين ، ونحن لا نحبهم أيضاً ، ونبغضهم ، موافقة له سبحانه وتعالى . وفي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى في النار »(١) . فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه ، وولايته وعداوته . ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلابد أن يبغض أعداءه ، ولابد أن يحب ما يحبه من جهادهم ، كما قال تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) الصف : ٤ . والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر ، فإن العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة ، والحب والبغض ، فيكون محبوباً من وجه ومبغوضاً من وجه ، والحكم للغالب ، وكذلك حكم العبد عند الله ، فإن الله قد يحب الشيء من وجه ويكرهه من وجه آخر ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، فيما يروي عن ربه عز وجل : « وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأنا أكره مساءته ، ولابد له منه »(٢) . فبين أنه

---

(١) صحيح .　　(٢) البخاري .

يتردد ، لأن التردد تعارض إرادتين ، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده المؤمن ، ويكره ما يكرهه . وهو يكره الموت فهو يكرهه ، كما قال : « وأنا أكره مساءته » ، وهو سبحانه قضى بالموت فهو يريد كونه ، فسمى ذلك تردداً ، ثم بين أنه لابد من وقوع ذلك ، إذ هو يفضي الى ما هو أحب(١) منه .

قولة : (ونقول : الله أعلم ، فيما اشتبه علينا علمه) .

ش : تقدم في كلام الشيخ رحمه الله أنه ماسلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ورد علم ماأشتبه عليه الى عالمه . ومن تكلم بغير علم فإنما يتبع هواه ، وقد قال تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) القصص : ٥٠ . وقال تعالى : (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه الى عذاب السعير) الحج : ٣-٤ . وقال تعالى : (الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، وكذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) غافر : ٣٥ . وقال تعالى : (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله مالاتعلمون) الاعراف : ٣٣ . وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد علم مالم يعلم اليه ، فقال تعالى : (قل الله أعلم بما لبثوا ، له غيب السموات والأرض) الكهف : ٢٦ . (قل ربي أعلم بعدتهم) الكهف : ٢٢ . وقد قال صلى الله عليه وسلم ، لما سئل عن أطفال المشركين : « الله أعلم بما كانوا عاملين »(٢) ، . وقال عمر رضي الله عنه : اتهموا الرأي في الدين ، فلو رأيتني يوم أبي جندل ، فلقد رأيتني وإني لارد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيي ، فأجتهد ولا آلو ، وذلك يوم أبي جندل ، والكتاب

---

(١) في الاصل : واجب .

(٢) متفق عليه .

يكتب ، وقال : اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) ، قال : اكتب باسمك اللهم ، فرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب وأبيتُ ، فقال : « يا عمر تراني قد رضيت وتأبى ؟ »(١) وقال أيضا رضي الله عنه : السنة ما سنه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، لاتجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني ، إن قلت في آية من كتاب الله برأيي ، أو بما لاأعلم . وذكر الحسن بن علي الحلواني ، حدثنا عارم ، حدثنا حماد بن زيد ، عن سعيد بن أبي صدقة ، عن ابن سيرين قال : لم يكن أحد أهيب لما لا يعلم من أبي بكر ، ولم يكن بعد أبي بكر أهيب لما لايعلم من عمر رضي الله عنه ، وإن أبا بكر نزلت به قضية ، فلم يجد في كتاب الله منها أصلا ، ولا في السنة أثراً ، فاجتهد برأيه ، ثم قال : هذا رأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ، وأستغفر الله .

قوله : (ونرى المسح على الخفين ، في السفر والحضر ، كما جاء في الأثر) :

ش : تواترت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين ، والذين نقلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم الوضوء قولا وفعلا ، والذين تعلموا الوضوء منه وتوضؤوا على عهده وهو يراهم ويقرهم ، ونقلوه الى من بعدهم - : أكثر عدداً من الذين نقلوا لفظ آية الوضوء . فإن جميع المسلمين كانوا يتوضؤون على عهده ، ولم يتعلموا الوضوء إلا منه ، فإن هذا العمل لم يكن

---

(١) الطبراني في « الكبير » (١/٥/١) وأبن حزم في « الاحكام »(٤٦/٦) ورجاله ثقات غير ان فضالة بن مبارك مدلس كما في « التقريب » وقد عنعنه ، وقال الهيثمي في « المجمع » (١٧٩/١) : « رواه أبو يعلى ورجاله موثوقون وان كان فيهم مبارك بن فضالة » . وقال في موضع آخر (١٤٥/٦-١٤٦) وقد ساقه بأطول من هذا ، لكنه لم يذكره بتمامه : « رواه البزار ورجاله رجال الصحيح » ، وطرفه الاول في « الصحيحين » من قول سهل بن حنيف .

معهوداً عندهم في الجاهلية ، وهم قد رأوه يتوضأ مالايحصي عدده إلا الله تعالى ، ونقلوا عنه ذكر غسل الرجلين في ماشاء الله من الحديث ، حتى نقلوا عنه من غير وجه ، في كتب الصحيح وغيرها ، أنه قال : « ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار »(١) .

مع أن الفرض إذا كان مسح ظاهر القدم ، كان غسل الجميع كلفة لاتدعو اليها الطباع ، كما تدعو الطباع الى طلب الرياسة والمال ، فلو جاز الطعن في تواتر صفة الوضوء ، لكان في نقل لفظ آية/الوضوء/ أقرب الى الجواز ، وإذا قالوا : لفظ الآية ثبت بالتواتر الذي لايمكن فيه الكذب ولا الخطأ ، فثبوت التواتر في نقل الوضوء عنه أولى وأكمل ، ولفظ الآية لايخالف ماتواتر من السنة ، فإن المسح كما يطلق ويراد به الإصابة - كذلك يطلق ويراد به الإسالة ، كما تقول /العرب/ : تمسحتُ للصلاة ، وفي الآية ما يدل على أنه لم يرد بمسح الرجلين المسح الذي هو قسيم الغسل ، بل المسح الذي الغسلُ قسمٌ منه ، فإنه قال : (إلى الكعبين) المائدة : ٦ ، ولم يقل : الى الكعاب ، كما قال : (الى المرافق) المائدة : ٦ ، فدل على أنه ليس في كل رِجْل كعب واحد ، كما في كل يد مرفقٌ واحد ، بل في كل رجل كعبان ، فيكون تعالى قد أمر بالمسح الى العظمين الناتئين ، وهذا هو الغسل ، فإن من يمسح المسح الخاص يجعل المسح لظهور القدمين ، وجعل الكعبين في الآية غاية يرد قولهم . فدعواهم أن الفرض مسح الرجلين الى الكعبين ، اللذين هما مجتمع الساق والقدم عند معقد الشراك - مردود بالكتاب والسنة .

وفي الآية قراءتان مشهورتان : النصب والخفض ، وتوجيه إعرابها مبسوط في موضعه . وقراءة النصب نص في وجوب الغسل ، لأن العطف على المحل إنما

---

(١) متفق عليه دون قوله : « وبطون الاقدام » وهو عند أحمد (١٩١/٤) بسند صحيح من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي .

يكون اذا كان المعنى واحداً ، كقوله :

* فلسنا بالجبال ولا الحديدا *

وليس معنى : مسحت برأسي ورجلي - هو معنى : مسحت رأسي ورجلي ، بل ذكر الباء يفيد معنى زائداً على مجرد المسح ، وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس ، فتعين العطف على قوله : (وأيديكم) . فالسنة المتواترة تقضي على ما يفهمه بعض الناس من ظاهر القرآن ، فإن الرسول بين للناس لفظ القرآن ومعناه . كما قال أبو عبدالرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن : عثمان بن عفان ، وعبدالله بن مسعود ، وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا معناها . وفي ذكر المسح في الرجلين تنبيه على قلة الصب في الرجلين ، فإن السرف يُعتاد فيهما كثيراً . والمسألة معروفة ، والكلام عليها في كتب الفروع .

قوله : (والحج والجهاد ماضيان مع أولي الامر من المسلمين ، برّهم وفاجرهم ، الى قيام الساعة ، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما) .

ش : يشير الشيخ رحمه الله الى الرد على من يخالف في هذا أو يشترط لهما شروطاً لم يأت بها الشرع .

وقوله : مع أولي الأمر برّهم وفاجرهم - لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر ، فلابد من سائس يسوس الناس فيهما ، ويقاوم العدو ، وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البرّ يحصل بالإمام الفاجر .

قوله : (ونؤمن بالكرام الكاتبين ، فان الله قد جعلهم علينا حافظين) .

ش : قال تعالى : (وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما

تفعلون) الانفطار ١٠-١٢ وقال تعـالى : (إذ يتلقى المتلقيان ، عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ق : ١٧-١٨ . وقال تعالى : (له معقبات من بين يديه ومن خلفه ، يحفظونه من أمر الله) الرعد : ١١ . وقال تعالى : (أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم ، بلى ، ورسلنا لديهم يكتبون) الزخرف : ٨٠ . وقال تعالى : (هـذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) الجاثية : ٢٨ . وقال تعـالى : (إن رسلنا يكتبون ما تمكرون) يونس : ٢١ . وفي « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد اليه الذين كانوا فيكم ، فيسألهم ، والله أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وفارقناهم وهم يصلون »(١) ، وفي الحديث الآخر : « إن معكم من لايفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع ، فاستحيوهم ، وأكرموهم »(٢). جاء في التفسير : اثنان عن اليمين وعن الشمال ، يكتبان الأعمال ، صاحبُ اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، ومَلكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه ، وواحد أمامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، واربعة آخرين بالليل ، بدلا ، حافظان وكاتبان ، وقال عكرمة عن ابن عباس : (يحفظونه من أمر الله) الرعد : ١١ ، قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلّوا عنه .

وروى مسلم والإمام أحمد عن عبدالله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » ، قالوا : وإياك يارسول الله ؟ قال : « وإياي ، لكن الله أعانني عليه فأسلمَ ، فلا

---

(١) متفق عليه .

(٢) ضعيف .

يأمرني إلا بخير »(١) . الرواية بفتح الميم من « فأسلم » / ومن رواه « فأسلم » برفع الميم - فقد حرف لفظه . ومعنى « فأسلم » / ، أي : فاستسلم وأنقاد لي ، في أصح القولين ، ولهذا قال : « فلا يأمرني إلا بخير » ، ومن قال : إن الشيطان صار مؤمناً - فقد حرف معناه ، فإن الشيطان لايكون مؤمناً(٢) . ومعنى : (يحفظونه من امر الله) الرعد : ١١ - قيل : حفظهم له من أمر الله ، أي الله أمرهم بذلك ، يشهد لذلك قراءة من قرأ : يحفظونه بأمر الله .

---

(١) صحيح .

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر : والخلاف في ضبط الميم من « فأسلم » - خلاف قديم . والراجح فيها الفتح : كما قال الشارح ، ولكن المعنى الذي رجحه غير راجح فقال القاضي عياض ، في مشارق الانوار (٢ / ٢١٨) : « رويناه بالضم والفتح. فمن ضم رد ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم ، أي : فأنا اسلم منه . ومن فتح رده الى القرين ، أي : أسلم من الاسلام . وقد روي في غير هذه الأمهات : فاستسلم . يريد بالامهات : « الموطأ » و « الصحيحين » ، التي بنى عليها كتابه ، وان كان هذا الحديث لم يروه مالك ولا البخاري .

وقال النووي في شرح مسلم : « هما روايتان مشهورتان . واختلفوا في الارجح منهما ، فقال الخطابي : الصحيح المختار الرفع ،ورجح القاضي عياض الفتح

وأما الحافظ ابن حبان ، فأنه روى الحديث في صحيحه (٢ / ٢٨٣ ، من المخطوطة المصورة) ، وجزم برواية فتح الميم ، وقال : « في هذا الخبر دليل على ان شيطان المصطفى صلى الله عليه وسلم أسلم حتى لم يكن يأمره الا بخير ، لا أنه كان يسلم منه وان كان كافراً » . وهذا هو الصحيح الذي ترجحه الدلائل . وادعاء الشارح أن هذا تحريف للمعنى . « فان الشيطان لايكون مؤمناً » انتقال نظر .فأولا ان اللفظ في الحديث « قرينه من الجن » ، لم يقل : « شيطانه » . وثانياً : ان الجن فيهم المؤمن والكافر . والشياطين هم كفارهم ، فمن آمن منهم لم يسم شيطاناً .

ثم قدثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القول والفعل . وكذلك النية ، لأنها فعل القلب ، فدخلت في عموم (يعلمون ماتفعلون) الانفطار : ١٢ . ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ،فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة ، وإذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشراً »(١) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة، وهوأبصر به ،فقال : ارقبوه ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركهامن جرائي »(٢) ، خرجاهما في « الصحيحين » واللفظ لمسلم .

قوله : (ونؤمن بملك الموت ، الموكل بقبض أرواح العالمين) .

ش : قال تعالى : (قل يتوفا كم ملك الموت) الذي وكل بكم ، ثم الى ربكم ترجعون) آلم . السجدة : ١١ .ولاتعارض هذه الآية قوله : (حتى إذا جاءأحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون) الانعام : ٦١ ، وقوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى الى أجل مسمى) الزمر : ٤٢ - : لأن ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها ، ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، ويتولونها بعده، كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره ، وحكمه وأمره ، فصحت إضافة التوفي الى كل بحسبه .

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

قوله : (وبعذاب القبر لمن كان له أهلا ، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه ، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة رضوان الله عليهم . والقبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران) .

ش : قال تعالى : (وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر : ٤٥-٤٦. وقال تعالى : (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون . يوم لايغني عنهم كيدهم شيئاً ولاهم ينصرون . وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك . ولكن أكثرهم لايعلمون) الذاريات : ٤٥-٤٧ . وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا ، وأن يراد به عذابهم في البرزخ ، وهو أظهر ، لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب فى الدنيا ، أو المراد أعم من ذلك . وعن البراء بن عازب رضي الله عنه ، قال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقعد وقعدنا حوله ، كأن على رؤوسنا الطير ، وهو يلحد له ، فقال : « أعوذ بالله من عذاب القبر » ، ثلاث مرات ، ثم قال : « إن العبد /المؤمن/ إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، نزلت اليه الملائكة ، كأن على وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، فجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : يا أيتها النفس الطيبة ، اخرجي الى مغفرة من الله ورضوان » ، قال : « فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، قال : فيصعدون بها ، فلا يمرون بها ، يعني على ملإ من الملائكة ، إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها الى السماء ، فيستفتحون له ، فيفتح له،

فيُشيعه من كل سماء مقربوها ، الى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها الى السماء التي فيها الله ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوه الى الارض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال : فتعاد روحه في جسده . فيأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول ربي الله ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول: هو رسول الله ، فيقولان له : ما علمك ؟فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ، فينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً الى الجنة ، قال : فيأتيه من رَوحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مَد بصره ، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : ابشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه /الذي/ يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : يا ربّ ، أقم الساعة حتى أرجع الى أهلي ومالي ، قال : وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل اليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي الى سخط من الله وغضب ، قال فتتفرق في جسده ، فينتزعها كما يُنتزع السفود من الصفوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح خبيثة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهي بها الى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَم الخياط) الاعراف : ٤٠ ،فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجّين ، في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء

فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) الحج : ٣١ ، فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه ، هاه ، لا أدري ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ، فيقول : هاه هاه ، لا أدري ، فينادي مناد من السماء : أن كذب ، فافرشوه من النار ، وافتحوا له باباً الى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : ابشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت ، فوجهك الوجه /الذي/ يجيء بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول رب لاتقم الساعة »(١) . رواه الإمام أحمد وأبو داود ، وروى النسائي وابن ماجة أوله ، ورواه الحاكم وأبو عوانة الإسفرائيني في « صحيحيهما » وابن حبان .

وذهب الى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث ، وله شواهد من الصحيح . فذكر البخاري رحمه الله عن سعيد عن قتادة عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم ، فيأتيه ملكان ، فيقعدانه ، فيقولان له : ماكنت تقول في هذا الرجل ، محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبدالله ورسوله ، فيقول له : انظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، فيراهما جميعاً »(٢) . قال قتادة : وروي لنا انه يفسح له في قبره ، وذكر الحديث . وفي « الصحيحين » عن ابن عباس رضي الله عنهما : ان النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين ، فقال : « إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير ، اما احدهما فكان لايستبرىء من البول ، واما الآخر فكان يمشي بالنميمة ، فدعا بجريدة رطبة ، فشقها نصفين ،

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

وقال : لعله يخفف عنهما مالم ييبسا »(١) . وفي « صحيح » ابي حاتم عن ابي هريرة ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا قبر احدكم ، او الإنسان اتاه ملكان اسودان ازرقان ، يقال لأحدهما المنكر، وللاخر : النكير »(٢) ، وذكر الحديث الخ.

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ، ولاتتكلم في كيفيته ،إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لاعهد له به في هذا الدار ، والشرع لايأتي بما تحيله العقول ، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول . فإن عود الروح الى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد الروح اليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا . فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق ، متغايرة الأحكام : أحدها : تعلقها به في بطن الأم جنيناً . الثاني : تعلقها به بعد خروجه الى وجه الأرض . الثالث : تعلقها به في حال النوم ، فلها به تعلق من وجه ، ومفارقة من وجه . الرابع : تعلقها به في البرزخ ، فإنها وان فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كليّا بحيث لايبقى لها اليه التفات البتة ، فإنه ورد ردّها إليه وقت سلام المسلّم ، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه. وهذا الردّ إعادة خاصة لايوجب حياة البدن قبل يوم القيامة . الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد ، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ، ولانسبة لما قبله من أنواع التعلق اليه ، إذ هو تعلق لايقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولافساداً ، فالنوم أخو الموت . فتأمل هذا يُزِح عنك إشكالات كثيرة .

---

(١) متفق عليه .

(٢) حسن ، أخرجه الترمذي أيضاً (١١٩/١) وقال « حديث حسن غريب » ، قلت : واسناده حسن ، وفيه رد على من أنكر من المعاصرين تسمية الملكين « المنكر » و « النكير » .

وليس السؤال في القبر للروح وحدها ، كما قال ابن حزم وغيره ، وأفسدمنه قول من قال : إنه للبدن بلا روح ! والأحاديث الصحيحة ترد القولين . وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعاً ، باتفاق أهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به .

واعلم ان عذاب القبرهو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه ، / قُبر أو لم يقبر / ، اكلته السباع او احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء ، او صلب او غرق في البحر ـ وصل الى روحه وبدنه من العذاب مايصل الى المقبور . وما ورد من إجلاسه واختلاف اضلاعه ونحو ذلك ـ فيجب ان يُفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم مراده من / غير / غلو ولا تقصير ، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان ، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب مالا يعلمه إلا الله . بل سوء الفهم عن الله ورسوله اصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام ، وهو اصل كل خطأ في الفروع والأصول ، ولاسيما إن اضيف إليه سوء القصد . والله المستعان.

فالحاصل ان الدُّور ثلاث : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . وقد جعل الله لكل دار احكاماً تخصها ، وركّب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل احكام الدنيا على الأبدان ، والأرواح تبع لها ، وجعل احكام البرزخ على الأرواح والابدان تبع لها ، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم ـ صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً . فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل ، ظهر لك ان كون القبر روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النار مطابق للعقل ، وأنه حق(١) لامرية فيه ، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم ويجب ان يعلم ان النار التي في القبر والنعيم ، ليس من جنس نار الدنيا ولانعيمها

(١) في الاصل : لاحق .

وإن كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحته حتى يكون اعظم حراً من جمر الدنيا ، ولو مسها اهل الدنيا لم يحسوا بها . بل اعجب من هذا ان الرجلين يدفن أحدهما الى جنب صاحبه ، وهذا في حفرة من النار ، وهذا في روضة من رياض الجنة ، لا يصل من هذا الى جاره شيء من حر ناره ، ولا من هذا الى جاره شيء من نعيمه . وقدرة الله اوسع من ذلك واعجب ، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً . وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ماهو أبلغ من هذا بكثير . وإذا شاء الله ان يُطلع على ذلك بعض عباده أطلعه وغيّبه عن غيره ، ولو اطلع الله على ذلك العباد كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب ولما تدافن(١) الناس ، كما في « الصحيح » عنه صلى الله عليه وسلم : « لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله ان يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع »(٢) . ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم سمعته وأدركته .

قوله : (ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة ، والعرض والحساب ، وقراءة الكتاب ، والثواب والعقاب ، والصراط والميزان) .

ش : الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة ، والعقل والفطرة السليمة . فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز ، وأقام الدليل عليه ، وردّ على منكريه في غالب سور القرآن . وذلك : أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان بالله(٣) ، فإن الاقرار بالرب عام في بني آدم ، وهو فطري ، كلهم يقر بالرب ، إلا من عاند ، كفرعون ، بخلاف الإيمان باليوم الآخر ، فإن منكريه كثيرون ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم الأنبياء ، وكان قد بُعث هو والساعة كهاتين ،

---

(١) في الاصل : تذاكر .

(٢) مسلم .

(٣) في الاصل : بالآخرة .

وكان هو الحاشر المقفّي - بين تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء . ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم ، أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعلوا هذه حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري .

والقرآن بين معاد النفس عند الموت ، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في غير موضع . وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى ، وينكرون معاد الأبدان ، ويقول من يقول منهم : إنه لم يخبر به إلا محمد صلى الله عليه وسلم على طريق التخييل ! وهذا كذب ، فإن القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء ، من آدم الى نوح ، الى ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام ، وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم ، فقال تعالى : (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين) الاعراف : ٢٤ (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) الاعراف : ٢٥ . ولما قال إبليس اللعين : رب فأنظرني الى يوم يبعثون ، قال : (فإنك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) ص : ٨٠-٨١ . وأما نوح عليه السلام فقال : (والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجاً) نوح: ١٧-١٨ . وقال ابراهيم عليه السلام : (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) الشعراء : ٨٢ . الى آخر القصة . وقال : (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) ابراهيم : ٤١ . وقال : (رب أرني كيف تحيي الموتى) الآية ، البقرة : ٢٦٠ ، وأما موسى عليه السلام ، فقال الله تعالى لما ناجاه : (إن الساعة آتية أكاد أخفيها . لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) طه : ١٥-١٦ . بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد ، وإنما آمن بموسى ، قال تعالى حكاية عنه : (ويا قوم إني إخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم . ومن يضلل الله فما له من هاد) غافر : ٣٢-٣٣ ، الى قوله تعالى : (يا قوم إن هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار

القرار) غافر : ٣٩ ، الى قوله : (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر : ٤٦ .
وقال موسى : (واكتب لنا في هـذه الدنيا حسنة وفي الآخرة . إنا هـدنا إليك)
الاعراف : ١٥٦ . وقـد أخبر الله في قصة البقرة : (فقلنا أضربوه ببعضها . كذلك
يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) : البقرة : ٧٣ . وقد أخبر الله أنه أرسل
الرسل مبشرين ومنذرين ، في آيات /من/ القرآن ، وأخبر عن أهـل النار انهم إذا
قال لهم خزنتها : (ألم يأتـكم رسل منـكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونـكم لقاء
يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) الزمر : ٧١.
وهذا اعتراف من اصناف الكفار الداخلين جهنم ان الرسل انذرتهم لقاء يومهم
هذا . فجميع الرسـل انذروا بما انذر به خاتمهم ، من عقوبات المذنبين في الدنيا
والآخرة . فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد ، يذكر ذلك فيها : في
الدنيا والآخرة . وامر نبيه ان يقسم به على المعـاد ، فقال : (وقال الذين كفروا
لاتأتينا الساعة ، قل : بلى وربي لتأتينـكم عالم الغيب) سـبأ : ٣ ، الآيات . وقال
تعالى : (ويستنبؤونك احق هو ؟ قـل : إي وربي إنه لحق وما انتم بمعجزين)
يونس : ٥٣ . وقال تعالى : (زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا . قل : بلى وربي
لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) التغابن : ٧ . واخبر عن اقترابها ،
فقال : (اقتربت الساعة وانشق القمر) القمر : ١ . (اقترب للناس حسابهم
وهم في غفلة معرضون) الأنبياء : ١ . (سـأل سـائل بعذاب واقع للكافرين)
المعارج : ١-٢ ، الى ان قال : (إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) : المعارج : ٦-٧ .
وذم المكذبين بالمعاد ، فقال : (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين)
يونس : ٤٥/(حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) /
الانعام : ٣١ . (الا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضـلال بعيد) الشوى : ١٨ .
(بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هل في شك منها بل هم منها عمون) النمل : ٦٦ .
(واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً) النحل :
٣٨ ، الى ان قال : (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) النحـل ٣٩ . (إن

الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) غافر : ٥٩ . (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً) الاسراء : ٩٧ . (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقا جديداً) الاسراء : ٩٨ . (او لم يروا ان الله الذي خلق السموات والأرض قادر على ان يخلق مثلهم وجعل لهم اجلا لاريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً) الاسراء : ٩٩ . (وقالوا : أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً . قل كونوا حجارة او حديداً او خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذي فطركم اول مرة ، فسينغضون إليك رؤوسهم ، ويقولون متى هو ؟ قل عسى ان يكون قريباً . يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) الاسراء : ٤٩-٥٢ .

فتأمل ما اجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل : فإنهم قالوا اولا : (ائذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقا جديداً) ؟ ! الاسراء : ٤٩ ، فقيل لهم في جواب هذا السؤال : إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم ، فهلا كنتم خلقاً لا يفنيه الموت ، كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك ؟ ! فإن قلتم : كنا خلقاً على هذه الصفة التي لاتقبل البقاء ـ فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقاً جديداً ؟ ! وللحجة تقدير آخر ، وهو : لو كنتم من حجارة او حديد او خلق اكبر منهما ، / فإنه / قادر على ان يفنيكم ويحيل ذواتكم ، وينقلها من حال الى حال ، ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام ، مع شدتها وصلابتها بالإفناء والاحالة ـ فما الذي يعجزه فيما دونها ؟ ثم أخبر انهم يسألون آخراً بقولهم : من يعيدنا اذا استحالت جسومنا وفنيت ؟ فأجابهم بقوله : (قل الذي فطركم اول مرة) الاسراء : ٥١ . فلما أخذتهم الحجة ، ولزمهم حكمها ، انتقلوا الى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع ، وهو قولهم : متى هو ؟ فأجيبوا بقوله : (عسى ان يكون قريباً) .

ومن هذا قوله : (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال : من يحيي العظام وهي رميم) يس : ٧٨ ؟ الى آخر السورة . فاو رام اعلم البشر وافصحهم واقدرهم على البيان ، ان يأتي بأحسن من هذه الحجة ، او بمثلها ، بألفاظ تشابه هذه الالفاظ في الإيجاز وَوَضح الادلة وصحة البرهان لما قدَرَ . فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال اورده ملحد ، اقتضى جواباً ، فكان في قوله : (ونسى خاقه) يس : ٧٨ ماوفى بالجواب . وأقام الحجة وازال الشبهة لما اراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها فقال : (قل يحييها الذي انشأها اول مرة) يس : ٧٩ ، فاحتج بالإبداء على الإعادة ، وبالنشأة الاولى على النشأة الاخرى . إذ كل عاقل يعلم ضرورياً أنّ من قدر على هذه قدر على هذه ، وانه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجزَ واعجز . ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخاوق ، وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله : (وهو بكل خاق عليم) يس : ٧٩ فهو عليم بتفاصيل الخاق الاول وجزئياته ، ومواده وصورته ، فكذلك الثاني . فإذا كان تام العلم ، كامل القدرة ، كيف يتعذر عليه ان يحيي العظام وهي رميم ؟ ثم أكد الأمر بحجة قاهرة ، وبرهان ظاهر ، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول : العظام اذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة ، والحياة لابد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث ، ففيه الدليل والجواب معاً ، فقال : (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا انتم منه توقدون) يس : ٨٠ . فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر ، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة ، فالذي يخرج الشيء من ضده ، وتنقاد له موادالمخلوقات وعناصرها / و / لاتستعصي عليه هو الذي يفعل ماأنكره الملحد ودفعه ، من إحياء العظام وهي رميم . ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجلّ الأعظم ، / على / الايسر الاصغر ، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على مادونه بكثير اقدر واقدر ، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً ، فقال : (او ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على ان

يخلق مثلهم)؟ يس : ٨١ فأخبر ان الذي أبدع السموات والأرض ، على جلالتهما وعظم شأنهما ، وكبر أجسامهما ، وسعتهما ، وعجيب خلقهما ،أقدر على أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً ، فيردّها الى حالتها الاولى . كما قال في موضع آخر : (لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لايعلمون) غافر : ٥٧ . وقال : (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على ان يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخلاق العليم) يس : ٨١ . ثم اكد سبحانه ذلك وبينه ببيان آخر ، وهو انه ليس فعله بمنزلة غيره ، الذي يفعل بالآلات والكلفة ، والنصب والمشقة ، ولايمكنه الاستقلال بالفعل ، بل لابد معه من آلة ومعين ، بل يكفي في خلقه لما يريد ان يخلقه ويكونه نفس إرادته ، وقوله للمكون : « كن » فإذا هو كائن كما شاءه واراده . ثم ختم هذه الحجة بإخباره ان ملكوت كل شيء بيده ، فيتصرف فيه بفعله وقوله ، (واليه ترجعون) يس : ٨٣ .ومن هذا قوله سبحانه: (ايحسب الانسان ان يترك سدى . الم يك نطفة من مني يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوّى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى) القيامة : ٣٦ ـ ٤٠ .فاحتج سبحانه على أنه لايتركه مهملا عن الأمر والنهي والثواب والعقاب ، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك أشد الإباء ، كما قال تعالى : (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لاترجعون)المؤمنون : ١١٥ ، الى آخر السورة . فإن من نقله من النطفة الى العلقة ، ثم الى المضغة ، ثم شق سمعه وبصره ، وركب فيه الحواس والقوى ، والعظام والمنافع ، والأعصاب والرباطات التي هي أشده ، وأحكم خلقه غاية الإحكام ، وأخرجه على هذا الشكل والصورة ، التي هي أتم الصور واحسن الاشكال كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية ؟ ام كيف تقتضي حكمته وعنايته أن يتركه سدى ؟ فلا يليق ذلك بحكمته ، ولاتعجز عنه قدرته فانظر الى هذا الاحتجاج العجيب ، بالقول الوجيز ، الذي لايكون اوجز منه ، والبيان الجليل ، الذي لايتوهم اوضح منه ، ومأخذه القريب ، الذي لاتقع الظنون على اقرب منه .

وكم في القرآن / من / مثل هذا الاحتجاج ، كما في قوله تعـالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) الحج : ٥ الى ان قال : (وان الله يبعث من في القبور) الحج : ٧. وقوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) المؤمنون : ١٢ ، الى ان قال : (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) المؤمنون : ١٦ . وذكر قصة أصحـاب الكهف ، وكيف ابقاهم موتى ثلاثمائة سنة شمسية ، وهي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية ، وقال فيها : (وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لاريب فيها) الكهف : ٢١ .

وقوله : وجزاء الأعمال ـ قال تعالى : (مالك يوم الدين) الفاتحـة : ٣ ، (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين) النور : ٢٥ . / والدين : الجزاء ، يقال : كما تدين تُدان، أي كما تجازِي تجازَى / ، وقال تعالى: (جزاء بما كانوا يعملون) السجدة : ١٧ والاحقاف : ١٤ والواقعة : ٢٤ (جزاء وفاقا) النبأ : ٢٦ . (من جاء بالحسنة فله عشر امثالها، ومن جاء بالسيئة فلايجزى الا مثلها ، وهم لايظلمون) الانعام : ١٦٠ . (من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ، هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) النمل : ٨٩ ـ ٩٠ . (من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) القصص : ٨٤ . وامثال ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم ، فيما يروي عن ربه عز وجل ، من حديث ابي ذر الغفاري رضي الله عنه : « ياعبادي ، إنما هي اعمالكم احصيها لكم ، ثم اوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »(١) وسيأتي لذلك زيادة بيان عن قريب ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : والعرض والحساب ، وقراءة الكتـاب ، والثواب والعقاب . قال تعالى : (فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على

---

(١) مسلم واحمد .

ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثانية. يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية) الحاقة : ١٥ ـ ١٨ ، الى آخر السورة . (يا ايها الإنسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه . فأما من اوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً . وينقلب الى اهله مسروراً . واما من اوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً . إنه كان في اهله مسروراً . إنه ظن ان لن يحور . بلى ان ربه كان به بصيرا) الانشقاق ٦ ـ ١٥ . (وعرضوا على ربك صفاً ، لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة) الكهف ٤٨ . (ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها ، ووجدوا ماعملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك احدا) الكهف : ٤٩ . (يوم تبدل الأرض غير الأرض / والسموات / ، وبرزوا لله الواحد القهار) ابراهيم : ٤٨ ، الى آخر السورة . (رفيع الدرجات / ذو العرش ، يلقي الروح من امره على من يشاء من عباده /) غافر : ١٥ ، الى قوله (ان الله سريع الحساب) غافر : ١٧ . (واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون) البقرة : ٢٨١ . وروى البخاري رحمه الله في « صحيحه » ، عن عائشة ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس احد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، فقلت : يارسول الله ، أليس قد قال الله تعالى : (فأما من اوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً) الانشقاق : ٧ ـ ٨ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما ذلك العرض(١) ، وليس احد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب »(٢). يعني انه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولكنه تعالى يعفو ويصفح . وسيأتي لذلك زيادة / بيان / ، ان شاء الله تعالى . وفي «الصحيح» عن النبي صلى الله عليه وسلم ، انه قال : « إن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون اول من يفيق ، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري افاق

(١) في الاصل : للعرض .

(٢) صحيح .

قبلي، ام جوزي بصعقة يوم الطور ؟»(١) وهذا صعق في موقف القيامة اذا جاء الله لفصل القضاء، وأشرقت الأرض بنوره، فحينئذ يصعق الخلائق كلهم. فإن قيل: كيف تصنعون بقوله في الحديث: «إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الارض، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش»(٢)؟ قيل: لا ريب أن هـذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال. ولكنه دخـل فيه على الراوي حديث في حديث، فركب بين اللفظين، فجاء هذان الحديثان هكذا: أحدهما:

---

(١) متفق عليه.

(٢) صحيح، أخرجه البخاري في أول كتاب «الخصومات» من حديث وهيب، حدثنا عمرو بن يحيى عن أبي سعيد الخدري مرفوعا في قصة ضرب الصحابي لليهودي بلفظ: «لا تخيروا بين الانبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الارض فاذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق أم حوسب بصعقته الاولى».

وأخرجه مسلم رقم (٢٣٧٤) من طريق سفيان عن عمرو بن يحيى به. لكنه لم يسق لفظه بتمامه، وقد ساقه أحمد (٣/٣٣) من هذه الطريق بلفظ: «وأنا أول من تنشق عنه الارض يوم القيامة فأفيق، فأجد موسى .... » الحديث.

ويشهد لهذه الرواية حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٣٧٣) بلفظ: «لاتفضلوا بين أنبياء الله، فانه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الارض إلا من شاء الله، قال: ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، أو في أول من بعث، فاذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور، أو بعث قبلي».

ومن هذين الحديثين يتبين أن هـذه الصعقة الثانية انما هي صعقة البعث، المذكورة في الآية، وليست صعقة تقع لفصل القضاء كما ذكر الشارح تبعا لابن القيم. وعلى ذلك فلا أشكال في الحديث. والله أعلم.

« أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق » ، كما تقدم ، والثاني : « أنا أول من تنشق عنه الارض يوم القيامة »(١) ، فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر . وممن نبه على هذا أبو الحجاج المزّي ، وبعده الشيخ شمس الدين بن القيم، وشيخنا الشيخ عماد بن كثير ، رحمهم الله . وكذلك اشتبه على بعض الرواة ، فقال : « فلا أدري أفاق قبلي ام كان ممن استثنى الله عز وجل »(٢) ؟ والمحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول ، وعليه المعنى الصحيح ، فإن الصعق يوم القيامة لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء ، فموسى عليه السلام إن كان لم يصعق معهم ، فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكاً ، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً عن صعقة الخلائق لتجلي ربه يوم القيامة . فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله . وروى الإمام احمد ، والترمذي ، وابو بكر بن ابي الدنيا ، عن الحسن ، قال : سمعت ابا موسى الأشعري يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاثَ عرضات ، فعرضتان جدال ومعاذير ، وعرضة تطاير الصحف ، فمن اوتي كتابه بيمينه ، وحوسب حسابا يسيرا ، دخل الجنة ، ومن اوتي كتابه بشماله ، دخل النار »(٣) . وقد روى ابن ابي

(١) رواه مسلم رقم (٢٢٧٨) باب تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم بلفظ : « واول من ينشق عنه القبر » . وابو داود والترمذي واحمد .

(٢) صحيح وهو آخر حديث ابي هريرة المذكور قبله في رواية عنه عند البخاري والمراد بقوله : « ممن استثنى الله » اي لاتصيبه النفخة ، كما صرحت به رواية ابن ابي الدنيا في « كتاب البعث » عن الحسن مرسلا . كما في « الفتح » .

(٣) ضعيف ، لان الحسن البصري مدلس وقد عنعنه ، وهذه علة ، وان ثبت سماعه من ابي هريرة وابي موسى ، فان ثبوت مطلق السماع لايغني في رواية المدلس حتى يصرح بالتحديث كما هو مقرر في « المصطلح » ، إلا اذا ثبتت رواية الكتاب التي فيها التصريح بسماع الحسن من ابي موسى .

الدنيا /عن ابن المبارك/ : انه انشد في ذلك شعراً :

وطارت الصحف في الأيدى منشرة ... فيها السرائر والأخبار تطلع
فكيف سهوك والأنباء واقعة ... عما قليل ، ولا تدري بما تقع
افي الجنان وفوز لا انقطاع له ... ام الجحيم فلا تبقى ولا تدع
تهوي بساكنها طوراً وترفعهم ... إذا رجوا مخرجاً من غمها قمعوا
طال البكاء(١) فلم يرحم تضرعهم ... فيها ، ولارقية(٢) تغني ولاجزع
لينفع العلم قبل الموت عالمه ... قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا

قوله : والصراط ، اي : ونؤمن بالصراط ، وهو جسر على جهنم ، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف الى الظلمة التي دون الصراط ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : اين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال : « هم في الظلمة دون الجسر »(٣). وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ، ويتخلفون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول اليهم . وروى البيهقي بسنده ، عن مسروق ، عن عبدالله ، قال : « يجمع الله الناس يوم القيامة » ، الى ان/قال/ : « فيعطون نورهم على قدر اعمالهم ، وقال : فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه ، حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه ، يضيء مرة ويطفأ مرة ، اذا اضاء قدم قدمه ، واذا طفيء قام ، قال : فيمر ويمرون على الصراط ، والصراط كحد السيف ، دحض ، مزلة ، فيقال لهم:

(١) في الاصل : الكلام .

(٢) في الاصل : رقة .

(٣) رواه مسلم (١/١٧٣) .

امضوا على قـدر نوركم ، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب ، ومنهم من يمـر كالريح ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كشدّ الرجل يرمل ، رَملا ، فيمرون على قدر اعمالهم ، حتى يمر الذي نوره على ابهام قدمه ، تخر يدٌ ، وتعلق يد ، وتخر(١) رجل ، وتعلق رجـل ، وتصيب جوانبه النـار ، فيخلصون ، فاذا خلصوا قالوا : الحمد لله الذي نجانا منكِ بعد انارانا كِ ، لقد اعطانا الله مالم يعط احد »(٢) ... الحديث .

---

(١) في الاصل : تجر .

(٢) صحيح . واخرجه الحاكم (٣٧٦/٣) ، واظن ان البيهقي من طريقه رواه ، وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين » . ووافقه الذهبي ! قلت : وفيه يزيد بن عبدالرحمن ابو خالد الدالاني ، ولم يخرج له الشيخان شـيئاً ، ثم هو وإن كان صدوقاً ، فقد كان يخطيء كثيرا ، وكان يدلس ، كما في « التقريب » . وقد صرح في هذا الأثر بالتحديث ، فأمنا بذلك تدليسه ، فإنما يخشى منه الخطأ فيه ، لكنه قد توبع كما يأتي ، فأمنا بذلك خطأه ايضاً ، وقد اخرجه الحاكم ايضاً (٥٩٠/٤-٥٩٢) بتمامه مطولا ، وكذلك الطبراني في « المعجم الكبير » (٢/٤٦/٣-٢/٤٧/٢) من طريق ابي خالد هذا عن ابن مسعود مرفوعا وقد تابعه زيد بن ابي انيسة مرفوعا ايضاً بتمامه عند الطبراني ، وزيد ثقة ، فصح بذلك الحديث والحمد لله .

١- كذا في الرواية الموقوفة عند الحاكم ، وفي المرفوعة عنده : « دون » وعند الطبراني « اصغر » ولعل هذه الرواية اولى لان السياق يدل عليها .

٢- كذا في « الموقوفة » وفي المرفوعة عند الحاكم والطبراني : « فيمرون » .

٣- وكذا في « المستدرك » و « المعجم » واما الرواية التى علقها هنا الشيخ احمد شاكر رحمه الله بلفظ : « ثم كشد الرجال ، ثم كمشيهم » فهي روايـة اخرى للحاكم (٢٧٥/٢) من طريق غير الدالاني ، وهذه الطريق لم يقع بصر الشيخ عليها ، مع انها في الصفحة التي تلي صفحة الرواية الأخرى . والموفق الله تبارك وتعالى .

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها) مريم : ٧١ ، ماهو ؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط ، قال تعالى : (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) مريم : ٧٢ . وفي «الصحيح» أنه صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده ، لايلج النارَ أحد بايع تحت الشجرة » ، قالت حفصة : فقلت : يارسول الله ، اليس الله يقول : (وإن منكم إلا واردها) مريم : ٧١ ، فقال : « الم تسمعيه قال : (ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) مريم : ٧٢ »(١) . اشار صلى الله عليه وسلم الى ان ورود النار لايستلزم دخولها ، وان النجاة من الشر لاتستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه ، يقال : نجاه الله منهم . ولهذا قال تعالى : (ولما جاء امرنا نجينا هودا) هود : ٥٨ . (فلما جاء امرنا نجينا صالحاً) هود : ٦٦ . (ولما جاء امرنا نجينا شعيباً) هود : ٩٤ . ولم يكن العذاب اصابهم ، ولكن اصاب غيرهم ، ولولا ماخصهم الله به من اسباب النجاة لأصابهم مااصاب اولئك . وكذلك حال الوارد في النار ، يمرون فوقها على الصراط ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً . فقد بين صلى الله عليه وسلم في حديث جابر المذكور : ان الورود هو الورود على الصراط . وروى الحافظ ابو نصر الوائلي(٢) ، عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال صلى الله عليه وسلم : « علّم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك ، وإن احببت ان لاتوقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة ، فلا تحدِثن في دين الله حدثاً برأيك »(٣) . اورده القرطبي . وروى ابو بكر ابن احمد بن سليمان

---

(١) مسلم واحمد ونحوه .

(٢) هو الحافظ الوائلي البكري ، ابو نصر السجزي ، المتوفى سنة ٤٤٤ . ترجمه الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ٣ : ٢٧٩-٢٩٨ .

(٣) موضوع ، وهو قطعة من حديث رواه ابو نعيم والخطيب عن ابي هريرة مرفوعا ، وذكره ابن الجوزي في « الموضوعات » ، وتكلمت عليه في « الأحاديث الضعيفة » (٢٦٣) .

النجار ، عن يعلى بن مُنية ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « تقول النار للمؤمن يوم القيامة : جُز يامؤمن ، فقد اطفأ نورك لهبي »(١) .

وقوله : والميزان ، اي : ونؤمن بالميزان . قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل اتينا بها ، وكفى بنا حاسبين) الأنبياء : ٤٧ . وقال تعالى : (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا انفسهم في جهنم خالدون) المؤمنون : ١٠٣-١٠٤ . قال القرطبي : قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي ان يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها . قال : وقوله تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) الأنبياء : ٤٧ . يحتمل ان يكون ثمَّ موازين متعددة توزن فيها الأعمال ، ويحتمل ان يكون المراد الموزونات ، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة ، والله اعلم .

والذي دلت عليه السنة : ان ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان . روى الإمام احمد ، من حديث ابي عبدالرحمن الحبلي ، قال سمعت عبدالله بن عمرو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله سيخلص رجلا من امتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول له : اتنكر من هذا شيئاً ؟ اظلمتك كتبتي الحافظون ؟ قال : لا ، يارب ، فيقول : ألك عذر او حسنة ؟ فيبهت الرجل ، فيقول : لايارب ، فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة ، لاظلم اليوم عليك ، فتخرج له بطاقة فيها : اشهد ان لا إله إلا الله ، وان محمداً عبده ورسوله ، فيقول احضروه ، فيقول : يارب ، وماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : إنك لاتظلم ، قال : فتوضع السجلات في

---

(١) ضعيف ، رواه الطبراني وابن عدي وابو نعيم وغيرهم بسند فيه ضعف وانقطاع .

كفة ، / والبطاقة في كفة / ، قال : فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولايثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم »(١) . وهكذا روى الترمذي ، وابن ماجه ، وابن ابي الدنيا ، من حديث الليث ، زاد الترمذي : « ولايثقل مع اسم الله شيء » . وفي سياق آخر : « توضع الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة »(٢) ؛ الحديث . وفي هذا السياق فائدة جليلة ، وهي ان العامل يوزن مع عمله ، ويشهد له ماروى البخاري عن ابي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ،قال : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، لايزن عند الله جناح بعوضة ، وقال : اقرؤوا إن شئتم : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) الكهف : ١٠٦ »(٣) . وروى الإمام احمد ، عن ابن مسعود : « انه كان يجني(٤) سِواكاً من الأراك ، وكان دقيق الساقين ، فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ممّ تضحكون » ؟ قالوا : يانبي الله ، من دقة ساقيه، فقال : «والذي نفسي بيده ، لهما اثقل في الميزان من أحُد »(٥) . وقد وردت الاحاديث ايضاً بوزن الاعمال انفسها ، كما في « صحيح مسلم » ، عن ابي مالك الأشعري ، قال : قال

---

(١) صحيح ، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وحسنه الترمذي وفي روايتيهما : « فلا يثقل مع اسم الله شيء » واما رواية الكتاب فهي رواية لأحمد (٢ / ٢١٣) وهي شاذة . وقد تكلمت على اسناد الحديث في « سلسلة الاحاديث الصحيحة » .

(٢) هو الحديث المتقدم ، وهذا لفظ آخر له ، ولايصح من قبل سنده ، لان فيه ابن لهيعة وهو سيء الحفظ فلا يحتج بما تفرد به ، اخرجه احمد (٢ / ٢٢١) .

(٣) صحيح .

(٤) في « المسند » : يجتني .

(٥) حسن ، رواه احمد في « المسند » (١ / ٤٥٠) بسند حسن .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان »(١) وفي « الصحيح » ، وهو خاتمة كتاب البخاري ، قوله صلى الله عليه وسلم : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، حبيبتان الى الرحمن ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم »(٢) . وروى الحافظ ابو بكر البيهقي ، عن انس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « يؤتى بابن آدم يوم القيامة ، فيوقف بين كفتي الميزان ، ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه ، نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها ابداً ، وإن خف ميزانه ، نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها ابداً »(٣) . فلا يلتفت الى ملحد معاند يقول : الأعمال أعراض لا تقبل الوزن ، وإنما يقبل الوزن الأجسام!! فإن الله يقلب الأعراض أجساماً ، كما تقدم ، وكما روى الإمام أحمد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتى بالموت كبشاً أغر(٤) فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال ، يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، ويقال : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، ويرون أن قد جاء الفرج ، فيذبح ، ويقال : خلود لا موت »(٥) . ورواه البخاري بمعناه . فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال ، وثبت ان الميزان له كفتان . والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات .

فعلينا الإيمان بالغيب ، كما اخبرنا الصادق صلى الله عليه وسلم ، من غير زيادة ولا نقصان ، ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما اخبر الشارع ،

---

(١) صحيح .

(٢) متفق عليه ، وتقدم .

(٣) موضوع ، ورواه ابو نعيم ايضاً في « الحلية » (٦ / ١٧٤) وقال « تفرد به داود ابن المحبر » قلت : وهو متروك متهم بالوضع .

(٤) في الاصل ؟ اغبر .

(٥) صحيح ، اخرجه في « المسند » (٢/٤٢٣) بسند صحيح .

لخفاء الحكمة عليه ، ويقدح في النصوص بقوله : لايحتـاج الى الميزان إلا البقال والفوال !! وما احراه بأن يكون من الذين لايقيم الله لهم يوم القيامة وزناً . ولو لم يكن من الحكمةفي وزن الأعمال الا ظهور عدلهسبحانه لجميع عباده ، /فإنه/لااحد احب اليه العذرمن الله ، من اجل ذلك ارسل الرسل مبشرين ومنذرين . فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه . فتأمل قول الملائكة ، لماقال /الله/لهم : (اني جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال : اني اعلم مالاتعلمون) البقرة : ٣٠ . وقال تعالى : (وما اوتيتم من العلم الا قليلا) الاسراء : ٨٥ . وقدتقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي رحمه الله ، ان الحوض قبـل الميزان ، والصراط بعد الميزان . ففى « الصحيحين » : ان المؤمنين اذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص بعضهم من بعض ، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة(١) . وجعل القرطبي في « التذكرة » هذة القنطرة صراطاً ثانياً للمؤمنين خاصة ، وليس يسقط منه أحد في النار . والله تعالى أعلم .

وقوله : (والجنة والنار مخلوقتان ، لاتفنيان أبدا ولاتبيدان ، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لهما أهلا ، فمن شاء منهم الى الجنة فضلا منه ، ومن شاء منهم الى النار عدلا منه ، وكل يعمل لما /قد/ فرغ له ، وصائر الى ماخلق له ، والخير والشر مقدران على العباد) .

ش : أما قوله : إن الجنة والنار مخلوقتان ، فهذا مما يدل عليه الكتاب والسنة. فمن نصوص الكتاب : قوله تعالى عن الجنة : (أعدت للمتقين) آل عمران : ١٣٣ . (أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) الحديد : ٢١ . وعن النار : (أعـدت للكافرين) آل عمران : ١٣١ . (إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً) النبأ : ٢١-

---

(١) صحيح .

٢٢ . وقال تعالى : (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى) النجم : ١٣-١٥ . وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ، ورأى عندها جنة المأوى . كما في « الصحيحين » ، من حديث أنس رضي الله عنه ، في قصة الإسراء ، وفي آخره : « ثم انطلق بي جبرائيل ، حتى أتى سدرة المنتهى ، فغشيها ألوان لاأدري ماهي ، قال : ثم دخلت الجنة ، فإذا هي جنابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك »(١) وفي « الصحيحين » من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة »(٢) وتقدم حديث البراء بن عازب ، وفيه : « ينادي مناد من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً الى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها »(٣) . وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء . وفي « صحيح مسلم » ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : خسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرت الحديث ، وفيه : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به ، حتى لقد رأيتني آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني تقدمت(٤) ولقد رأيت النار يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت »(٥) . وفي «الصحيحين» ، واللفظ للبخاري ، عن عبدالله بن عباس ، قال : انخسفت الشمس على عهد رسول الله صلى

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح ، وتقدم بطوله .

(٤) في الاصل : اقدم .

(٥) صحيح .

الله عليه وسلم(١) ، فذكر الحديث ، وفيه : فقالوا : يارسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك ، ثم رأيناك تكعكعت ؟ فقال : « إني رأيت الجنة ، وتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه مابقيت الدنيا ، ورأيت النار ، فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء » ، قالوا : بم، يارسول الله ؟ قال : « بكفرهن » ، قيل: أيكفرن بالله ؟ قال : « يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان ، ولو أحسنت الى إحداهن الدهر كله ، ثم رأت منك شيئا ، قالت : مارأيت خيراً قط !! » وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس : « وايم الذي نفسي بيـــده ، لو رأيتم مارأيت ، لضحكتم قليلا وبكيتم كثيراً » قالوا : ومارأيت يارسول الله ؟ قال : « رأيت الجنة والنار »(٢) وفي « الموطأ والسنن » ، من حديث كعب بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة ، حتى يرجعها الله الى جسده يوم القيامة »(٣) . وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة . وفي «صحيح مسلم والسنن والمسند » ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما خلق الله الجنة والنار ، أرسل جبرائيل الى الجنة ، فقال : اذهب فانظر اليها والى ما أعددت لأهلها فيها ، فذهب فنظر اليها والى ما أعد الله لأهلها فيها ، فرجع فقال : وعزتك ، لايسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بالجنة ، فحفت بالمكاره ، فقال : ارجع فانظر اليها والى ماأعـــددت لأهلها فيها ، قال : فنظر اليها ، ثم رجع فقال : وعزتك ، لقد خشيت أن لايدخلها أحد ، قال : ثم أرسله الى النار ، قال : اذهب فانظر اليها والى ماأعددت لأهلها فيها ، قال : فنظر اليها ، فإذا هي يركب(٤) بعضها بعضاً ، ثم رجع فقال : وعزتك ، لايدخلها احد

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

(٤) في الاصل : تركب .

سمع بها ، فأمر بها ، فحفت بالشهوات ، ثم قال : اذهب فانظر الى ما اعـددت لأهلها فيها ، فذهب فنظر اليها ، فرجع فقال : وعزتك ، لقد خشيت ان لاينجو منها احد إلا دخلها »(١) . ونظائر ذلك في السنة كثيرة .

وقوله : لا تفنيان ابداً ولاتبيدان :

أما أبدية الجنة ، وأنها لاتفنى ولاتبيد ، فهذا مما يُعلم بالضرورة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر به ، قال تعـالى : (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ،عطاء غير مجذوذ) هود : ١٠٨ أي غير مقطوع ، ولا ينافي / ذلك / قوله : (إلا ماشاء ربك) . واختلف السلف في هذا الاستثناء : فقيل : معناه إلا مدة مكثهم في النار ، وهذا يكون لمن دخل منهم الى النار ثم اخرج منها ، لا لكلهم . وقيل : إلا مدة مقامهم في الموقف . وقيل : إلا مدة مقامهم في القبور والموقف . وقيل : هو استثناء الرب ولايفعله ، كما تقول : والله لأضربنك إلا ان ارى غير ذلك ، وانت لاتراه ، بل تجزم بضربه وقيل : « إلا » بمعنى الواو ، وهذا على قول بعض النحاة ، وهو ضعيف .وسيبويه يجعل إلا بمعنى لكن ، فيكون الاستثناء منقطعاً ، ورجحه ابن جرير وقال : ان الله تعالى لاخلف لوعده ، وقد وصل الاستثناء بقوله : (عطاء غير مجذوذ)هود:١٠٨ قالوا : ونظيره ان تقول : اسكنتك داري حولا إلا ماشئت ، اي سوى ماشئت ، ولكن ماشئت من الزيادة عليه . وقيل : الاستثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم في مشيئة الله ، لأنهم يخرجون(٢) عن مشيئته ، ولاينافي ذلك عزيمتـه وجزمه لهم بالخلود ، كما في قوله تعالى : (ولئن شئنا لنذهبن بالذي اوحينا اليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا) الاسراء : ٨٦ ، وقوله تعـالى : (فإن يشأ الله يختم على قلبك)

---

(١) صحيح .

(٢) في الاصل : لا أنهم يخرجون .

الشورى : ٢٤، وقوله : (قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به) يونس : ١٦ ونظائره كثيرة ، يخبر عباده سبحانه أن الامور كلها بمشيئته ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . وقيل : إن « ما » بمعنى « من » أي : إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء(١) . وقيل غير ذلك . وعلى كل تقدير ، فهذا الاستثناء من المتشابه ، وقوله : (عطاء غير مجذوذ) هود : ١٠٨ ، محكم . وكذلك قوله تعالى : (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) ص : ٥٤ .وقوله : (اكلها دائم وظلها) الرعد: ٣٧ . وقوله : (وماهم منها بمخرجين) الحجر : ٤٨ . وقد أكد الله خلود اهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن ، وأخبر أنهم : (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) الدخان : ٥٦ ، وهذا الاستثناء منقطع ،وإذا ضممته الى الاستثناء في قوله تعالى : (إلا ماشاء ربك) هود : ١٠٨ - تبين ان المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود ، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت ، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية ،وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها .

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة : كقوله صلى الله عليه وسلم « من يدخل الجنة ينعم ولايبأس ويخلد ولايموت »(٢) . وقوله : « ينادي مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وأن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وان تحيوا فلا تموتوا أبداً »(٣) . وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار ،ويقال « يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت »(٤) .

وأما أبدية النار ودوامها ، فهذا مما دل عليه الكتاب ، من ذلك : قوله :

---

(١) في الاصل : الشعراء .

(٢) مسلم .

(٣) مسلم .

(٤) متفق عليه ، وتقدم نحوه .

(ولهم عـذاب مقيم » المائدة : ٤٠ (لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون) الزخرف : ٤٣ . (فلن نزيدكم إلا عذاباً) النبأ : ٣٠ (خالدين فيها أبداً) البينة : ٨ . (وما هم منها بمخرجين) الحجر : ٤٨ . (وما هم بخارجين من النـار) البقرة : ١٦٧ (لايدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَم الخياط) الاعراف : ٤٠ . (لايقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها) فاطر : ٣٦ . (إن عذابها كان غراماً) الفرقان : ٦٥ ، أي مقيما لازما . وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله : وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار ، وأن هـذا حكم مختص بهم ، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلهم ، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان . وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما ، بل بإبقاء الله لهما .

وقوله : وخلق لها أهلا - قال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس) الاعراف : ١٧٩ ، الآية . وقال تعالى : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً) الدهر ٢-٣ . والمراد الهداية العامة ، وأعم منها الهداية المذكورة في قوله تعالى : (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدَى) طه : ٥٠ . فالموجودات نوعان : أحدهما مسخر بطبعه ، والثاني متحرك بإرادته فهدى الأول لما سخره له طبيعة ، وهدى الثاني هداية إرادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره . ثم قسم هـذا النوع الى ثلاثة أنواع : نوع لايريد إلا الخير ولا يتـأتى منه إرادة سـواه ، كالملائكة ، ونوع لا يريد إلا الشـر ولا يتـأتى منـه إرادة سـواه ، كالشـياطين ، ونوع يتـأتى منـه إرادة القسمين ، كالإنسـان . ثم جعـله ثلاثة أصناف : صنفاً يغلب إيمانه ومعرفته وعقله هواه وشهـوته ، فيلتحق بالملائكة . وصنفاً عكسـه ، فيلتحق بالشياطين وصنفاً تغلب شهوته البهيمية عقله ، فيلتحق بالبهائم . والمقصود : أنه سبحانه اعطى الوجودَين : العيني والعلمي ، فكما أنه لاموجود إلا بإيجاده ، فلا هداية إلا بتعليمه

وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته ، وثبوت وحدانيته ، وتحقيق ربوبيتـــه ، سبحانه وتعالى :

وقوله : فمن شاء منهم الى الجنة فضلا منه ، ومن شاء منهم الى النار عدلا منه ، إلخ - مما يجب ان يعلم : ان الله تعالى لايمنع الثواب إلا إذا منع سببه ، وهو العمل الصالح ، فإنه : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) طه : ١١٢ . وكذلك لايعاقب أحداً إلا بعد حصول سبب العقاب ، فإن الله تعالى يقول : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ، ويعفو عن كثير) الشورى : ٣٠ . وهو سبحانه المعطي المانع ، لامانع لما أعطى ، ولامعطي لما منع : لكن إذا منّ على الإنسان بالإيمان / والعمل / الصالح ، فلا(١) يمنعه موجب ذلك أصلا ، بل يعطيه من الثواب والقرَب ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر . وحيث منعه ذلك فلانتفاء سببه ، وهو العمل الصالح . ولاريب انه يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، لكن ذلك كله حكمة منه وعدل ، فمنعه للأسباب التي هي الأعمال الصالحة من حكمته وعدله . واما المسببات بعد وجود أسبابها ، فلا يمنعها بحال ، إذا لم تكن أسباباً غير صالحة ، إما لفساد في العمل ، وإما لسبب يعارض موجبه ومقتضاه ، فيكون ذلك لعدم المقتضي ، او لوجود المانع . وإذا كان منعه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح ، وهو لم يعط ذلك / ابتلاء / وابتداء / إلا / حكمة منه وعدلا . فله الحمد في الحالين ، وهو المحمود على كل حال ، كل عطاء منه فضل ، وكل عقوبة منه عدل ، فإن الله تعالى حكيم يضـــع الاشياء في مواضعها التي تصلح لها ، كما قال تعالى : (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما اوتي رسل الله ، الله اعلم حيث يجعل رسالته) الانعام : ١٢٤ . وكما قال تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ، ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا

---

(١) في الاصل : لا .

أليس الله بأعلم بالشاكرين) الانعام : ٥٣ . ونحو ذلك . وسيأتي / لذلك / زيادة إن شاء الله تعالى .

قوله : (والاستطاعة التي يجب بها الفعل ، من نحو التوفيق الذي لا /يجوز أن / يوصف المخلوق به - / تكون / مع الفعل . وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع ، والتمكن(١) وسلامة الآلات - فهي قبل الفعل ، وبها يتعلق الخطاب ، وهو كما قال تعالى : (لايكلف الله نفساً الا وسعها) البقرة : ٢٨٦ .

ش الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع ، ألفاظ متقاربة . وتنقسم الاستطاعة الى قسمين ، كما ذكره الشيخ رحمه الله ، وهو قول عامة أهل السنة ، وهو الوسط. وقالت القدرية والمعتزلة : لاتكون القدرة الا قبل الفعل . وقابلهم طائفة من أهل السنة/فقالوا لاتكون إلا مع الفعل .

والذي قاله عامة أهل السنة/: أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي ، وهذه قد تكون قبله ، لايجب أن تكون معه ، والقدرة التي بها الفعل لابد أن تكون مع الفعل ، لايجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة .

واما القدرة التي من جهة الصحة والوسع ، والتمكن وسلامة الآلات - فقد تتقدم الأفعال . وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) آل عمران ٩٧ . فأوجب الحج على المستطيع ، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج ، ولم يعاقب احداً على ترك الحج ! وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الاسلام . وكذلك قوله تعالى :

---

(١) في الاصل : التمكين .

(فاتقوا الله مااستطعتم) التغابن : ١٦ . فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة ، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى ، لم يكن قد اوجب التقوى إلا على من اتقى، ولم يعاقب من لم يتق ! وهذا معلوم الفساد . وكذا قوله تعالى : (فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً) . المجادلة : ٤ . والمراد منه استطاعة الأسباب والآلات . وكذا ماحكاه سبحانه من قول المنافقين : (لو استطعنا لخرجنا معكم) التوبة : ٤٣ . وكذبهم في ذلك القول ، ولو كانوا ارادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل - ماكانوا بنفيهم عن انفسهم كاذبين ، وحيث كذبهم دل /على/ انهم ارادوا بذلك المرض او فقد المال ، على مابين تعالى بقوله : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) التوبة : ٩١ ، الى ان قال : (إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم اغنياء) التوبة ٩٣ . وكذلك قوله : (ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت ايمانكم) النساء : ٢٥ . والمراد : استطاعة الآلات والأسباب . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين : «صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب »(١) . إنما نفى استطاعة الفعل معها .

واما ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة ، فقد ذكروا فيها قوله تعالى : (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) هود : ٢٠ . والمراد نفي حقيقة القدرة ، لانفي الأسباب والآلات ، لأنها كانت ثابتة . وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله : ولايطيقون إلا ماكلفهم ،إن شاء الله تعالى . وكذا قول صاحب موسى : (إنك لن تستطيع معي صبراً) الكهف : ٦٧ . وقوله : (الم اقل لك انك لن تستطيع معي صبراً) الكهف : ٧٥ . والمراد منه حقيقة قدرة الصبر ، لا أسباب /الصبر/ وآلاته ، فان تلك كانت ثابتة له ، الا ترى انه عاتبه على ذلك ؟ ولا يلام

---

(١) البخاري .

من عـدم آلات الفعل واسـبابه على عـدم الفعل ، وإنما يلام من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل ، لاشتغاله بغير ما أمر به ، أو /لعـدم/ شغله إياها بفعل ما أمر به . ومن قال : إن القـدرة لاتكون إلا حين الفعل - يقولون : ان القـدرة لاتصلح للضدين ، فإن القـدرة المقارنـة للفعـل لاتصلح إلا لذلك الفعل ، وهي مستلزمة له ، لاتوجد بدونه .

قوله : (وأفعال العباد/هي/ خلق الله وكسب من العباد) :

ش : اختلف الناس في أفعال العباد الاختيارية : فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان السمرقندي : أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعـالى ، وهي كلها اضطرارية ، كحركات المرتعش ، والعروق النابضة ، وحركات الأشجار ، وإضافتها الى الخلق مجـاز ! وهي على حسب ما يضاف الشيء الى محـله دون ما يضاف الى محصله ! وقابلتهم المعتزلة ، فقالوا : إن جميـع الافعال الإختيارية من جميع الحيوانات بخلقها ، لا تعلق لها بخلق الله تعالى . واختلفوا فيما بينهم : أن الله تعـالى يقدر على أفعال العباد أم لا ؟ !

وقال أهل الحق : افعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة ، وهي مخلوقة لله تعالى ، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات ، لا خالق لها سواه . فالجبرية غلوا في إثبات القـدر ، فنفوا صنع العبد /اصلا/ ، كما عملت المشبهة في إثبـات الصفات ، فشبهوا . والقدرية نفاةُ القـدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى . وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . فكل دليل صحيح يقيمه الجبري ، فإنما يدل على ان الله خالق كل شيء ، وانه على كل شيء قدير ، وان افعال العباد من جملة مخلوقاته ، وانه ما شـاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يدل على ان العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار ، وان حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح

وحركات الأشجار . وكل دليل صحيح يقيمه القدري فإنما يدل على ان العبد فاعل لفعله حقيقة ، وانه مريد له مختار له حقيقة ، وان إضافته ونسبته إليه إضافة حق ، ولا يدل على انه غير مقدور لله تعالى وانه واقع بغير مشيئته وقدرته . فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق الى حق الأخرى - فانما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة ، مق عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والافعال ، وان العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة ، وانهم يستوجبون عليها المدح والذم .

قوله : (ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون ، ولا يطيقون إلا ما كلفهم وهو تفسير «لاحول ولا قوة الا بالله» ، نقول : لاحياة لأحد ، /ولاتحول لأحد/ ، ولا حركة لاحد عن معصية الله ، الا بمعونة الله ، ولا قوة لأحد على اقامة طاعة الله والثبات عليها الا بتوفيق الله ، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدرة . غلبت مشيئته المشيئات كلها ، / وعكست ارادته الارادات كلها / ، وغلب قضاؤه الحيل كلها . يفعل مايشاء ، وهو غير ظالم أبدا . (لايسأل عما يفعل وهم يسألون) الأنبياء : ٢٣ .

ش : فقوله : لم يكلفهم الله تعالى إلا مايطيقون - قال تعالى : (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) البقرة : ٢٨٦ . / (لا نكلف نفساً إلاوسعها) / الانعام : ١٥٢ والأعراف : ٤١ والمؤمنون : ٦٣ .

وقوله : ولايطيقون إلا ماكلفهم به ، الى آخر كلامه - أي : ولا يطيقون إلا ماأقدرهم عليه . وهذه الطاقة هي التي من نحو التوفيق ، لا التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات ، و « لاحول ولاقوة إلا بالله » - دليل على إثبات القدر . وقد فسرها الشيخ بعدها . ولكن في كلام الشيخ إشكال : فإن التكليف لايستعمل بمعنى الإقدار ، وإنما يستعمل بمعنى الأمر والنهي ، وهو قد قال : لا

يكلفهم إلا ما يطيقون ، ولايطيقون إلا ماكلفهم . وظاهره أنه يرجع الى معنى واحد ، ولايصح ذلك ، لأنهم يطيقون فوق ماكلفهم به ،لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف ، كما قال تعالى : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)البقرة : ١٨٥ . وقال تعالى : (يريد الله أن يخفف عنكم) النساء : ٢٨ . وقال تعالى : (وما جعل عليكم في الدين من حرج) الحج : ٧٨ . فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه ، ولكنه تفضل علينا ورحمنا ، وخفف عنا ، ولم يجعل علينا في الدين من حرج . ويجاب عن هذا الإشكال بما تقدم : أن المراد الطاقة التي من نحو التوفيق ، لامن جهة التمكن وسلامة الآلات ، ففي العبارة قلق ، فتأمله .

وقوله : وكل /شيء/ يجري بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره - يريد بقضائه القضاء الكوني لا الشرعي ، فإن القضاء يكون كونياً وشرعياً ، وكذلك الإرادة والأمر والإذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات ، ونحو ذلك . أما القضاء الكوني ، ففي قوله تعالى : (فقضاهن سبع سموات في يومين) حم السجدة : ١٢ . والقضاء الديني الشرعي ، في قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) الاسراء : ٢٣. وأما الإرادة الكونية والدينية ، فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ : ولايكون إلا ما يريد . وأما الأمر الكوني ، ففي قوله تعالى : (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) يس : ٨٢ . وكذا قوله تعالى : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) الاسراء : ١٦ ، في أحد الأقوال ، وهو أقواها . والأمر الشرعي ، في قوله تعالى : (ان الله يأمر بالعدل والإحسان) النحل : ٩٠ ، الآية . وقوله : (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها) النساء : ٥٨ . وأما الإذن الكوني ، ففي قوله تعالى : (وما هم بضارين به من أحد الا بإذن الله) البقرة : ١٠٢ . والإذن الشرعي ، في قوله تعالى : (ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) الحشر : ٥ . وأما الكتاب الكوني ، ففي قوله تعالى : (ومايعمر من معمر ولاينقص من عمره الا في كتاب،

ان ذلك على الله يسير) فاطر : ١١ . وقوله تعالى : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) الأنبيــاء : ١٠٥ . والكتاب الشرعي الديني ، في قوله تعالى : (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) المائدة : ٤٥ . (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) البقرة : ١٨٣ . وأما الحكم الكوني ، ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام : (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين) يوســف : ٨٠ . وقوله تعالى : (قال رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون) الأنبياء : ١١٢ . والحكم الشرعي ، في قوله تعالى : (أحلت لكم بهيمة الأنعام الا مايتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم ، ان الله يحكم مايريد) المائدة : ٢ . وقال تعالى : (ذلكم حكم الله يحكم بينكم) الممتحنة : ١٠ . وأما التحريم الكوني ، ففي قوله تعالى : (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض) المائدة : ٢٦ . (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لايرجعون) الأنبياء : ٩٥ . والتحريم الشرعي ، في قوله : (حرمت عليكم : الميتة والدم / ولحم الخنزير /) المائدة : ٣ . و (حرمت عليكم أمهاتكم) النساء ٢٣ ، وأما الكلمات الكونية ، ففي قوله تعالى : (وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا) الاعراف : ١٣٧ . وفي قوله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بكلمات الله التامات التي لايجاوزهن بر ولا فاجر » (١) . والكلمات الشرعية الدينية ، في قوله تعالى : (واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) البقرة : ١٢٤ .

وقوله : يفعل ما يشاء ، وهو غير ظالم أبداً - الذي دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد ، يقتضي قولا وسطاً بين قولي القـدرية والجبرية ، فليس ما كان من بني آدم ظلماً وقبيحا يكون منه ظلما وقبيحا ، كما تقوله القـدرية والمعتزلة ونحوهم ! فإن ذلك تمثيل الله بخلقه ! وقياس له عليهم ! هو الرب الغني القادر ، وهم العباد الفقراء المقهورون . وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لايدخل تحت القـدرة ،

(١) صحيح .

كما يقوله من يقوله من المتكلمين وغيرهم ، يقولون : إنه يمتنع أن يكون /في/ الممكن المقدور ظلم ، بل كان ما كان ممكناً فهو منه ـ لو فعله ـ عدل ، إذ الظلم لايكون إلا من مأمور من غيره منهي ، والله ليس كذلك . فإن قوله تعالى : (ومن يعمل من الصالحات وهومؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) ، طه : ١١٢ ، وقوله تعالى : (ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد) ق : ٢٩ ، وقوله تعالى : (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) الزخرف : ٧٦ ، وقوله تعالى : (ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) الكهف : ٤٩ ، وقوله تعالى : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب) غافر : ١٧ . يدل على نقيض هذا القول .

ومنه قوله الذي رواه عنه رسوله : « يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا » (١) . فهذا دل على شيئين : أحدهما : أنه حرم على نفسه الظلم ، والممتنع لايوصف بذلك . الثاني : أنه أخبر أنه حرمه على نفسه ، كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة ، وهذا يبطل احتجاجهم بأن الظلم لايكون إلا من مأمور منهي ، والله ليس كذلك . فيقال لهم : هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ، وحرم عن نفسه الظلم ، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه ، لا ما هو ممتنع عليه .

وأيضا : فان قوله : (فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) طه : ١١٢ ـ قد فسره السلف ، بأن الظلم : أن توضع عليه سيئات غيره ، والهضم : أن ينقص من حسناته ، كما قال تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) الاسراء : ١٥ .

---

(١) مسلم وتقدم .

قوله : (وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم للأموات) .

ش : اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين : أحدهما : ما تسبب اليه الميت في حياته . والثاني : دعاء المسلمين واستغفارهم له ، والصدقة والحج ، على نزاع فيما يصل اليه من ثواب الحج : فعن محمد بن الحسن : أنه انما يصل الى الميت ثواب النفقة ، والحجّ للحاج . وعند عامة العلماء : ثواب الحج للمحجوج عنه ، وهو الصحيح . واختلف في العبادات البدنية ، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر : فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف الى وصولها ، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها . وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام الى عدم وصول شيء البتة ، لا الدعاء ولا غيره . وقولهم مردود بالكتاب والسنة ، لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) النجم : ٣٩ . وقوله : (ولا تجزون إلا ما كنتم تعلمون) يس : ٥٤ . وقوله : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) البقرة : ٢٨٦ . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده »(١) . فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة ، وما لم يكن تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه . واستدل المقتصرون على وصول العبادات التي /لا/ تدخلها النيابة(٢) بحال ، كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن ، /وأنه/ يختص ثوابها بفاعله لا يتعداه ، كما أنه في الحياة لا يفعله أحد عن أحد ، ولا ينوب فيه عن فاعله غيره - بما(٣) روى النسائي بسنده ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه

---

(١) مسلم .

(٢) في الاصل : النية .

(٣) في الاصل : وقد .

قال : « لا يصلي أحد عن أحد ، ولا يصوم أحد عن احد ، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مداً من حنطة »(١) .

والدليل على انتفاع الميت بغير ماتسبب فيه ، الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح . أما الكتاب ، فقال تعالى : (والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) الحشر : ١٠ . فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم ، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء . وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة ، والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة . وكذا الدعاء له بعد الدفن ، ففي « سنن أبي داود » ، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال : « استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل »(٢) . وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم ، كما في « صحيح مسلم » ، من حديث بُريدة ابن الحصيب ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم اذا خرجوا الى المقابر ان يقولوا : « السلام عليكم اهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا ان شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»(٣) وفي « صحيح مسلم » أيضاً ، عن عائشة رضي الله عنها : سألت النبي صلى الله عليه وسلم : كيف تقول اذا استغفرت لأهل القبور ؟ قال : : قولي : السلام على اهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا / ومنكم / والمستأخرين

---

(١) لا اعرف له اصلا مرفوعا ، لا عند النسائي ولا عند غيره ، وانما رواه النسائي في « الكبرى » (١/٤٣/٤) والطحاوي في « مشكل الآثار » (١٤١/٣) عن ابن عباس موقوفا عليه . وسنده صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

وإنا ان شاء الله بكم لاحقون »(١) .

وأما وصول ثواب الصدقة ، ففي « الصحيحين » ، عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، إن امي افتُلتت نفسها ولم توص ، واظنها لو تكلمت تصدقت ، افلها اجر ان تصدقت عنها ؟ قال : « نعم »(٢) . وفي « صحيح البخاري » ، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما : ان سعد ابن عبادة توفيت امه وهو غائب عنها فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، ان امي توفيت وانا غائب عنها ، فهل ينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال : « نعم » ، قال : فإني اشهدك ان حائطي المخرافَ صدقة عنها(٣) . وامثال ذلك كثيرة في السنة .

وأما وصول ثواب الصوم ، ففي « الصحيحين » ، عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليه »(٤) وله نظائر في « الصحيح » . ولكن ابو حنيفة رحمه الله قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه ، لحديث ابن عباس المتقدم . والكلام على ذلك معروف في كتب الفروع .

وأما وصول ثواب الحج ، ففي « صحيح البخاري » ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : ان امرأة من جُهينة جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : إن امى نذرت ان تحج فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : « حجي عنها ، ارأيتِ

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

(٤) صحيح .

لو كان على امك دين ، اكنت قاضيته : اقضوا الله ، فالله احق بالوفاء »(١) .
ونظائره ايضاً كثيرة . واجمع المسلمون على ان قضاء الدين يُسقطه من ذمة الميت
ولو كان من اجنبي ، ومن غير تركته . وقد دل على ذلك حديث ابي قتادة ،حيث
ضَمِن الدينارين عن الميت ، فلما قضاهما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الآن بردت
عليه جلدته »(٢) . وكل ذلك جار على قواعد الشرع . وهو محض القياس ، فإن
الثواب حق العامل ، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك ، كما لم يمنع من هبة ماله
في حياته ، وإبرائه له منه بعد وفاته . وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على
وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية . يوضحه : ان الصوم كفٌ
النفس عن المفطرات بالنية ، وقد نص الشارع على وصول ثوابه الى الميت، فكيف
بالقراءة التي هي عمل ونية ؟ !

والجواب عما استدلوا به من قوله تعالى : (وأنْ ليس للإنسان إلا ماسعى
النجم : ٣٩ - قد اجاب العلماء بأجوبة : اصحها جوابان : احدهما : ان الإنسان
بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء ، واولد الأولاد ، ونكح الازواج ،
واسدى الخير وتودّد الى الناس ، فترّحموا عليه ، ودَعوْا له وأهدَوا له ثواب الطاعات،
فكان ذلك اثر سعيه ، بل دخول المسلم مع جملة المسلمين في عَقد الاسلام من اعظم
الأسباب في وصول نفع كلٍّ من المسلمين الى صاحبه، في حياته وبعد مماته ،ودعوة
المسلمين تُحيط من ورائهم . يوضحه : ان الله تعالى جعل الإيمان سبباً لانتفاع
صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم ، فإذا اتى به فقد سعى في السبب الذي
يوصل اليه ذلك . الثاني ، وهو اقوى منه - : ان القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي
غيره وانما نفى مِلكه لغير سعيه ، وبين الأمرين فرق مالايخفى . فأخبر تعالى انه

---

(١) صحيح .

(٢) حسن . رواه الحاكم وغيره .

لايملك الا سعيه ، واما سعي غيره فهو ملك لساعيه ، فإن شاء ان يبذله لغيره ،وان شاء ان يبقيه لنفسه .

وقوله سبحانه : (ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للانسان إلا ما سعى) النجم : ٣٨-٣٩ . آيتان محكمتان ، مقتضيتان عدل الرب تعالى : فالأولى تقتضي أنه لا يعاقب أحداً بجرم غيره ، ولا يؤاخذه بجريرة غيره ، كما يفعله ملوك الدنيا . والثانية تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله ، لينقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه ، كما عليه أصحاب الطمع الكاذب ، وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى .

وكذلك قوله تعالى: (لها ما كسبت) البقرة : ٢٨٦ . وقوله : (ولاتجزون إلا ما كنتم تعلمون) يس : ٥٤ . على أن سياق هذه الآية يدل على ان المنفي عقوبة العبد بعمل غيره ، فإنه تعالى قال : (فاليوم لاتظلم نفس شيئاً ، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) يس ٥٤ .

وأما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله »(١) فاستدلال ساقط ، فانه لم يقل انقطاع انتفاعه ، وإنما اخبر عن انقطاع عمله . واما عمل غيره فهو لعامله ، /فان / وهبه له وصل اليه ثواب عمل العامل، لا ثواب عمله هو ، وهذا كالدين يوفيه الإنسان عن غيره ، فتبرا ذمته ، ولكن ليس له ما وفى به(٢) الدين .

واما تفريق من فرق بين العبادات المالية والبدنية - فقد شرع النبي صلى الله عليه وسلم الصوم عن الميت ، كما تقدم ، مع ان الصوم لا تجزىء فيه النيابة ،

---

(١) رواه مسلم واحمد .

(٢) في الاصل : هذا .

وكذلك حديث جابر رضي الله عنه ، قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيد الاضحى ، فلما انصرف اتى بكبش فذبحه ، فقال : « بسم الله والله اكبر ، اللهم هذا عني وعمن لم يضح من امتي »(١) ، رواه احمد وابو داود والترمذي ، وحديث الكبشين اللذين قال في احدهما : « اللهم هذا عن امتي جميعاً »(٢) ، وفي الآخر : « اللهم هذا عن محمد وآل محمد »(٣) ، رواه احمد . والقربة في الأضحية اراقة الدم ، وقد جعلها لغيره .

وكذلك عبادة الحج بدنية ، وليس / المال / ركناً فيه ، وانما هو وسيلة ، ألا ترى ان المكي يجب عليه الحج اذا قدر على المشي الى عرفات ، من غير شرط المال. وهذا هو الأظهر ، اعني ان الحج غير مركب من مال وبدن ، بل بدني محض ، كما قد نص عليه جماعة من اصحاب ابي حنيفة المتأخرين . وانظر الى فروض الكفايات: كيف قام فيها البعض عن الباقين ؟ ولأن هذا اهداء ثواب ، وليس من باب النيابة، كما ان الأجير الخاص ليس له ان يستنيب عنه ، وله ان يعطي اجرته لمن شاء .

واما استئجار قوم يقرؤون القرآن ويهدونه للميت !! فهذا لم يفعله احد من السلف ، ولا امر به احد من ائمة الدين ، ولارخص فيه . والاستئجار على نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف . وانما اختلفوا في جواز الاستئجار على التعليم ونحوه، مما فيه منفعة تصل الى الغير . والثواب لايصل الى الميت الا اذا كان العمل لله ،وهذا لم يقع عبادة خالصة ، فلا يكون /له من/ ثوابه مايهدى الى الموتى !! ولهذا لم يقل

---

(١) صحيح لشواهده . انظر «المجمع» (٤/٢٢ - ٢٣) ، ومن شواهده الذي بعده.

(٢) حسن . وهو في « المسند » (٦/٣٩١ - ٣٩٢) .

(٣) ضعيف الاسناد ، فيه ابو صالح الخوزي . قال في « التقريب » : « لين الحديث » ، واما الحاكم فقال في هذا الحديث (١/٤٩١) : « صحيح الاسناد » ، وسكت عليه الذهبي ! وقال الترمذي : « لانعرفه الا من هذا الوجه » .

احد انه يكتري من يصوم ويصلي ويهدي ثواب ذلك الى الميت ، لكن اذا اعطى لمن يقرا القرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لأهل القرآن على ذلك ، كان هذا من جنس الصدقه عنه ، فيجوز . وفي الاختيار : لو اوصى بأن يعطى شيء من ماله لمن يقرا القرآن على قبره ، فالوصية باطلة ، لأنه في معنى الأجرة ، انتهى . وذكر الزاهدي في « الغنية » : انه لو وقف على من يقرأ عند قبره ، فالتعيين باطل :

واما قراءة القرآن واهداؤها له تطوعاً بغير اجرة ، فهذا يصل اليه ، كما يصل ثواب الصوم والحج . فإن قيل : هذا لم يكن معروفاً في السلف ، ولا ارشدهم اليه النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فالجواب : ان كان مورد هذا السؤال معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء ، قيل له : ماالفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن ؟ وليس كون السلف لم يفعلوه حجة في عدم الوصول ، ومن اين لنا هذا النفي العام ؟ فإن قيل : فرسول الله صلى الله عليه وسلم ارشدهم الى الصوم والحج والصدقة دون القراءة ؟ قيل : هو صلى الله عليه وسلم لم يبتدئهم بذلك ، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم ، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له فيه ، وهذا سأله عن الصوم عنه ، فأذن له فيه ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك ، واي فرق بين وصول ثواب الصوم ـ الذي هو مجرد نية وامساك ـ وبين وصول ثواب القراءة والذكر ؟ فإن قيل : ماتقولون في الإهـــداء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قيل : من المتأخرين من اســتحبه ، ومنهم من رآه بدعة ، لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم له مثل اجر كل من عمل خيراً من امته ، من غير ان ينقص من اجر العامل شيء ، لأنه هو الذي دل امته على كل خير ، وارشدهم اليه .

ومن قال : ان الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده ، باعتبار سماعه كلام الله ـ فهذا لم يصح عن احد من الأئمة المشهورين . ولاشاك في سماعه ، ولكن انتفاعه بالسماع لايصح ، فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة ، فإنه عمل اختياري ، وقد

انقطع بموته ، بل ربما يتضرر ويتألم ، لكونه لم يمتثل اوامر الله ونواهيه ، او لكونه لم يزدد من الخير .

واختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور ، على ثلاثة اقوال : هل تكره ، ام لابأس بها وقت الدفن ، وتكره بعده ؟ فمن قال بكراهتها ، كأبي حنيفةومالك واحمد في رواية - قالوا : لأنه محدث ، لم ترد به السنة ، والقراءة تشبه الصلاة ، والصلاة عند القبور منهي عنها ، فكذلك القراءة . ومن قال : لابأس بها ، كمحمد بن الحسن واحمد في رواية - استدلوا بما نقل عن ابن عمر رضي الله عنه : انه اوصى ان يقرا على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها . ونقل ايضا عن بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة . ومن قال : لابأس بها وقت الدفن فقط ، وهو رواية عن أحمد - أخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين . وأما بعد ذلك ، كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده - فهذا مكروه ، فإنه لم تأت به السنة ، ولم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلا . وهذا القول لعله أقوى من غيره ، لما فيه من التوفيق بين الدليلين .

/ قوله / : (والله تعالى يستجيب الدعوات ، ويقضي الحاجات) .

ش : قال تعالى : (وقال ربكم ادعوني استجب لكم) غافر : ٦٠ . (واذا سألك عبادي عني فإني قريب ، اجيب دعوة الداع اذا دَعان) البقرة : ١٨٦ . والذي عليه اكثر الخلق من المسلمين وسائر اهل الملل وغيرهم - : ان الدعاء من اقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار ، وقد اخبر تعالى عن الكفار انهم اذا مسهم الضر في البحر دعوا الله مخلصين له الدين ، وان الإنسان اذا مسه الضر دعاه لجنبه او قاعداً او قائماً . واجابة الله لدعاء العبد ، مسلماً كان او كافراً ، واعطاؤه سؤله - : من جنس رزقه لهم ، ونصره لهم . وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقاً ، ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه ، اذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك ؛

وفي « سنن ابن ماجه » من حديث ابي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يسأل الله / يغضب عليه »(١) . وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال

الرب يغضب ان تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

قال ابن عقيل : قد ندب الله تعالى الى الدعاء ، وفي ذلك معان : أحدها : الوجود فإن الذي ليس بموجود لايدعى . الثاني : الغنى ،فإن الفقير لايدعى. الثالث السمع ، فإن الأصم لايدعى . الرابع : الكـرم ، فإن البخيل لايدعى . الخامس : الرحمة ، فان القاسي لايدعى . السادس : القدرة ، فان العاجز لايدعى .

وهنا سؤال معروف ، وهو : أن من الناس من قد يسأل الله فلا يعطى شيئاً، او يعطى غير ماسأل ؟ وقد اجيب عنه بأجوبة ، فيها ثلاثة اجوبة محققة ـ : أحدها ان الآية لم تتضمن عطية السؤال مطلقاً ، وإنما تضمنت إجابة الداعي ، والداعي اعم من السائل ، وإجابة الداعي أعم من إعطاء السائل . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا كل ليلة الى السماء الدنيا فيقول : من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ »(٢) . ففرق بين الداعي والسائل ، وبين الإجابة والإعطاء ، وهو فرق بين العموم والخصوص كما أتبع ذلك بالمستغفر وهو نوع من السائل ، فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص . وإذا علم العبـاد انه قريب ، يجيب دعوة الداعي ، علموا قربه منهم ، وتمكنهم من سؤاله ـ : وعلموا علمه ورحمته وقدرته ، فدعوه دعاء العبـادة في حال ، ودعاء المسألة في حال ، / وجمعوا بينهما في حال / ، إذ الدعاء اسم يجمع العبادة والاستعانة ، وقد فسر قوله (وقال ربكم ادعوني استجب لكم) غافر : ٦٠ ـ بالدعـاء ، الذي هو العبادة ، والدعاء الذي هو الطلب . وقوله بعد ذلك : (إن الذين يستكبرون عن عبادتي)

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح متواتر ، وقد ذكرت بعض طرقه في « ارواء الغليل » .

غافر ٦٠ - يؤيد المعنى الأول . الجواب الثاني : أن إجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء عين السؤال ، كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في « صحيحه » أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال : إما ان يعجل له دعوته ، او يدّخر له من الخير مثلها ، أو يصرف عنه من الشر مثلها » ، قالوا : يارسول الله ، إذاً نكثر ، قال : « الله اكثر »(١). فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لابد في الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلا ،او مثله من الخير مؤجلا ، أويصرف عنه من السوء مثله . الجواب الثالث : أن الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب ، والسبب له شروط وموانع ، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب ، بل قد يحصل غيره. وهكذا سائر الكلمات الطيبات من الأذكار المأثورة المعلق عليها جلبُ منافع او دفع مضار ، فإن الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل ، تختلف باختلاف قوته ومايعنيها ، وقد يعارضها مانع من الموانع . ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر - : من هذا الباب. وكثيراً ماتجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله ، او حسنة تقدمت منه ، جعل اللهسبحانهإجابة دعوته شكرَ الحسنة او صادف وقت إجابة ، ونحو ذلك - فأجيبت دعوته ، فيظن أن السر في ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي . وهذا كما اذا استعمل رجل دواء نافعاً في الوقت الذيينبغي ، فانتفع به ، فظن آخرُ أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب ، وكان غالطاً . وكذا قد يدعو باضطرار عند قبر ، فيجاب ، فيظن ان السر للقبر ، ولم يدر أن السر للاضطرار وصدق اللجء(٢) الى الله تعالى ، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله تعالى كان

---

(١) صحيح .

(٢) « اللجء » - بفتح اللام وسكون الجيم : مصدر ، كاللجوء .

أفضل وأحب الى الله تعالى . فالأدعية والتعوذات والرقي بمنزلة السلاح ، والسلاح بضاربه ، لابحده فقط ، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً ، والساعد ساعداً قوياً والمحل قابلا ، والمانع مفقوداً - : حصلت به النكاية في العدو ، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير . فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح ، او الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء ، او كان ثم مانع من الإجابة - : لم يحصل الأثر .

قوله : (ويملك كل شيء ، ولايملكه شيء . ولاغنى عن الله تعالى طرفة عين ومن استغنى عن الله طرفة عين ، فقد كفر وصار من اهل الحين) .

ش : كلام حق ظاهر لاخفاء فيه . والحين ، بالفتح : الهلاك .

قوله : (والله يغضب ويرضى ، لا كأحد من الورى) .

ش : قال تعالى : (رضي الله عنهم) المائدة : ١٢٢ والتوبة : ١٠١ والمجادلة ٢٢ والبينة : ٨ . (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) الفتح ١٨ . وقال تعالى : (من لعنه الله وغضب عليه) المائدة : ٦٠ . (/ وغضب الله عليه / ولعنه) النساء : ٩٣ . (وباؤوا بغضب من الله) البقرة : ٦١ . ونظائر ذلك كثيرة . ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب ، والرضى ، والعداوة والولاية ، والحب ، والبغض ، ونحو ذلك من الصفات ، التي ورد بها الكتاب والسنة ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة(١) بالله تعالى . كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات ، كما أشار اليه الشيخ فيما تقدم بقوله إذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف الى الربوبية - ترك التأويل ، ولزوم التسليم ، وعليه دين المسلمين(٢) . وانظر الى جواب الإمام مالك رضي الله عنه في صفة / الاستواء / كيف قال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول . وروي أيضاً

(١) في الاصل : اللائقة بما .
(٢) في الاصل : المرسلين .

عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً عليها، ومرفوعاً الى النبي صلى الله عليه وسلم.
وكذلك قال الشيخ رحمه الله فيما تقدم: «من لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه»(١). ويأتي في كلامه: «أن الإسلام بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعديل». فقول الشيخ رحمه الله: لا كأحد من الورى، نفي التشبيه. ولايقال: إن الرضى إرادة الإحسان، والغضب إرادة الانتقام - فإن هذا نفي للصفة. وقد اتفق اهل السنة على ان الله يأمر بما يحبه ويرضاه، وان كان لايريده ولايشاؤه، وينهى عما يسخطه ويكرهه، ويبغضه ويغضب على فاعله، وإن كان قد شاءه وأراده. فقد يحب عندهم ويرضى ما لايريده، ويكره ويسخط لما أراده.

ويقال لمن تأول الغضب والرضى بإرادة الإحسان: لم تأولت ذلك؟ فلابد أن يقول: إن الغضب غليان دم القلب، والرضى الميل والشهوة، وذلك لايليق بالله تعالى! فيقال له: غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب، لا أنه الغضب. ويقال له أيضاً: وكذلك الإرادة والمشيئة فينا، فهي ميل الحي الى الشيء أو الى مايلائمه ويناسبه، فإن الحي منا لايريد إلا مايجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة، وهو محتاج الى مايريده ومفتقر اليه، ويزداد بوجوده، وينتقص بعدمه. فالمعنى الذي صرفتَ اليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء، فإن جاز هذا جاز ذلك، وإن امتنع هذا امتنع ذلك.

فإن قال: الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد، وإن كان كل منها حقيقة؟ قيل له: فقل: إن الغضب والرضى الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد، وإن كان كل منهما حقيقة. فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات، لم يتعين التأويل، بل يجب تركه، لأنك تسلم من التناقض، وتسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا

(١) لا يصح مرفوعاً.

موجب . فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ، ولا يكون الموجب للصرف مادله عليه عقله ، إذ العقول مختلفة ، فكل يقول إن عقله دله على خلاف مايقوله الآخر !

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى ، لامتناع مسمى ذلك في المخلوق ، فإنه لابد أن يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف مايعهده حتى في صفة الوجود ، فإن وجود العبد كما يليق به ، ووجود الباري تعالى كما يليق به ، فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم ، ووجوده المخلوق لايستحيل عليه العدم ، وما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته ، مثل الحي والعليم والقدير ، أو سمى به بعض صفاته ، كالغضب والرضى ، وسمى به بعض صفات عباده ـ : فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الأسماء في حق الله تعالى ، وأنه حق ثابت موجود ، ونعقل أيضاً معاني هذه الأسماء في حق المخلوق ، ونعقل أن بين المعنيين قدراً مشتركا ، لكن هذا المعنى لايوجد في الخارج مشتركا ، إذ المعنى المشترك الكلي لايوجد مشتركا إلا في الأذهان ، ولايوجد في الخارج إلا معيناً مختصاً . فيثبت/في/ كل منهما كما يليق به . بل لو قيل : غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة ـ : لم يجب أن يكون مماثلا لكيفية غضب الآدميين ، لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الاربعة ، حتى تغلي دماء قلوبهم كما يغلي دم قلب الإنسان عند غضبه . فغضب الله أولى .

وقولة : (ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولانفرط في حب أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم . ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم . ولانذكرهم إلا بخير . وحبهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان) .

ش : لقد أثنى الله تعالى على الصحابة هو ورسوله ، ورضي عنهم ، ووعدهم الحسنى ، كما قال تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها

الأنهار ، خالدين فيها /أبداً/ ، ذلك الفوز العظيم) التوبة : ١٠٠ . وقال تعالى : (محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً) الفتح : ٢٩ ، الى آخر السورة . وقال تعالى : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) الفتح : ١٨ . وقال تعالى : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض) الانفال : ٧٢ ، الى آخر السورة . وقال تعالى : (لايستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير) الحديد : ١٠ . وقال تعالى : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون . والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم ،يحبون من هاجر اليهم ،ولايجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم) الحشر : ٨-١٠ . وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار ، وعلى الذين جاؤوا من بعدهم ، يستغفرون لهم ،ويسألون الله أن لايجعل في قلوبهم غلا لهم ، وتتضمن أن هؤلاء/هم/ المستحقون للفيء(١) ، فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لايستحق في الفيء نصيباً ، بنص القرآن . وفي « الصحيحين » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف شيء ، فسبه خالد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتسبوا أحدا من أصحابي ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ، ماأدرك مد أحدهم ولانصيفه »(٢) .

---

(١) في الاصل : للنجاء .

(٢) صحيح .

انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن ، دون البخاري . فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول لخالد ونحوه : « لاتسبوا أصحابي » ، يعني عبدالرحمن وأمثاله ، لأن عبدالرحمن ونحوه هم السابقون الأولون ، وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان ، /فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان/ ، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية ، وبعد مصالحة النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة، ومنهم خالد بن الوليد ، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم الى فتح مكة ، وسموا الطلقاء ، منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية . والمقصود أنه نهى من له صحبة آخراً أن يسب من له صحبة أولا ، لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لايمكن أن يَشركوهم فيه ، حتى لو أنفق أحدهم مثل أُحدذهباً مابلغ مدأحدهم ولا نصيفه . فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية ، وإن كان قبل فتح مكة فكيف حال من ليس من الصحابة بحال ؟ رضي الله عنهم أجمعين .

والسابقون الأولون - من المهاجرين والأنصار - هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم ، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة. وقيل : إن السابقين الاولين من صلى الى القبلتين ، وهذا ضعيف . فإن الصلاة الى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلة ، لأن النسخ ليس من فعلهم ، ولم يدل على التفضيل به دليل شرعي ، كما دل على التفضيل بالسبق الى الإنفاق والجهاد والمبايعة التي كانت تحت الشجرة .

وأما ما يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم »(١) - فهو حديث ضعيف ، قال البزار : هذا حديث لايصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس هو في كتب الحديث المعتمدة .

وفي « صحيح مسلم » عن جابر ، قال : قيل لعائشة رضي الله عنها : إن ناساً

---

(١) بل هو حديث باطل كما بينته في « الاحاديث الضعيفة والموضوعة » (رقم ٥٧) .

يتناولون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أبا بكر وعمر ! فقالت : وما تعجبون من هذا ! انقطع عنهم العمل ، فأحب الله أن لايقطع عنهم الأجر(١) .

وروى ابن بطة بإسناد صحيح ، عن ابن عباس ، أنه قال : لاتسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فلَمقام أحدهم ساعة ، يعني مع النبي صلى الله عليه وسلم ، خير من عمل أحدكم أربعين سنة(٢) . وفي رواية وكيع : خير من عبادة أحدكم عمره . وفي « الصحيحين » من حديث عمران بن حُصين وغيره ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ، قال عمران: فلا أدري : أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة(٣) ، الحديث . وقد ثبت في « صحيح مسلم » عن جابر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة »(٤) . وقال تعالى : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة) التوبة : ١١٧ ، الآيات . ولقد صدق عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم ، حيث قال : إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون على دينه ، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيء(٥) . /وفي رواية/ : وقد رأى أصحاب

---

(١) هذا حديث غريب عندي ، وعزوه لمسلم أغرب فاني لم أقف عليه فيه ، بعد الاستعانة عليه بكل الوسائل الممكنة ، ولم يتيسر لي مراجعته في مصادر أخرى من كتب الحديث .

(٢) صحيح . (٣) صحيح .

(٤) صحيح .

(٥) حسن موقوفا ، أخرجه الطيالسي وأحمد وغيرهما بسند حسن ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

محمد جميعا أن يستخلفوا أبا بكر . وتقدم قول ابن مسعود : من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات ، إلخ - عند قول الشيخ : ونتبع السنة والجماعة .

فمن أضل ممن يكون في قلبه غل على خيار المؤمنين ، وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين ؟

وقوله : ولا نفرط في حب أحد منهم - أي لا نتجاوز الحد في حب أحد منهم ، فنكون من المعتدين . قال تعالى : (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) النساء : ١٧١ .

وقوله: ولا نتبرأ /من أحد/ منهم - فأهل السنة يوالونهم كلهم ، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها ، بالعدل والإنصاف ، لا بالهوى والتعصب . فإن ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد ، كما قال تعالى : (فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) الجاثية : ١٧ .

وقوله : وحبهم دين وإيمان وإحسان - لأنه امتثال لأمر الله فيما تقدم من النصوص . وروى الترمذي عن عبدالله بن مغفل ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الله الله في أصحابي ، لاتتخذوهم غرضاً /بعدي/ ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله /تعالى/،/ ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه »(١) .

وقوله : وبغضهم كفر ونفاق وطغيان - تقدم الكلام في تكفير أهل البدع ، وهذا الكفر نظير الكفر المذكور في قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) المائدة : ٤٤ . وقد تقدم الكلام في ذلك .

---

(١) ضعيف ، وقال الترمذي : « غريب » .

قوله : (ونثبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، تفضيلا له وتقديما على جميع الأمة) .

ش : اختلف أهل السنة في خلافة الصديق رضي الله عنه : هل كانت بالنص ، أو بالاختيار ؟ فذهب الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث الى أنها ثبتت بالنصص الخفي والإشارة ، ومنهم من قال بالنص الجلي . وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية الى انها ثبتت بالاختيار .

والدليل على إثباتها بالنص اخبارٌ : من ذلك ما اسنده البخاري عن جبير بن مُطعم ، قال : اتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمرها أن ترجع اليه ، قالت : أرأيت إن جئتُ فلم أجدك ؟ كأنها تريد الموت ، قال : « إن لم تجديني فأتي أبا بكر »(١) . وذكر له سياق آخر ، وأحاديث أخر . وذلك نص على إمامته. وحديث حذيفة بن اليمان ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر »(٢) . رواه أهل السنن . وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها ، قالت : دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي بُدىء فيه ، فقال : ادعي لي أباك وأخاك ، حتى اكتب لأبي بكر كتاباً ، ثم قال : يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر »(٣) . وفي رواية : « فلا يطمع في هذا الامر طامع » . وفي رواية : قال : « ادعي لي عبدالرحمن بن ابي بكر لأكتب لأبي بكر كتاباً لايختلف عليه ، ثم قال : معاذ الله ان يختلف المؤمنون في ابي بكر » . واحاديث تقديمه في الصلاة مشهورة معروفة ، وهو يقول : « مروا أبا بكر فليصل بالناس »(٤) . وقد روجع في ذلك مرة بعد مرة ، فصلى بهم مدة

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

(٤) متفق عليه .

مرض النبي صلى الله عليه وسلم . وفي « الصحيحين » عن ابي هريرة ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بينا أنا نائم رأيتني على قليب ، عليها دلو فنزعت منها ماشاء الله ، ثم اخذها ابن ابي قحافة ، فنزع منها ذنوباً او ذنوبين ، وفي نزعه ضعف ، والله يغفر له ، ثم استحالت غرباً ، فأخذها ابن الخطاب ، فلم أرَ عبقرياً من الناس يفري فريه ، حتى ضرب الناس بعطن »(١). وفي « الصحيح » أنه صلى الله عليه وسلم قال على منبره : « لو كنت متخذاً من اهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، لايبقين في المسجد خوخة الا سدت ، الا خوخة أبي بكر »(٢) . وروى ابو داود ايضاً عن سمرة بن جندب : أن رجلا قال : يارسول الله ، رأيت كأن دلواً دلي من السماء ، فجاء ابو بكر فأخذ بعراقيها ، فشرب شرباً ضعيفاً ، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ، ثم جاء علي فأخذ بعراقيها ،فانتشطت منه ، فانتضح عليه منها شيء .وعن سعيد بن جمهان ، عن سفينة. قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء »(٣) . او « الملك » .

واحتج من قال لم يستخلف ، بالخبر المأثور ، عن عبدالله بن عمر ، عن عمر رضي الله عنهما ، أنه قال : « ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني ، يعني ابا بكر ، وان لا استخلف ، فلم يستخلف من هو خير / مني / ، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، / قال عبدالله : فعرفت أنه حين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مستخلف / . وبما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخلفاً لو استخلف . والظاهر ـ والله اعلم ـ ان المراد أنه

---

(١) صحيح .

(٢) متفق عليه .

(٣) حسن .

لم يستخلف بعهد مكتوب ، ولو كتب عهداً لكتبه لأبي بكر ، بل قد أراد كتابته ثم تركه ، وقال : « يأبى الله والمسلمون الا ابابكر »(١) . فكان هذا أبلغ من مجرد العهد، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دل المسلمين على استخلاف ابي بكر ،وارشدهم اليه بأمور متعددة ، من أقواله وأفعاله ، واخبر بخلافته إخبار راض بذلك ، حامد له ، وعزم على ان يكتب بذلك عهداً ، ثم علم ان المسلمين يجتمعون عليه ، فترك الكتاب اكتفـاء بذلك ، ثم عزم على ذلك في مرضه يوم الخميس ، ثم لما حصل لبعضهم شك : هل ذلك القول من جهة المرض ؟ او هو قول يجب اتباعه ؟ ترك الكتابة ، اكتفاء بما علم ان الله يختاره والمؤمنون من خلافة ابي بكر . فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه بياناً قاطعاً للعذر ، لكن لما دلهم دلالات متعددة على ان ابابكر المتعين ، وفهموا ذلك - حصل المقصود . ولهذا قال عمر رضي الله عنه ، في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار : أنت خيرنا وسيدنا واحبنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكر ذلك منهم أحد، فقد كانوا يعلمون فضل ابي بكر رضي الله عنه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم له . ففي «الصحيحين» عن عمرو بن العاص : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل ، فأتيته ، فقلت : أي الناس أحب اليك ؟ قال : « عائشة » ، قلت : من الرجال ؟ قال : « أبوها » ، قلت : ثم من ؟ قال : « عمر ، وعدّ رجالا »(٢) . وفيهما ايضاً ، عن ابي الدرداء ، قال : كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبل ابوبكر آخذاً بطرف ثوبه ، حتى ابدى عن ركبتيه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما صاحبكم فقد غامر » ، فسلم ، وقال : / يارسول الله / ، إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت اليه ، ثم ندمت ، فسألته ان يغفر لي / فأبى عليّ ، فأقبلت اليك / ، فقال : « يغفر الله لك يا أبابكر ، ثلاثاً » ثم إن عمر ندم ،

---

(١) مسلم .

(٢) صحيح .

فأتي منزل ابي بكر ، فسأل : أَثَمّ ابو بكر؟ فقالوا : لا ، فأتى الى النبي صلى الله عليه وسلم ، / فسلم عليه / ، فجعل وجه النبي صلى الله عليه وسلم يتمعر ، حتى اشفق ابو بكر ، فجثا على ركبتيه ، فقال : يارسول الله ، والله انا كنتُ اظلم ، مرتين / فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثني اليكم ، فقلتم : كذبت ، وقال ابو بكر : صدق ، وواساني بنفسه وماله ، فهل انتم تاركو لي صاحبي ؟ مرتين ، فما أوذي بعدها »(١) . ومعنى : غامر : غاضب وخاصم . ويضيق هذا المختصر عن ذكر فضائله .

وفي « الصحيحين » أيضاً ، عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسنح(٢) - فذكرت الحديث - الى أن قالت : واجتمعت الأنصار الى سعد بن عبادة ، في سقيفة بني ساعدة ، فقالوا : منا أمير ، ومنكم أمير ! فذهب اليهم أبو بكر /الصديق/ ، وعمر ابن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، فذهب عمر يتكلم ، فأسكته أبو بكر ، وكان عمر يقول : والله ما اردت بذلك إلا اني /قد/ هيأت في نفسي كلاماً قد اعجبني ، خشيت ان لايبلغه ابو بكر! ثم تكلم ابو بكر ، فتكلم ابلغ الناس ، فقال في كلامه : نحن الأمراء ، وانتم الوزراء ، فقال حباب بن المنذر : لا والله لا نفعل ، منا امير ومنكم امير . فقال ابو بكر : لا ولكنا الأمراء وانتم الوزراء . هم اوسط العرب ، واعزهم أحساباً ، فبايعوا عمر /بن الخطاب/ ، او ابا عبيدة بن الجراح ، فقال عمر : بل نبايعك ، فأنت سيدنا ، وخيرنا ، واحبنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ عمر بيده ، فبايعه ، وبايعه

---

(١) البخاري .

(٢) « السنح » ، بضم السين المهملة وسكون النون - ويجوز ضمها - وآخره حاء مهملة : طرف من اطراف المدينة بعواليها ، كان بينها وبين منزل النبي صلى الله عليه وسلم ميل ، وكان بها منزل ابي بكر .

الناس ، فقال قائل : قتلتم سعداً ، فقال عمر : قتله الله(١) . والسنح : العالية ، وهي حديقة بالمدينة معروفة بها .

قوله : (ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه) .

ش : اي وتثبت الخلافة بعد ابي بكر رضي الله عنه ، /لعمر رضي الله عنه/. وذلك بتفويض ابي بكر الخلافة اليه ، واتفاق الأمة بعده عليه . وفضائله رضي الله عنه اشهر من ان تنكر ، واكثر من ان تذكر . فقد روي عن محمد بن الحنفية انه قال : قلت لأبي : يا أبتِ ، من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يابني ، أو ما تعرف ؟ فقلت : لا ، قال : ابو بكر ، قلت : ثم من ؟ قال عمر ، وخشيت ان يقول : ثم عثمان ! فقلت : ثم انت ؟ فقال : ما أنا إلا رجل من المسلمين . وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا باللذين من بعدي : ابي بكر وعمر »(٢) . وفي « صحيح مسلم » ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : وضع عمر على سريره ، فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه ، قبل ان يرفع ، وانا فيهم ، فلم يرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي ، فالتفت اليه ، فإذا هو علي فترحم على عمر ، وقال : ماخلفت احداً احب الي أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وايم الله ، ان كنت / لأظن ان يجعلك الله مع صاحبيك ، وذلك أني كنت / كثيراً ما أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : جئت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وابوبكر وعمر ، وخرجت أنا وابوبكر وعمر ، فإن كنت لأرجو ، أو لأظن أن يجعلك الله معهما(٣) . وتقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، في رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزعه من القليب ، ثم نزع أبي بكر ، ثم استحالت الدلو غرباً ،

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

فأخذها ابن الخطاب ، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر ، حتى ضرب الناس بعطن(١) . وفي « الصحيحين » ، من حديث سعد بن أبي وقاص : قال : استأذن عمر ابن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وعنده نساء من قريش ،يكلمنه عالية اصواتهن - الحديث ، وفيه - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إيه ياابن الخطاب ! والذي نفسي بيده ، مالقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك »(٢) . وفي « الصحيحين » أيضاً، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كان يقول : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في امتي منهم احد ، فإن عمر بن الخطاب منهم »(٣) . قال ابن وهب : تفسير « محدَّثون » - ملهمون .

قوله : (ثم لعثمان رضي الله عنه) :

ش : أي وثبتت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما، وقد ساق البخاري رحمه الله قصة قتل عمر رضي الله عنه ، وأمر الشورى والمبايعة لعثمان ، في «صحيحه» فأحببت أن اسردها ، كما رواها بسنده : عن عمرو بن ميمون ، قال : رأيت عمر/ بن الخطاب / رضي الله عنه قبل ان يصاب بأيام بالمدينة ، وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان ابن حنيف ، فقال : كيف فعلتما ؟ أتخافانِ ان تكونا قد حملتما الأرض مالاتطيق ؟ قالا : حملناها أمراً هي له مطيقة ، ما فيها كبير فضل ، قال : انظر ان تكونا حملتما الأرض مالاتطيق ؟ قالا : لا ، فقال عمر : لئن سلمني الله لأدعن ارامل اهل العراق لايحتجن الى رجل بعدي أبدا ، قال : فما أتت عليه/ إلا / اربعة حتى أصيب ، قال : إني لقائم مابيني وبينه إلا عبدالله بن عباس غداة أصيب ، وكان اذا مرّ بين الصفين قال : استووا ، حتى اذا لم ير فيهن خللا تقدم / فكبر ،

---

(١) صحيح .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

وربما قرأ سورة يوسف ، او النحل ، او نحو ذلك في الركعة الاولى ، حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا ان كبر / ، فسمعته يقول : قتلني ، او اكلني الكلب ، حين طعنه فطار العِلج ُ بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يميناً وشمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا ، مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين ، طرح عليه برنساً ، فلما ظن / العلج / أنه مأخوذ ، نحر نفسه ، وتناول عمر يد عبدالرحمن بن عوف ، فقدّمه ، فمن يلي عمر فقد رأى الذي ارى ، وأما نواحي المسجد ، فإنهم لا يدرون غير انهم قد فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون : سبحان الله ، سبحان الله فصلى بهم عبدالرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا ، قال : يا ابن عباس انظر من قتلني ؟ فجال ساعة ، ثم جاء فقال : غلام المغيرة ، قال : الصَنَعُ ؟ قال : نعم ، قال : قاتله الله ! لقد أمرت به معروفاً ! الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يد رجل يدّعي الإسلام ، قد كنت انت وابوك تحبان ان تكثر العلوج بالمدينة ، وكان العباس اكثرهم رقيقاً ، فقال : إن شئت فعلت ؟ اي : إن شئت قتلنا ؟ قال : كذبت ! بعد ما تكلموا بلسانكم ، وصلوا قبلتكم ، وحجوا حجكم ؟ فاحتمل الى بيته ، فانطلقنا معه ، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ ، فقائل يقول : لا بأس عليه ، وقائل يقول : أخاف عليه ، فأتي بنبيذ فشربه ، فخرج من جوفه ، ثم أتي بلبن فشربه ، فخرج من جوفه ، فعرفوا أنه ميت ، فدخلنا عليه ، وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب ، فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك ، من صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدم في الاسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ، قال : وددت ان ذلك كفافٌ ، لا عليّ ولا لي ، فلما أدبر إذا إزاره يمس الارض ، قال : ردوا علي الغلام ، قال : يا ابن أخي ، ارفع ثوبك ، فإنه انقى لثوبك ، واتقى لربك ، يا عبدالله بن عمر ، انظر ما عليّ من الدين ؟ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانون ألفاً او نحوه ، قال : / إن / وفى له مال آل عمر ، / فأده من أموالهم / ، وإلا فسلْ في بني عدي بن كعب ، فإن لم تف أموالهم ، فسل في قريش ولا تعدهم الى غيرهم ، فأدِّ عني هذا المال ، انطلق الى عائشة ام المؤمنين ، فقل :

يقرأ عليك عمر السلام ، ولاتقل : أمير المؤمنين ، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه ، فسلم واستأذن ، ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدة تبكي ، فقال : يقرأ عليك عمر / بن الخطاب / السلام ، ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت اريده لنفسي ، ولأوثرنّ به اليوم على نفسي ، فلما اقبل ، قيل : هذا عبدالله / بن عمر / قد جاء ، قال : ارفعوني ، فأسنده رجل اليه ، قال : مالديك ؟ قال : الذي تحب يا أمير المؤمنين ، أذِنت ، قال : الحمد لله ، ما كان شيء أهم إليّ من ذلك ،فإذا انا قضيت فاحملوني ، ثم سلم فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لي فادخلوني ، وإن ردتني فردوني الى مقابر المسلمين ، وجاءت ام المؤمنين حفصة والنساء يسترنها(١) ، فلما رأيناها قمنا ، فولَجت عليه ، فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجال ، فولجت داخلا لهم ،فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا : أوْص يا أمير المؤمنين ، استخلف ؟ قال : ما أجد(٢) احق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أي الرهط ، الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فسمى علياً ، وعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وسعداً ، وعبد الرحمن ، وقال : يشهدكم عبدالله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التعزية له ، فإن أصابت الإمارة سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أمرّ ، فإني لم أعزله من عجز ولاخيانة ، وقال : أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين ، أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً ، الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم ردء الإسلام ، وجباة الأموال ، وغيظ العدو ، وأن لايأخذ منهم إلا فضلهم ، عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ، أن يأخذ من حواشي

---

(١) في الاصل : يسرن معها .

(٢) في الاصل : ما أحد .

أموالهم ، وأن ترد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفوا /إلا طاقتهم/ ، فلما قبض خرجنا به ، فانطلقنا نمشي ، فسلم عبدالله بن عمر ، قال : يستأذن عمر بن الخطاب ؟ قالت: أدخلوه ، فأدخل ، فوضع هنالك مع صاحبيه ، فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبدالرحمن : اجعلوا أمركم الى ثلاثة منكم ، قال الزبير :/ قد جعلتُ أمري الى علي ، فقال طلحة/: قد جعلت أمري الى عثمان ، وقال سعد : قد جعلت أمري الى عبدالرحمن /بن عوف/، فقال عبدالرحمن :أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله اليه ؟ والله عليه والاسلام ؟ لينظرن" أفضلهم في نفسه ، فأسكِتَ الشيخان ، فقال عبدالرحمن : أفتجعلونه إلي ؟ والله عليّ أن لا آلو عن أفضلكم ؟ قالا : نعم ، فأخذ بيد أحدهما ، فقال: لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والقَدَمُ في الاسلام ما قد علمت ، فالله عليك ، لئن أمرتك لتعدلن ؟ ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ؟ ثم خلا بالآخر ، فقال له مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق ، قال : ارفع يدك يا عثمان ، فبايعه ، فبايع له علي ، وولج أهل الدار فبايعوه .

وعن حميد بن عبدالرحمن : أن المِسور بن مخرمة أخبره: أن /الرهط/ ولاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا ، قال لهم عبدالرحمن : لست بالذي أنافسكم عن هذا الأمر، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم ؟ فجعلوا ذلك الى عبدالرحمن ، فلما ولّوا عبدالرحمن أمرهم ، فمال الناس على عبدالرحمن ، حتى ما أرى أحداً من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطأ عقبه ، ومال الناس على عبدالرحمن يشاورونه تلك الليالي ، حتى اذا كانت تلك الليلة /التي/ أصبحنا فيها فبايعنا عثمان ، قال المسور بن مخرمة : طرقني عبدالرحمن بعد هجع من الليل ، فضرب الباب حتى استيقظت ، فقال : أراك نائماً ؟! فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكبير نوم ، انطلق فادع لي الزبير وسعداً، فدعوتهما /له/ ، فشاورهما ثم دعاني ، فقال ادع لي علياً ، فدعوته ، فناجاه حتى ابهارّ الليل ، ثم قام علي من عنده وهو على طمع ، وقد كان عبدالرحمن يخشى من

علي شيئاً ، ثم قال : ادع لي عثمان ، /فدعوته/ ، فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح ، فلما صلى الناس الصبح ، واجتمع أولئك الرهط عند المنبر ، فأرسل الى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار ، و /أرسل/ الى أمراء الأجناد ، وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر ، فلما اجتمعوا تشهد عبدالرحمن ، ثم قال : أما بعد ، يا علي ، إني قد نظرت في أمر الناس ، فلم ارهم يعدلون بعثمان فلا تجعلن على نفسك سبيلا ، فقال لعثمان : ابايعك على سنة /الله و/رسوله صلى الله عليه وسلم والخليفتين من بعده ، فبايعه عبدالرحمن ، وبايعه الناس والمهاجرون والأنصار وامراء الأجناد والمسلمون .

ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة : كونه ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنتيه . وفي « صحيح مسلم » ، عن عائشة ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجعاً /في بيته/ ، كاشفاً عن فخذيه او ساقيه ، فاستأذن ابو بكر ، فأذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث ، ثم استأذن عمر ، فأذن له وهو كذلك ، فتحدث ، ثم استأذن عثمان ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسوى ثيابه ، فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل ابو بكر فلم تهتش له ولم تباله ، /ثم دخل عمر فلم تهتش ولم تباله/، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ؟ فقال « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة »(١) . وفي « الصحيح » : لما كان يوم بيعة الرضوان ، وأن عثمان رضي الله عنه كان قد بعثه النبي صلى الله عليه وسلم الى مكة ، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان الى مكة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم /بيده/ اليمنى : « هذه يد عثمان ، فضرب بها على يده ، فقال : هذه لعثمان »(٢) .

قوله : (ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه) .

ش : أي : ونثبت الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنهما . لما قتل عثمان

(١) صحيح . (٢) البخاري .

وبايع الناس علياً صار إماماً حقاً واجب الطاعة ، وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة ، كما دل عليه حديث سفينة المقدم ذكره ، أنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء »(١) .

وكانت خلافة ابي بكر الصديق سنتين وثلاثة اشهر ، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً ، وخلافة عثمان اثنتي عشر سنة ، وخلافة علي اربع سنين وتسعة اشهر ، وخلافة الحسن ستة اشهر واول ملوك المسلمين معاوية رضي الله عنه ، وهو خير ملوك المسلمين ، لكنه إنما صار إماماً حقاً لما فوض اليه الحسن بن علي رضي الله عنهم الخلافة ، فإن الحسن رضي الله عنه بايعه اهل العراق بعد موت ابيه ، ثم بعد ستة اشهر فوض الأمر الى معاوية ، فظهر صدق قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »(٢) . والقصة معروفة في موضعها .

فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه ، بمبايعة الصحابة ، سوى معاوية مع اهل الشام . والحق مع علي رضي الله عنه ، فإن عثمان رضي الله عنه لما قتل كثر الكذب والافتراء على عثمان وعلى من كان بالمدينة من اكابر الصحابة كعلي وطلحة والزبير ، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال ، وقويت الشهوة في نفوس ذوي الاهواء والأغراض ، ممن بعدت داره من اهل الشام ، ويحمي الله عثمان ، ان يظن بالأكابر ظنون سوء ، ويبلغه عنهم اخبار (٣) ، منها ما هو كذب ، ومنها ما هو محرف ، ومنها ما لم يُعرف وجهه ، وانضم الى ذلك اهواء اقوام يحبون العلو في الارض . وكان في عسكر علي رضي

---

(١) حسن ، وقد تقدم .

(٢) متفق عليه .

(٣) في الاصل : وبلغ عنهم أخبارا .

الله عنه ـ من اولئك الطغاة الخوارج ، الذين قتلوا عثمان ـ من لم يعرف بعينه ، ومن تنتصر له قبيلته ، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله ، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله ، ورأى طلحة والزبير أنه إن لم ينتصر للشهيد المظلوم ، ويقمع أهل الفساد والعدوان ، وإلا استوجبوا غضب الله وعقابه . فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي، ولا من طلحة والزبير ، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين، ثم جرت فتنة صفين لرأي ، وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم ، أو لا يتمكن من العدل عليهم ـ وهم كافون ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وأنهم يخافون طغيان من في العسكر ، كما طغوا على الشهيد المظلوم ، وعلي رضي الله عنه هو الخليفة الراشد المهدي الذي يجب طاعته ، ويجب أن يكون الناس مجتمعين عليه ، فاعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم ، بطلب الواجب عليهم ، بما اعتقد أنه يحصل به أداء الواجب ، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلفة قلوبهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخليفتين من بعده مما يسوغ ، فحمله ما رآه ـ من أن الدين إقامة الحد عليهم ومنعهم من الإثارة ، دون تأليفهم ـ : على القتال ، وقعد عن القتال أكثر الأكابر ، لما سمعوه من النصوص في الأمر بالقعود /في الفتنة/ ، ولما رؤوه من الفتنة التي تربو مفسدتها على مصلحتها . ونقول في الجميع بالحسنى : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم) الحشر : ١٠ . والفتن التي كانت في أيامه قد صان الله عنها أيدينا، فنسأل الله أن يصون عنها ألسنتنا ، بمنه وكرمه .

ومن فضائل امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه : ما في «الصحيحين» ، عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : « انت مني بمنزلة هرون/من موسى / ، إلا انه لا نبي بعدي »(١) . وقال صلى الله عليه وسلم يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ،

(١) صحيح .

ويحبه الله ورسوله» ، قال : فتطاولنا لها ، فقال : « ادعوا لي علياً ، فأتي به أرمد ، فبصق في عينيه ، ودفع الراية اليه ، ففتح الله عليه »(١) . ولما نزلت هـذه الآية : (فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ، ونساءنا ونساءكم، وانفسنا وانفسكم) آل عمران : ٦١ - دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وحسنا وحسيناً ، فقال : «اللهم هؤلاء اهلي»(٢) .

قوله : (وهم الخلفاء الراشدون ، والأئمة المهديون) .

ش : تقدم الحديث الثابت في « السنن » ، وصححه الترمذي ، عن العرباض بن سارية ، قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يارسول الله ، كأن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد الينا ؟ فقال : « اوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنه من يعش منكم بعـدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »(٣) . وترتيب الخلفاء الراشـدين رضي الله عنهم اجمعين في الفضـل ، كترتيبهم في الخلافة . ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما من المزية : ان النبي صلى الله عليه وسلم امرنا باتباع سنة الخلفاء الراشدين ، ولم يأمرنا في الاقتداء في الأفعال إلا بأبي بكر وعمر ، فقال : « اقتدوا باللذين من بعدي : ابي بكر وعمر »(٤) ، وفرقه بين اتباع سنتهم والاقتداء بهم ، فحال ابي بكر وعمر فوق حال عثمان وعلي رضي الله عنهم اجمعين . وقد روي عن ابي حنيفة تقديم علي على عثمان ، ولكن ظاهر

---

(١) متفق عليه .

(٢) مسلم .

(٣) صحيح ، وتقدم .

(٤) صحيح .

مذهبه تقديم عثمان /على علي/ . وعلى هذا عامة اهل السنة . /وقد/ تقدم قول عبدالرحمن بن عوف لعلي رضي الله عنهما : إني قد نظرت في امر الناس فلم ارهم يعدلون بعثمان . وقال ايوب السختياني من لم يقدم عثمان على علي فقد ازرى بالمهاجرين والأنصار . وفي « الصحيحين » عن ابن عمر ، قال : كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي : افضل امة النبي صلى الله عليه وسلم بعده ـ ابو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان(١) .

قوله : (وأن العشرة الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشرهم بالجنة ، نشهد لهم بالجنة ، على ماشهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله الحق ، وهم : ابو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسعيد ، وعبدالرحمن بن عوف ، وابو عبيدة بن الجراح ، وهو أمين هذه الأمة ، رضي الله عنهم أجمعين) .

ش : تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة . ومن فضائل الستة الباقين من العشرة رضي الله عنهم أجمعين : مارواه مسلم : عن عائشة رضي الله عنها : أرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، فقال : ليت رجلا صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة ، قالت : وسمعنا صوت السلاح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من هذا » ؟ فقال سعد ابن أبي وقاص : يارسول الله ، جئت احرسك ـ وفي لفظ آخر : وقع في نفسي خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام(٢) . وفي « الصحيحين » : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع لسعد بن ابي وقاص أبويه يوم أحد ، فقال ارم ، فداك ابي وامي(٣) . وفي « صحيح مسلم » ، عن قيس بن ابي حازم ، قال :

---

(١) البخاري :
(٢) مسلم :
(٣) صحيح :

رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد قد شلت(١) . وفيه ايضاً عن ابي عثمان النهدي، قال : لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض تلك الأيام التي قاتل فيها النبي صلى الله عليه وسلم غير طلحة وسعد(٢) . وفي « الصحيحين » ، واللفظ لمسلم ، عن جابر بن عبدالله قال : ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ، ثم ندبهم ، فانتدب الزبير ،فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لكل نبي حواري وحواري الزبير »(٣) وفيهما ايضاً عن الزبير رضي الله عنه ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم » ؟ فانطلقت ، فلما رجعت جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ابويه ، فقال : « فداك ابي وامي »(٤) . وفي « صحيح مسلم » ، عن انس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل أمة اميناً ، وإن اميننا ايتها الأمة : ابو عبيدة بن الجراح »(٥) . وفي « الصحيحين » عن حذيفة بن اليمان ،قال جاء اهل نجران الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يارسول الله ، ابعث الينا / رجلا / اميناً ،فقال : « لأبعثن اليكم رجلا اميناً حق / امين /،» قال : فاستشرف لها الناس ، قال : فبعث اباعبيدة بن الجراح »(٦) . وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه ، قال : اشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم اني سمعته يقول : « عشرة في الجنة : النبي في الجنة ، وابو بكر في الجنة ، وطلحة في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وسعد بن مالك في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة » ، ولو

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

(٤) صحيح .

(٥) صحيح .

(٦) صحيح .

شئت لسميت العاشر ، قال: فقالوا : من هو ؟ قال : سعيد بن زيد ، وقال : لمشهد رجل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعبر منه وجهه، خير من عمل احدكم ولو عُمِّر عُمر نوح(١) . رواه ابو داود ، وابن ماجة ، والترمذي وصححه. ورواه الترمذي عن عبدالرحمن بن عوف . وعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ابوبكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعلي في الجنة وعثمان في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير بن العوام في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة ، وابو عبيدة بن الجراح في الجنة »(٢) رواه الإمام احمد في « مسنده » . ورواه ابو بكر بن ابي خيثمة ، وقدم فيه عثمان على علي ، رضي الله عنهما . وعن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراء ، / هو / وابوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير ، فتحركت الصخرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اهدأ فما عليك إلا نبي او صدّيق او شهيد »(٣) . رواه مسلم والترمذي وغيرهما . وروي من طرق .

وقد اتفق اهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم ، لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم .

قوله : (ومن احسن القول في اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وازواجه الطاهرات من كل دنس ، وذرياته المقدسين من كل رجس ، فقد بريء من النفاق) .

ش : تقدم بعض ماورد في الكتاب والسنة من فضائل الصحابة رضي الله عنهم . وفي « صحيح مسلم » ، عن زيد بن ارقم ، قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً ، بماء يدعى : خماً ، بين مكة والمدينة ، فقال : « اما بعد ،

(١) صحيح . (٢) صحيح .

(٣) صحيح .

ألا أيها الناس ، فإنما انا بشر ، يوشك ان يأتي رسول ربي ، فأُجيب ، وانا تارك فيكم ثقلين : اولهما كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : واهل بيتي ، اذكركم الله في اهل بيتي ، ثلاثاً » (١) . وخرج البخاري عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه ، قال : ارقبوا محمداً في اهل بيته :

قوله : (وعلماء السلف من السابقين ، ومن بعدهم من التابعين ـ اهل الخير والأثر ، واهل الفقه والنظر ـ لا يُذكرون إلا بالجميل ، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل) :

ش : قال تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) النساء : ١١٥ . فيجب على /كل/ مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين ، كما(٢) نطق به القرآن ، خصوصاً الذين هم ورثة الأنبياء ، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم ، يهتدى(٣) بهم في ظلمات البر والبحر . وقد اجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، إذ كل امة قبل(٤) مبعث محمد صلى الله عليه وسلم علماؤها شرارها ، إلا المسلمين ، فإن علماءهم خيارهم ، فإنهم خلفاء الرسول من أمته ، والمحيون لما مات من سنته ، فبهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، وكلهم متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه ـ : فلا بدّ له في تركه من عذر : وجماع الأعذار ثلاثة أصناف : أحدها : عدم اعتقاده ان النبي صلى الله عليه وسلم قاله . والثاني : عدم اعتقاده أنه اراد تلك المسألة بذلك القول . والثالث : اعتقاده ان ذلك الحكم منسوخ

---

(١) صحيح .
(٢) في الاصل : مما .
(٣) في الاصل : يهدي .
(٤) في الاصل : بعد .

فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق ، وتبليغ ما أرسل به الرسول صلى الله عليه وسلم الينا ، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا ،فرضي الله عنهم وأرضاهم . (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولاتجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم)الحشر : ١٠ .

قوله : (ولانفضل أحداً من الأولياء على أحد من الانبياء عليهم السلام ، ونقول : نبي واحد أفضل من جميع الاولياء) .

ش : يشير الشيخ رحمه الله الى الرد على الاتحادية وجهلة المتصوفة ، وإلا فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشرع . فقد أوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسل ، قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا ليُطاع بإذن الله ، ولو انهم إذ ظلموا انفسهم جاؤوك) النساء : ٦٤ ، الى أن قال : (ويسلموا تسليما) النساء : ٦٥ . وقال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) آل عمران : ٣١ . قال ابو عثمان النيسابوري من أمّر السنة على نفسه قولا وفعلا ، نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه ، نطق بالبدعة . وقال بعضهم : ما ترك بعضهم شيئاً من السنة إلا لكبر في نفسه . والأمر كما قال ، فإنه إذا لم يكن متبعاً للأمر الذي جاء به الرسول ، كان يعمل بإرادة نفسه ، فيكون متبعاً لهواه ، بغير هدى من الله ، وهذا غش النفس ، وهو من الكبر ، فإنه شبيه بقول الذين قالوا : (لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته) الانعام : ١٢٤ . وكثير من هؤلاء يظن انه يصل برياسته واجتهاده في العبادة ، وتصفية نفسه ، الى ماوصلت اليه الانبياء من غير اتباع لطريقتهم ! ومنهم من يظن أنه قدصار افضل من الانبياء ! !

اما الولاية فهي ثابتة للمؤمنين المتقين ، كما قال تعالى : « الا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون » . ولكن لايبلغ الولي

مرتبة النبي مطلقاً ولايجوز تفضيل احد من الاولياء على احد من الانبياء :

قوله : (ونؤمن بما جاء من كراماتهم ، وصح عن الثقات من رواياتهم).

ش : فالمعجزة في اللغة تعم كل خارق للعادة، و / كذلك الكرامة / في عرف أئمة اهل العـلم المتقدمين . ولكن كثير من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما ، فيجعلون المعجزة للنبي ، والكرامة للولي . وجماعها : الأمر الخارق للعادة . فصفات الكمال ترجع الى ثلاثة : العلم ، والقدرة ، والغنى . وهذه الثلاثة لاتصلح على الكمال إلا لله وحده ، فإنه الذي أحاط بكل شيء علماً ، وهو على كل شيء قدير ، وهو غني عن العالمين . ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إني ملك ، إن اتبع إلا مايوحى إليّ)الانعام : ٥٠ . وكذلك قال نوح عليه السلام ، فهذا أول أولي العزم ، وأول رسول بعثه الله الى اهل الأرض ، وهذا خاتم الرسل وخاتم اولي العزم ، وكلاهما تبرأ من ذلك ، وهذا لأنهم يطالبونهم تارة بعلم الغيب كقوله تعالى : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها)النازعات : ٤٢ ، وتارة بالتأثير كقوله تعالى : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً)الاسراء: ٦٠ الآيات ، وتارة يعيبون عليهم الحاجة البشرية ، كقوله تعالى : (وقالوا ما لهـذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق)الفرقان : ٧ ، الآية . فأمر الرسول ان يخبرهم بأنه لايملك ذلك ، وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر مايعطيه الله ، فيعلم ماعلمه الله / إياه / ، ويستغني عما أغناه عنه ، ويقدر على ماأقدره عليه ، من الأمور المخالفة للعادة المطردة ، أو لعادة أغلب الناس . فجميع المعجزات والكرامات ما تخرج عن هذه الانواع :

ثم الخارق : إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين ، كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً ، إما واجب أو مستحب ، وإن حصل به أمر مباح ، كان

من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً ، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه ، كان سبباً للعذاب أو البغض ، كالذي أوتي الآيات فانساخ منها بلعام بن باعورا ، لاجتهاد أو تقليد ، أو نقص عقل أو علم ، أو غلبة حال ، أو عجز أو ضرورة . فالخارق ثلاثة أنواع : محمود في الدين ، ومذموم ، ومباح . فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة . وإلا فهو كسائر المباحات التي لا منفعة فيها . قال أبو علي الجوزجاني : كن طالباً للاستقامة ، لا طالباً للكرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة .

قال الشيخ السهروردي في « عوارفه » : وهذا أصل كبير في الباب ، فإن كثيراً من المجتهدين المتعبدين سمعوا السلف(١) الصالحين المتقدمين ، وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات ، فنفوسهم لا تزال تتطلع الى شيء من ذلك ، ويحبون أن يرزقوا شيئاً منه ، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب ، متهماً لنفسه في صحة عمله ، حيث لم يحصل له خارق ، ولو علموا بسر ذلك لهان عليهم الأمر ، فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك باباً ، والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة - يقيناً ، فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا ، والخروج عن دواعي الهوى . فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة ، فهي كل الكرامة .

وأما ما يبتلي الله به عبده ، من السر بخرق العادة أو بغيرها أو بالضراء - فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه ، بل قد سعد بها قوم إذا أطاعوه ، وشقي بها قوم إذا عصوه ، كما قال تعالى : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربي أكرمن . وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ، فيقول ربي أهانن ، كلا) الفجر : ١٥-١٧ . ولهذا كان الناس في هذه الأمور ثلاثة أقسام :

---

(١) في الأصل : سلف .

قسم ترتفع درجتهم بخرق العادة ، وقسم يتعرضون بها لعذاب الله ، وقسم يكون في حقهم بمنزلة المباحات ، كما تقدم .

فإذا تقرر ذلك ، فاعلم أن عدم الخوارق علماً وقدرة لاتضر المسلم في دينه ، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ، ولم يسخر له شيء من الكونيات ـ : لاينقص ذلك في مرتبته عند الله ، بل قد يكون عدم ذلك أنفع له ، فإنه إن اقترن به الدين وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة ، فإن الخارق قد يكون مع الدين ، وقد يكون مع عدمه ، أو فساده ، أو نقصه . فالخوارق النافعة تابعة للدين ، خادمة له ، كما أن الرياسة النافعة هي التابعة للدين ، وكذلك المال النافع ، كما كان السلطان والمال /النافع/ بيد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر . فمن جعلها هي المقصودة ، وجعل الدين تابعاً لها ، ووسيلة إليها ، لا لأجل الدين في الاصل ـ : فهو شبيه بمن يأكل الدنيا بالدين ، وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب ، أو رجاء الجنة ، فإن ذلك ما هو مأمور به . وهو على سبيل نجاة ، وشريعة صحيحة . والعجب أن كثيراً ممن يزعم أن همه قد ارتفع عن أن يكون خوفاً من النار أو طلباً للجنة ـ يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا !! ثم إن الدين إذا صح علماً وعملا فلابد أن يوجب خرق العادة ، إذا احتاج الى ذلك صاحبه . قال تعالى : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب) الطلاق : ٢-٣ . وقال تعالى : (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) الانفال : ٢٩ . وقال تعالى : (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً . وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيماً) النساء : ٦٦-٦٨ . وقال تعالى : (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون : لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) يونس : ٦٢-٦٤ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فِراسة المؤمن ، فانه ينظر بنور الله » . ثم قرأ قوله : « (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) الحجر : ٧٥ »(١) رواه الترمذي من رواية أبي سعيد الخدري.

---

(١) ضعيف فيه عند الترمذي وغيره عطية العوفي وهو ضعيف مدلس ،

وقال تعالى ، فيما يرويه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبـدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبـدي يتقرب إلي بالنوافل ، حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لاعطينه، ولئن استعاذني لاعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه »(١) . فظهر أن الاستقامة حظ الرب ، وطلب الكرامة حظ النفس . وبالله التوفيق .

قوله : (ونؤمن باشراط الساعة : من خروج الدجال ، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السـماء ، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها ، وخروج دابة الارض من موضعها) .

ش : عن عوف بن مالك الأشجعي ، قال : اتيت النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة /تبوك/ ، وهو في قبة /من/أدَم ، فقال : « اعـدد ستاً بين يدي الساعة : موتي ، ثم فتح بيت المقـدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كقُعاص الغنم ، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً ، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر ، فيغدرون ، فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، تحت كل غاية اثنا عشر الفاً »(٢) . وروي « راية » ، بالراء والغين ، وهما بمعنى . رواه البخاري وابو داود وابن ماجه والطبراني . وعن حُذيفة ابن أسيد ، قال : اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : « ماتذاكرون » ؟ قالوا : نذكر الساعة ، فقال : « إنها لن تقوم حتى ترَوْن /قبلها

---

(١) البخاري ، وفي سنده ضعيف ، لكن له طرق لعله يتقوى بها ، ولم يتيسر لي حتى الآن تتبعها وتحقيق الكلام عليها . (لاحظ التعليق ص ٢١٥ من هذا الكتاب) .

(٢) صحيح .

عشر آيات » ، / فذكر / : « الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم »(١) . رواه مسلم ، وفي « الصحيحين » ، واللفظ للبخاري ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : ذكر الدجال عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إن الله لايخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور ، وأشار بيده الى عينه وإن المسيح الدجال اعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية »(٢) . وعن انس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبي إلا وأنذر قومه الأعور الدجال ، ألا إنه اعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، ومكتوب بين عينيه ك ف ر »(٣) ، فسره في رواية : « اي كافر » . وروى البخاري وغيره ،عن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده ليوشكن ان ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلا ، فيكسر الصليب ،ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لايقبله احد ،حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا ومافيها »(٤) . ثم يقول ابو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : (وإن من اهل

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح ، رواه الترمذي (٢ / ٣٩) وقال : « حديث حسن صحيح » .قلت: وهو على شرط الشيخين .

(٤) صحيح . واعلم ان احاديث الدجال ونزول عيسى عليه السلام متواترة يجب الإيمان بها ، ولاتغتر بمن يدعي فيها انها احاديث آحاد ، فانهم جهال بهذا العلم ، وليس فيهم من تتبع طرقها ، ولو فعل لوجدها متواترة كما شهد بذلك ائمة هذا العلم كالحافظ ابن حجر وغيره ، ومن المؤسف حقاً ان يتجرأ البعض على الكلام فيما ليس من اختصاصهم لاسيما والأمر دين وعقيدة !

الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً)النساء : ١٥٩؛
وأحاديث الدجال ، وعيسى بن مريم عليه السلام ، ينزل من السماء ويقتله ، ويخرج
يأجوج ومأجوج في أيامه بعد قتله الدجال ، فيهلكهم الله اجمعين في ليلة واحدة
ببركة دعائه عليهم - : ويضيق هذا المختصر عن بسطها .

وأما خروج الدابه وطلوع الشمس من المغرب - فقال تعالى : (وإذا وقع
القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون
النمل : ٨٢ . وقال تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة او يأتي ربك او
يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن
آمنت من قبل او كسبت في إيمانها خيراً ،قل انتظروا إنا منتظرون)الانعام :١٥٨
وروى البخاري عند تفسير الآية ، عن ابي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن
عليها ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل »(١) . وروى مسلم ،
عن عبدالله بن عمرو ، قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لم
أنسه بعد ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن اول الآيات خروجاً
طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما ما كانت
قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً »(٢) . اي اول الآيات التي ليست مألوفة
وإن كان الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك ، وكذلك خروج
يأجوج ومأجوج ، كل ذلك امور مألوفة ، لأنهم بشر ، مشاهدة مثلهم مألوفة ،
وأما خروج الدابة بشكل غريب غير مألوف ، ثم مخاطبتها الناس ووسمها إياهم
بالإيمان او الكفر فأمر خارج عن مجاري العادات . وذلك اول الآيات الارضية ،
كما ان طلوع الشمس من مغربها ،على خلاف عادتها المألوفة - أول الآيات السماوية

---

(١) صحيح .
(٢) صحيح .

وقـد أفرد الناس / في / أحاديث اشراط الساعة مصنفات مشهورة ، يضيق على بسطها هذا المختصر :

قوله : (ولانصدق كاهناً ولاعرافاً ، ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة) .

ش : روى مسلم والإمام احمد عن صفية بنت أبي عُبيد، عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من أتى عرّافاً فسأله عن شيء ، لم يقبل له صلاةٌ اربعين ليلة »(١) . وروى الامام احمد في « مسنده » ، عن ابي هريرة ، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى عرّافاً او كاهناً ، فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما انزِل على محمد »(٢) .والمنجم يدخل في اسم « العراف » عند بعض العلماء ، وعند بعضهم هو في معناه . فإذا كانت هذه حال السائل ، فكيف بالمسؤول ؟ وفي « الصحيحين » و « مسند الامام احمد » ، عن عائشة ، قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان ؟ فقال : « ليسوا بشيء » ، فقالوا : يارسول الله ، انهم يحدثون احياناً بالشيء يكون حقاً ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في اذن وليه ، فيخلطون فيها / اكثر من / مائة كذبة »(٣) . وفي « الصحيح » عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « ثمن الكلب خبيث ، ومهر البغي خبيث ، وحُلوان الكاهن خبيث »(٤) . وحلوانه : الذي تسميه العامة حلاوته . ويدخل في هـذا المعنى ما تعاطاه المنجم وصاحب الأزلام التي يستقسم بها ، مثل الخشبة المكتوب

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) صحيح .

(٤) مسلم .

عليها « أ ب ج د » والضارب بالحصى ، والذي يخطّ في الرمل . وماتعاطاه هؤلاء حرام . وقد حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء ، كالبغوي والقاضي عياض وغيرهما .

وفي « الصحيحين » عن زيد بن خالد ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ، على إثر سماء كانت من الليل ، فقال : « أتدرون ماذا قال ربكم الليلة » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « /قال/ : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي ، كافر بالكوكب ، / وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي ، مؤمن بالكوكب / »(١) . وفي « صحيح مسلم ومسند الامام أحمد » ، عن أبي مالك الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أربع في أمتي من أمر الجاهلية ، لايتركونهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة »(٢). والنصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسائر الأئمة ، بالنهي عن ذلك - أكثر من أن يتسع هذا الموضع لذكرها . وصناعة التنجيم ، التي مضمونها الأحكام والتأثير ، وهو الإستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمريح بين القرى الفلكية والفوايل الأرضية - : صناعة محرمة بالكتاب والسنة ، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين ، قال تعالى : (ولايفلح الساحر حيث أتى) طه : ٦٩ . وقال تعالى : (ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) النساء : ٥١ . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره : الجبت السحر(٣) . وفي « صحيح البخاري » ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لأبي بكر غلام يأكل من خراجه ، فجاء يوماً بشيء ، فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام : تدري مم

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح .

(٣) في الأصل : السحرة ، وكلاهما مستقيم .

هذا ؟ قال : وماهو ؟ قال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية ، وما أحسن الكهانة، إلا أني خدعته ، فلقيني ، فأعطاني بذلك ، فهذا الذي أكلت منه ، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه(١) .

/قوله/ : (ونرى الجماعة حقاً وصواباً ، والفرقة زيغاً وعذاباً) .

ش : قال الله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) آل عمران : ١٠٣ . وقال تعالى : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم) آل عمران : ١٠٥ . وقال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ، إنما أمرهم الى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) الأنعام : ١٥٩ . وقال تعالى : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) هود : ١١٩ . فجعل أهل الرحمة مستثنين من الإختلاف . وقال تعالى : (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) البقرة: ١٧٦ . وقد تقدم قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، يعني الأهواء ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة »(٢) . وفي رواية : قالوا : من هي يارسول الله ؟ قال : « ماأنا عليه وأصحابي » . فبين أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة ، وأن الإختلاف واقع لامحالة . وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن /الشيطان/ ذئب الإنسان ، كذئب الغنم ، يأخذ الشاة القاصية ، /والناحية/ ، فإياكم والشعاب ، وعليكم بالجماعة ، والعامة ، والمسجد »(٣) . وفي « الصحيحين » عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال لما نزل

---

(١) صحيح .

(٢) صحيح : رواه أبو داود وغيره .

(٣) صحيح الإسناد .

قوله تعالى : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) الأنعام : ٦٥ ، قال : « أعوذ بوجهك » (أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) الأنعام : ٦٥ - قال : « هاتان أهون »(١) . فدل على أنه لابد أن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض ، مع براءة الرسول من هذه الحال ، وهم فيها في جاهلية . ولهذا قال الزهري : وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون ، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو قرح أصيب بتأويل القرآن - : فهو هدر ، انزلوهم منزلة الجاهلية . وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها ، أنها كانت تقول : ترك الناس العمل بهذه الآية ، يعني قوله تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله) الحجرات : ٩ . فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما امر الله تعالى، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية ، وهكذا تسلسل النزاع .

/والأمور/ التي تتنازع فيها الأمة ، في الأصول والفروع - إذا لم ترد الى الله والرسول ، لم يتبين فيها الحق ، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من امرهم ، فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضاً ، ولم يبغ بعضهم على بعض ، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الإجتهاد ، فيقر بعضهم بعضاً ، ولا يَعتدي ولا يُعتدى عليه ، وإن لم يرحموا وقع بينهم الإختلاف المذموم ، فبغى بعضهم على بعض ، إما بالقول ، مثل تكفيره وتفسيقه ، وإما بالفعل ، مثل حبسه وضربه وقتله . والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن ، كانوا من هؤلاء ، ابتدعوا بدعة ، وكفروا من خالفهم فيها ، واستحلوا منع حقه وعقوبته .

فالناس إذا خفي عليهم بعض مابعث الله به الرسول : إما عادلون وإما

---

(١) صحيح .

ظالمون ، فالعادل فيهم : الذي يعمل بما وصل اليه من آثار الأنبياء ، ولا يظلم غيره ، والظالم : الذي يعتدي على غيره . واكثرهم إنما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون ، كما قال تعالى : (وما أختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم) آل عمران : ١٩ . وإلا فلو سلكوا ماعلموه من العدل ، اقر بعضهم بعضاً ، كالمقلدين لأئمة العلم ، الذين يعرفون من انفسهم انهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل ، فجعلوا ائمتهم نواباً عن الرسول ، وقالوا : هذا غاية ما قدرنا عليه ، فالعادل منهم لايظلم الآخر ، ولايعتدي عليه بقول ولا فعل ، مثل ان يدعي ان قول مقلده هو الصحيح بلا حجة يبديها ، ويذم من خالفه ، مع انه معذور .

ثم إن انواع الافتراق والاختلاف في الأصل قسمان : اختلاف تنوع ، واختلاف تضاد :

واختلاف التنوع على وجوه : منه ما يكون كل واحد من القولين او الفعلين حقاً مشروعاً ، كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة رضي الله عنهم ، حتى زجرهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : « كلاكما محسن »(١) ، ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان ، والإقامة ، والإستفتاح ، ومحل سجود السهو ، والتشهد ، وصلاة الخوف ، وتكبيرات العيد ، ونحو ذلك ، مما قد شُرع جميعه وإن كان بعض أنواعه ارجح او افضل . ثم تجد لكثير من الأمة في ذلك من الإختلاف ما اوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك ! وهذا عين المحرم . وكذا تجد كثيراً منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع ، والإعراض عن الآخر والنهي عنه - : ما دخل به فيما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم . ومنه مايكون كل من القولين هو في المعنى القول الآخر ، لكن العبارتان مختلفتان ، كما قد يختلف

---

(١) البخاري .

كثير من الناس في ألفاظ الحدود ، وصيغ الأدلة ، والتعبير عن المسميات ، ونحو ذلك . ثم الجهل او الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين وذم الأخرى والإعتداء على قائلها ! ونحو ذلك .

واما اختلاف التضاد ، فهو القولان المتنافيان ، إما في الأصول ، وإما في الفروع ، عند الجمهور الذين يقولون : المصيب واحد . والخطبُ في هذا اشـد ، لأن القولين يتنافيان ، لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما ، او معه دليل يقتضي حقاً ما ، فيرد الحق مع الباطل ، حتى يبقى هـذا مبطلا في البعض ، كما كان الأول مبطـلا في الأصل ، وهذا يجري كثيراً لأهل السنة .

وأما اهل البدعة ، فالأمر فيهم ظاهر . ومن جعل الله له هداية ونوراً رأى من هذا ماتبين له منفعة ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا وأشباهه ،وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا ، لكن نور على نور .

وألاختلاف الأول ، الذي هو اختلاف التنوع ، الذم فيه واقع على من بغى على الآخر فيه . وقـد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك ، إذا لم يحصل بغي ، كما في قوله تعالى : (ماقطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فبإذن الله)الحشر : ٥ . وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار ، فقطع قوم وترك آخرون . وكما في قوله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث ، إذْ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان ، وكلاً آتينا حكماً وعلماً)الانبيـاء : ٧٨ - ٧٩ ، فخص سليمان بالفهم واثنى عليهـما بالحـكم والعلم : وكما في إقرار النبي صلى الله عليه وسلم يوم بني قريظة لمن صلى العصر في وقتهـا ،

ولمن اخرها الى ان وصل الى بني قريظة(١) : وكما في قوله : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله اجر »(٢) .

والاختلاف الثاني ، هو ما محمد فيه إحدى الطائفتين ، وذمت الأخرى ، كما في قوله تعالى : (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البينات ولكن اختلفوا ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر)البقرة : ٢٥٣ . وقوله تعالى : (هــذان خصمان اختصموا في ربهم ، فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) الحج : ١٩ ، الآيات .

واكثر الاختلاف الذي يؤول الى الأهواء بين الأمة - من القسم الأول ، وكذلك الى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضــاء . لأن إحدى الطائفتين لاتعترف للأخرى بما معها من الحق ، ولاتنصفها . بل تزيد على مامع نفسها من الحق زيادات من الباطل ، والأخرى كذلك . ولذلك جعل الله مصدره البغي في قوله : (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم)البقرة : ٢١٣ . لأن البغي مجاوزة الحد، وذكر هذا في غير موضع من القرآن ليكون عبرة لهذه الأمة . وقريب من هذا الباب ماخرجاه في « الصحيحين » ، عن ابي الزناد ، عن الأعرج ، عن ابي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ذروني ماتركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا امرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » . فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به ، معللا بأن سبب هــلاك الاولين إنما كان كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية .

---

(١) البخاري .

(٢) مسلم واحمد وغيرهما .

قوله : (ودين الله في الأرض والسماء واحد ، وهو دين الإسلام ، قال الله تعالى : (إن الدين عند الله الأسلام) آل عمران : ١٩ . وقال تعالى : (ورضيت لكم الاسلام ديناً) المائدة : ٣. وهو بين الغلو والتقصير ، وبين التشبيه والتعطيل ، وبين الجبر والقدر ، وبين الأمن والإياس) :

ش : ثبت في « الصحيح » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد »(١) . وقوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) آل عمران : ٨٥ - عامّ في كل زمان ، ولكن الشرائع تتنوع ، كما قال تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) المائدة : ٤٨ . فدين الاسلام هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على ألسنة رسله ، واصل هذا الدين وفروعه روايته عن الرسل ، وهو ظاهر غاية الظهور ، يمكن كل مميز من صغير وكبير ، وفصيح واعجم ، وذكي وبليد - : ان يدخل فيه بأقصر زمان ، وإنه يقع الخروج منه بأسرع من ذلك ، من إنكار كلمة ، او تكذيب ، او معارضة ، او كذب على الله ، او ارتياب في قول الله تعالى ، او ردّ لما انزل ، او شك فيما نفى الله عنه الشك ، او غير ذلك مما في معناه . فقد دل الكتاب والسنة على ظهور دين الإسلام ، وسهولة تعلمه ، وانه يتعلمه الوافد ثم يولي في وقته . واختلاف تعليم النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الالفاظ بحسب من يتعلم ، فان كان بعيد الوطن ، كضمام بن ثعلبة النجدي ، ووفد عبد القيس ، علمهم ما لم يسعهم جهله ، مع علمه ان دينه سينتشر في الآفاق ، ويرسل اليهم من يفقههم في سائر ما يحتاجون اليه ، ومن كان قريب الوطن يمكنه الإتيان كل وقت ، بحيث يتعلم على التدريج ، او كان قد علم فيه انه قد عرف ما لابد منه - اجابه بحسب حاله وحاجته ، على ما تدل قرينة حال السائل ، كقوله : « قل آمنت بالله ثم استقم » واما من شرع ديناً لم يأذن به الله ، فمعلوم ان اصوله المستلزمة له لايجوز ان تكون منقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن غيره من المرسلين ، إذ هو باطل ، وملزوم الباطل باطل ، كما ان لازم الحق حق :

(١) متفق عليه بنحوه :

وقوله : بين الغلو والتقصير - قال تعالى : (قل يا اهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق) المائدة: ٧٧ . وقال تعالى : (يا ايها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما احل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لايحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً ، واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون) المائدة : ٨٧-٨٨. وفي « الصحيحين » عن عائشة رضي الله عنها : ان ناساً من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا ازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر ؟ فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا اتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا انام على فراش ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ما بال اقوام يقول احدهم كذا وكذا ؟! لكني اصوم وافطر ، وانام واقوم ، وآكل اللحم ، واتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »(١) . وفي غير « الصحيحين » : « سألوا عن عبادته في السر ، فكأنهم تقالّوها »(٢) . وذكر في سبب نزول الآية الكريمة : عن ابن جريج ، عن عكرمة أن عثمان ابن مظعون ، وعلي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، والمقداد بن الأسود ، وسالماً مولى أبي حذيفة ، رضي الله عنهم في أصحابه - تبتلوا ، فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرّموا طيبات الطعام واللباس ، إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني اسرائيل ، وهموا بالاختصاء ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) المائدة : ٨٧ ، يقول : لاتسيروا بغير سنة المسلمين ، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار ، وما هموا به من الاختصاء ، فلما نزلت فيهم ، بعث النبي صلى الله عليه وسلم اليهم ، فقال : « إن لأنفسكم عليكم حقاً ، وإن لأعينكم حقاً ، صوموا وأفطروا ، وصلوا وناموا ، فليس منا من ترك

---

(١) صحيح .

(٢) البخاري :

سنتنا » ، فقالوا : اللهم سلّمنا واتبعنا ما أنزلت(١) .

وقوله : وبين التشبيه والتعطيل - تقدم أن الله سبحانه وتعالى يجب أن يوصف بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، من غير تشبيه ، فلا يقال : سمع كسمعنا ، ولا بصر كبصرنا ، ونحوه ، ومن غير تعطيل ، فلا ينفي عنه ما وصف به نفسه ، أو وصفه به أعرف الناس(٢) به : رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك تعطيل ، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى . ونظير هذا القول قوله : ومن يتوقّ النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه ، وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) الشورى : ١١ . فقوله : (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١- رد على المشبهة ، وقوله : (وهو السميع البصير) الشورى : ١١ - رد على المعطلة .

وقوله : وبين الجبر والقدر - تقدم الكلام ايضاً على هذا المعنى ، وان العبد غير مجبور على افعاله واقواله ، وانها / ليست / بمنزلة حركات المرتعش وحركات الأشجار بالرياح وغيرها ، وليست مخلوقة للعباد ، بل هي فعل العبد وكسبه وخلق الله تعالى .

وقوله : وبين الأمن والإياس - تقدم الكلام ايضاً على هذا المعنى ، وانه يجب ان يكون العبد خائفاً من عذاب ربه ، راجياً رحمته ، وان الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد ، في سيره الى الله تعالى والدار الآخرة .

---

(١) ضعيف بهذا السياق .

(٢) في الاصل : الخالق .

قوله : (فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً ، ونحن برآء الى الله تعالى من كل من خالف الذي ذكرناه وبيناه ،ونسأل الله تعالى ان يثبتنا على الايمان ،ويختم لنا به ، ويعصمنا من الأهواء المختلفة ، والآراء المتفرقة ، والمذاهب الردية ، مثل المشبهة ، والمعتزلة ، والجهمية ، والجبرية ، والقدرية ، وغيرهم ، من الذين خالفوا السنة والجماعة ، وحالفوا الضلالة ، ونحن منهم برآء ، وهم عندنا ضلال وأردياء . وبالله العصمة والتوفيق .

ش : الإشارة بقوله : « فهذا » كل ماتقــدم من اول الكتاب الى هنا .

والمشبهة : هم الذين شبهوا الله سبحـانه بالخلق في صفاته ، وقولهم عكس قول النصارى ،شبهوا المخلوق - وهو عيسى عليه السلام - بالخالق وجعلوه إلهاً ،وهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق ، كداود الجواربي وأشباهه .

والمعتزلة : هم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزال وأصحابهما ، سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري رحمه الله في اوائل المائة الثانية ، وكانوا يجلسون معتزلين ، فيقول قتادة وغيره : أولئك المعتزلة ،وقيل : إن واصل ابن عطاء هو الذي وضع اصول مذهب المعتزلة ، وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري، فلما كان زمن هارون الرشيد صنف لهم ابو الهذيل كتابين، وبين مذهبهم وبنى مذهبهم على الأصول الخمسة ، التي سموها : العدل ، والتوحيـد ، وإنفاذ الوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ! ولبّسوا فيها الحق بالباطل ، إذ شأن البدع هذا ، واشتمالها على حق وباطل .

والجهمية ، هم المنتسبون الى جهم بن صفوان السمرقندي ، وهو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل ، وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهم ، الذي ضحى به خالد بن عبدالله القسري بواسط ، فإنه خطب الناس في يوم عيد الأضحى ، وقال : أيها الناس ، ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعـد علواً كبيراً ! ثم نزل فذبحه . وكان ذلك بعد اسـتفتاء علماء زمانه ، وهم السلف الصالح

رحمهم الله تعالى : وكان جهم بعده بخراسان ، فأظهر مقالته هناك ، وتبعه عليها ناس ، بعد أن ترك الصلاة أربعين يوماً شكاً في ربه !

والجبرية ، أصل قولهم من جهم بن صفوان ، كما تقدم ، وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه ! وهم عكس القدرية نفاة القدر ، فإن القدرية إنما نسبوا إلى القدر لنفيهم إياه ، كما سميت المرجئة لنفيهم الإرجاء ، وقد تسمى الجبرية « قدرية » لأنهم غلوا في إثبات القدر ، وكما يسمى الذين لا يجزمون بشيء من الوعد والوعيد ، بل يغلون في إرجاء كل أمر حتى الأنواع ، فلا يجزمون بثواب من تاب ، كما لا يجزمون بعقوبة من لم يتب ، وكما لا يجزم لمعين .

وقد ورد في ذم القدرية أحاديث في « السنن » : منها ما روى أبو داود في « سننه » ، من حديث عبدالعزيز بن أبي حازم ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم »(١) . وروي في ذم القدرية أحاديث أخر كثيرة ، تكلم أهل الحديث في صحة رفعها ، والصحيح أنها موقوفة ، بخلاف الأحاديث الواردة في ذم الخوارج ، فإن فيهم في « الصحيح » وحده عشرة أحاديث ، أخرج البخاري منها ثلاثة ، وأخرج مسلم سائرها .

وسبب ضلال هذه الفرق وأمثالهم ، عدولهم عن الصراط المستقيم ، الذي أمرنا الله باتباعه ، فقال تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) الانعام : ١٥٣ . وقال تعالى : (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) يوسف : ١٠٨ فوحد لفظ « صراطه » و « سبيله » ، وجمع « السبل » المخالفة له . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ، وقال : « هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطاً

---

(١) حسن .

عن يمينه وعن يساره ، وقال : هـذه سبل ، على كل سبيل شيطان يدعو اليه ، ثم قرأ : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) » الانعام : ١٥٣ (١) . ومن ههنا يعلم أن اضطرار العبد الى سؤال هداية الصراط المستقيم فوق كل ضرورة ، ولهذا شرع الله تعالى في الصلاة قراءة أم القرآن في كل ركعة ، إما فرضاً أو ايجاباً ، على حسب اختلاف العلماء في ذلك ، لاحتياج العبد الى هذا الدعاء العظيم القـدر ، المشتمل على أشرف المطالب وأجلها . فقد أمرنا الله تعالى أن نقول : (أهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين) الفاتحة : ٥-٧ . وقـد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون »(٢) . وثبت في « الصحيح » عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القـذة بالقـذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ، قالوا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟! »(٣) .

سبحان ربك رب العـزة

عما يصفون . وسـلام

على المرسـلين .

والحمد لله رب

العـالمين .

---

(١) صحيح ، رواه الحاكم وغيره .

(٢) صحيح ، رواه الترمذي وغيره .

(٣) متفق عليه .

« وسبحانك اللهم وبحمدك ، أشـهد أن لا اله الا أنت ، استغفرك وأتوب اليـك » .

دمشق ١١/١٢/١٣٨١ — محمد ناصرالدين الالباني

الفهرس

قوبلت مخطوطة المكتب الاسلامي ، التي أخذ عنها هذا المختصر ، على مطبوعة مكة ، ومطبوعة الشيخ أحمد شاكر ، وما كان من زيادة في إحدى المطبوعتين اثبتت ضمن معترضين هكذا // .

والله الموفق الى الصواب

غرة رمضان ١٣٨٨ هجرية

كلمـــة شكر

يسرنا ان نقدم جزيل شكرنا ووافر امتناننا الى المكتب الاســلامي في بيروت على تفضله بالموافقة والسماح لنا على اختصار هذا الكتاب الذي اخذ عن مطبوعته القيمة المحققة التي جاءت من احسن الطبعات على الاطلاق .

والله نسأل ان يوفق العاملين في سبيله الى كل خير ..

دار النذير

